غزة تقاوم بالكتابة

قصصٌ قصيرة بقلم كتَّاب شباب في غزة - فلسطين

المحرر
رفعت العرعير

ترجمة
إيمان أسعد

مكتبة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

غزة تقاوم بالكتابة

قصص قصيرة بقلم كتّاب

شباب في غزة - فلسطين

عنوان الكتاب: **غزة تقاوم بالكتابة: قصصٌ قصيرة بقلم كتّاب شباب في غزة - فلسطين**

المحرر: **رفعت العرعير**

ترجمة: **إيمان أسعد**

العنوان باللغة الأصلية: Gaza Writes Back: Short Stories from Young Writers in Gaza, Palestine

المحرر: Refaat Alareer

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-47-6

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024

1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

Copyright © 2014 Refaat Alareer and 2024 Estate of Refaat Alareer

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

غزة تقاوم بالكتابة

قصص قصيرة بقلم كتّاب
شباب في غزة - فلسطين

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحرر

رفعت العرعير

المترجمة

إيمان أسعد

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

المحتويات

مقدمة المحرر ١٥

القصص

• **حنان حبشي**

نون نحيا ٣٥

• **محمد سليمان**

ذات يوم من أيام الحرب ٤٩

• **روان ياغي**

المعفى ٥٩

• **نور السوسي**

كناري ٦٥

• **سارة علي**

قصة الأرض ٧٣

• **سميحة علوان**

وجع أسنان في غزة.................................... ٨٣

• **نور السوسي**

هل سأخرج يومًا من هذا المكان؟ ٩٣

• **روان ياغي**

جدار.. ٩٩

• **نور البورنو**

الأرق أمنيتي ١٠٣

• **محمد سليمان**

البقجتان...١٠٩

• **رفعت العرعير**

على قطرة مطر ١١٩

• **جيهان الفرَّا**

رجاءً صوِّب لتقتل.................................١٢٥

• **يوسف الجمل**

عمر X ١٤٣

• **محمد سليمان**

راجعين يا بلادي راجعين ١٥١

• **روان ياغي**

من تحت الأنقاض ١٦١

• **وفاء أبو القمبز**

بس ربع ساعة ١٦٥

• **رفعت العرعير**

البيت ١٧١

• **تسنيم حمودة**

نذرلاند ١٨٧

• **إلهام حلّس**

ضاع في لحظة ١٩٣

• **تسنيم حمودة**

هذا رغيفي ٢٠٧

- **شهد عوض الله**

ذات فجر ٢١٣

- **رفعت العرعير**

الشيخ والحجر ٢٢٥

- **آية رباح**

لا شيء يبرِّر ندوبنا ٢٣٣

إذا كان لا بد أن أموت (If I must die) ٢٤٩

نبذة عن كُتَّاب قصص غزة تقاوم بالكتابة ٢٥٣

كلمة المترجمة ٣١٣

كلمة شكر ٣١٩

إلى فلسطين،

إلى غزة

ورغم حكم إسرائيل علينا بالموت
الكرَّة تلو الكرَّة
يهوي على رؤوسنا كما الرصاص المصبوب
يقضم حياتنا قضمةً قضمة

يعلق بها كما يعلق البرغوث بهريرة
يُحشَر في حناجرنا لحظة نردُّ «آمين»
على صلوات عجائزنا وشيوخنا
فيصدّ سبل صلواتهم إلى الله

سنظل نحلم ونصلي
سنظل نتشبث بالحياة أكثر وأكثر
كل مرة تُقتَلع حياة عزيزٍ علينا قسرًا.
نعيش. نعيش.
نحيا.

«الحكَّاؤون مصدر تهديد. يهددون كلَّ مناصري فرض السيطرة، ويرعبون مغتصبي حقَّ الروح الإنسانية في الحرية..».

تشينوا أتشيبي

كثبان النمل في السافانا

مقدمة المحرر

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحيانًا يصير الوطن حكاية. والحكاية نحبها لأنها عن وطننا، ونحب وطننا أكثر بفعل الحكاية.

هذا كتابٌ هو الأول من نوعه: *غزة تقاوم بالكتابة* يعيد توثيق الأحداث، ويخلِّد من خلال كتابة القصة الذكرى الخامسة للهجوم العسكري الكاسح «الرصاص المصبوب» الذي شنته إسرائيل على غزة بين ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨ و١٨ يناير ٢٠٠٩. هذه القصص التي كتبها كتَّابٌ يافعون من غزة، باللغة الإنجليزية، سرديةٌ فلسطينية يافعة، العالَمُ في أمسِّ الحاجة إلى وجودها من دون وساطة الترجمة وتأثيرها، ومن دون وساطة الأصوات غير الفلسطينية. *غزة تقاوم بالكتابة* يقاوم محاولات إسرائيل سفك هذه الأصوات الناشئة، وتبديد معاناة الشهداء، وتبييض يديها من الدم، وكبح الدموع وخنق الصرخات. هذا كتابٌ يُري العالم أنَّ رغم محاولات إسرائيل الحثيثة قتل الصمود فينا، سنظل نحن الفلسطينيين نواصل الحياة، لن نستسلم أبدًا للآلام والموت، ودومًا سنظل نرى الحرية والأمل

نصب أعيننا ونسعى إليهما حتى في أحلك الأوقات. *غزة تقاوم بالكتابة* دليلٌ حاسم على أنَّ سرد القصص فعلُ حياة، أنَّ سرد القصص فعلُ مقاومة، أنَّ سرد القصص يشكِّل ذكرياتنا. سميحة علوان، كاتبة مشاركة في هذا الكتاب، تلحظ تحديدًا أنَّ «الفضاء السيبراني، هذه المساحة المركزية المستحدثة حيث السرد القصصي دومًا في طور العمل، يمنح الأصوات الفلسطينية في الشتات حيزًا ينطوي على احتمالات جديدة في صياغة سبل جديدة للانتماء أو خلق المكان».

القصص والسرديات جزءٌ لا يتجزأ من أي تجمُّعٍ إنساني، إذ تمكِّن الناس من إدراك ماضيهم وربطه بحاضرهم، في وسعها أن تكون الخيط الأساسي الذي يصلهم بالماضي، وتمنحهم صورة الحلم الذي يُنتظَر تحقيقه. الفلسطينيون تحديدًا شبُّوا على الاعتزاز بالقصص والسعي وراءها. حقًّا، فعل سرد القصص في ذاته يشكل ثيمة أساسية في بعض قصص هذا الكتاب، لأنَّ الكُتّاب يعرفون جيدًا أنَّ القصص تعمّر أطول من أي تجربة إنسانية أخرى. فلا تجمُّع عائلي يخلو من قصة أو قصتين حول الأيام الخوالي في فلسطين حين كانت *فلسطين* التي تجهلها الأجيال الحالية وحُرمت من معايشتها. وبما إنَّ كل فلسطيني عايش رواية القصص سماعًا وسردًا، أصبحت لدينا *فلسطين* تسكننا جميعًا، فلسطين التي تحتاج إلى الإنقاذ: فلسطين حرة حيث يتعايش كل الناس بعضهم مع بعض، بصرف النظر عن اللون والدين والعرق، فلسطين حيث

معنى مفردة «احتلال» يقتصر على ما يذكره القاموس عوضًا عن كل معاني ودلالات الموت والتدمير والألم والمعاناة والفقد والعزل والقيود التي حقنتها إسرائيل في تلك المفردة. تلك الممارسات الإسرائيلية المروِّعة وغيرها كثير، يلتقطها الكاتب الفلسطيني -اليافع تحديدًا- فيستحضرها ويجسدها في صورة سردية قصصية، في محاولةٍ منه إدراك السياق غير المعقول لتلك الممارسات وبحثًا عن فلسطين. تلك السرديات، حتى حين تُصيَّر سردًا مجازيًّا، لها أن تصبح واقعًا جميلًا تكون فيه فلسطين على بُعْدِ شهيد، على بُعْدِ دمعة، على بُعْدِ قذيفة، على بُعْدِ أنين.

فلسطين على بُعْدِ قصة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عملية الرصاص المصبوب

عملية الرصاص المصبوب أصابتنا جميعًا، كل من عاش في غزة حينها، بصدمة عميقة. لكن إن نظرنا إليها من المنظور التاريخي فهي ليست سوى هجمة دامية ضمن سلسلة الهجمات الإسرائيلية المهلِكة التي يشنها الجيش الإسرائيلي، وشنتها من قبله الميليشيات اليهودية قبل عام ١٩٤٨ في فلسطين ضد سكان فلسطين الأصليين. في معارك عاميْ ١٩٤٧-١٩٤٨، أغارت القوات اليهودية والإسرائيلية على القرى الفلسطينية والبلدات داخل الحدود التي «منحتها» الأمم المتحدة للدولة اليهودية، أغارت حتى على تلك القرى الواقعة بعيدًا خارج الحدود، وهجَّرت أكبر عدد ممكن من العائلات الفلسطينية من الأراضي التي وقعت تحت سيطرة

إسرائيل. في عام ١٩٥٦، احتلَّت إسرائيل غزة وشبه جزيرة سيناء المصرية بأكملها، وأوقعت مجازر مروعة عديدة بأهل غزة. في عام ١٩٦٧، احتلت إسرائيل غزة مرة أخرى، كما احتلت كامل الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية. أحكمت إسرائيل سيطرتها على تلك المناطق تحت وضعٍ مؤقت يدعوه المحامون الدوليون بـ«الاحتلال العسكري»، وبعد خمس وأربعين عامًا، لا تزال إسرائيل تسيطر، تتحكم في سكَّان الضفة وغزة بقبضة القانون العسكري الحديدية. في الضفة الغربية، غرست السلطات الإسرائيلية ٦٠٠ ألف مستوطن مدني في تحدٍّ مباشر للقوانين الدولية. وفي غزة أحكمت الحصار عليها، حصارًا يتقطَّع بين وقت وآخر بفورات همجية من العنف المميت. لأعوام عديدة، حارب الجيش الإسرائيلي المدجَّج بالسلاح المقاومين الفلسطينيين، وبثَّ الرعب في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. كما اغتال جهازُها الاستخباراتي مفكرين فلسطينيين ومن يشتبه في كونهم ضمن القيادة الفلسطينية في بيروت وتونس والنرويج ومالطا ودبي، ومرات عديدة في الضفة الغربية وغزة.

حتى إذا نظرنا إلى الرصاص المصبوب من خلال عدسة هذا التاريخ، فستظل صدمة هذا الهجوم على غزة بعيدة المدى. فالموت والدمار الذي ألحقته إسرائيل بغزة بلا أي تمييز وأوقعته على رؤوس أهلها تسبَّب في مقتل أكثر من ١٤٠٠ فلسطيني، وإصابة أكثر من ٥٠٠٠ جريح، وتدمير أكثر من ١١ ألف بيت إما تدميرًا كليًّا وإما

خلفته في أضرار كارثية، وتدمير عدد لا يحصى من الأبنية الصناعية، والمحلات، والطرق والجسور وغيرها من البنى التحتية. مشاهد الغارات والقتل المفاجئ، المشاهد الأولى لأجساد أفراد الشرطة الممزقة إلى أشلاء، خلَّفت ندوبًا في أرواح وقلوب كل الفلسطينيين والأحرار حول العالم، إذ سمح وجود منصات التواصل الاجتماعي بتغطية الاعتداء الإسرائيلي، لأول مرة، لحظةً بلحظة. بدأ الناس حول العالم، على نحو متزايد، يحشدون الرأي العام لصالح غزة. وعلى نحوٍ متزايد، بدأ الناس يكتبون عن غزة. القصف الجوي الذي حصد أرواح المئات من أفراد الشرطة وطلبة المدارس من الأطفال والمدنيين، أشعلت أيضًا شغفًا عظيمًا لدى كثير من الفلسطينيين، بخاصة في غزة، تجاه الكتابة.

خلال هذا الهجوم العدواني، أدرك الفلسطينيون في غزة أكثر من أي وقت مضى أنَّ لا أحد، أيًّا يكون وأينما يكون، محصَّن من نيران إسرائيل. رصاص إسرائيل المصبوب هنا وهناك بلا أي تمييز، لم يهدف فقط إلى صهر أجسادنا -وقد صهرها- لكن إلى صهر ولائنا لوطننا وأملنا وذكرياتنا، وهو ما فشل في تحقيقه. بعد ثلاثة وعشرين يومًا، نهض أهل غزة ونفضوا عن أنفسهم الغبار وبدأوا الرحلة الشاقة نحو إعادة بناء البيوت والبنى التحتية، إعادة بناء كل ما بددته الصواريخ ونثرته. ثلاثة وعشرون يومًا دونما انقطاع من العداء والكراهية الإسرائيلية، نهضت بعدها غزة كما تنهض العنقاء.

الناس الذين اصطفوا طوابير أمام المشارح وودَّعوا أحبابهم، بعدها بأيام اصطفوا طوابير أمام المخابز التي لم ترفع أسعارها، وتوجهوا إلى متاجر البقالة التي أيضًا لم ترفع أسعارها، وعادوا إلى منازلهم بالقليل الذي تمكنوا من شرائه ووزعوه على الناس العاجزة عن الشراء لعدم امتلاكها المال، لم يسبق لأهل غزة أن تعاضدوا على هذا النحو. فقد غدت غزة متجذرة عميقًا، ليس في قلب كل فلسطيني فحسب، بل في كلِّ روحٍ حرة حول العالم، تقف منتصبة الرأس والكتفين تعلو كل من سواها. فغزة ما انحنت قط ولا طأطأت رأسها، غزة علمتنا محاربة الطغيان بالقليل الذي لدينا، وبأي وسيلة ممكنة. غزة علمتنا ألا نركع أبدًا، وألا نفكِّر حتى في الركوع يومًا. ولهذا أنتجنا هذا الكتاب: لكي نكرِّم هذه المزية في غزة. لكن لا تخلط هذا الكتاب بمحاولة رمنسة الحرب، فالحرب قبيحة بكل ما فيها، كما كتبت سميحة علوان: «الألم في تلك الأيام الثلاثة والعشرين ألمٌ لا يطاق، وبعضنا ممن كتب عن الرصاص المصبوب إنما فعل ذلك لكي يسكِّن شيئًا من الألم الذي تتسبب به الذكريات المروعة. ومهما كانت روح المقاومة التي اعترتنا حينذاك جميلة، علينا ألا ندع أبدًا لهذا الجمال أن يغطي قبح الظلم البيِّن».

أقسم كثيرون في غزة على القتال دفاعًا عنها، وأقسم كثيرون أُخَر على حماية ظهور المقاتلين، وبعض الغزيين لاذوا إلى أقلامهم، أو لوحات مفاتيحهم. أقسموا على فضح عدوانية إسرائيل كتابةً، باللغة الإنجليزية، لكي يعرف العالم بأسره من هي «الديمقراطية

الوحيدة» في الشرق الأوسط، وكيف قبل عامين من ٢٠٠٨ وأدت تلك الديمقراطيةُ الوحيدة، بمساعدة القوى الغربية، الديمقراطيةَ حديثة الولادة في فلسطين. هؤلاء المدونون والناشطون هم من صيَّر هذا الكتاب واقعًا. ومثل كل مجتمع آخر، فالمجتمع الفلسطيني ليس مثاليًّا، وهذه الحقيقة تلامسها تلك القصص. فإضافةً إلى تناول مواضيع الاحتلال، فإنَّ لتلك القصص غايات اجتماعية، إذ لا تفشل البتة في توجيه أصابع الاتهام، في أغلبه توجيه رمزيّ، نحو القيادة الفلسطينية الكهلة وبعض الأعراف الاجتماعية غير المرغوب فيها.

أنا لا ألِّمح هنا إلى أنَّ كتابة القصة الفلسطينية بأقلام شبان واعدين هي مجرد رد فعل، بل الأحرى هي فعلٌ إبداعي، وردٌّ استباقي: أن يقاوموا بالكلمات الأوضاع المروِّعة التي فرضت عليهم. فقد آن الأوان لهذه الموجة من الكتَّاب أن تنبثق؛ فهم يملكون الأدوات -تمكُّن ممتاز من اللغة الإنجليزية ومهارات التواصل الاجتماعي- والدافع والحماسة، والأهم من كل ذلك الإدراك الواعي أنَّ «الردَّ كتابةً» ضد احتلال إسرائيل الطويل واعتداءاتها المستمرة وعملية الرصاص المصبوب التزامٌ أخلاقي وواجبٌ وطني نحو فلسطين ونحو غزة التي لا تزال جريحة لكن صامدة. كذلك، فإنَّ «الرد كتابةً» هو فعل مقاومة والتزامٌ تجاه الإنسانية من خلال نشر الكلمة في العالم بأسره ورفع وعي الناس الذين أعمتهم حملات «الحسبرة» الإسرائيلية الإعلامية البالغ حجمها مئات الملايين من الدولارات (حسبرة تعني الإقناع، أو بمعناها الأدق التضليل المعلوماتي).

القصص والكُتَّاب

القصص الثلاث والعشرون في هذه المجموعة جرى اختيارها من بين عشرات القصص التي استلمناها. كلها كُتبت بلغة إنجليزية عدا قصتي «الكناري» و«هل سأخرج يومًا من هذا المكان؟» (رفعت العرعير ترجم الأولى ومحمد سليمان ترجم الثانية)، القصص كتبها خمسة عشر كاتبًا، ثلاثٌ منهم فقط رجال. نحو نصف القصص بدأت كواجب في صفوف الكتابة الإبداعية والقصة التي أدرِّسها، وكثيرٌ من هؤلاء الكتَّاب بدأوا كمدوِّنين ولم يسبق لهم كتابة القصة. عملي عن قرب مع هذا العدد من المواهب الشابة في غزة أثبت لي أنَّ كل ما تحتاج إليه تلك المواهب حتى تزهر هو التشجيع الملائم والعناية والتدريب العملي على حرفة الكتابة.

هذه القصص تمثِّل الأصوات الشابة بلا وساطة، الأصوات التي ضاقت ذرعًا بالاحتلال والمجتمع الدولي والقيادة الفلسطينية الهَرِمة. كما تنطوي على طبقات غنية من النقاش والرؤية الذاتية للعالم، وهذه الرؤية ترجِّع أحيانًا صدى سرديات قديمة أو عناصر منها، لكنها في أغلبها سرديات فريدة، ليس فحسب في استخدامها الإنجليزية وسيطًا لكن في منحها بصيرة عميقة حول المحنة الفلسطينية. لدى كتابة هذه القصص انطلق هؤلاء الكتاب نحو التجريب على عدة طرائق وعلى مستويات مختلفة بدءًا بالمنظور والأسلوب والحبكة والشكل. واللافت تحديدًا في هذه القصص محاولتها «غزو» نفسية الجندي الإسرائيلي، وهي ظاهرة جديدة نسبيًّا في السرديات الشابة.

حتى قبل عملية الرصاص المصبوب، استعان الشباب الفلسطيني بالتدوين ومنصات التواصل الاجتماعي في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي وفضح ممارساته، لكن جاءت مرحلة ما بعد الحرب وشهدنا دفقة جديدة من الكتّاب يستعملون هذه الأدوات. فقد آمن الشبان المتمكنون جيدًا من اللغة الإنجليزية بأنَّ لديهم فرصة منح رؤيتهم الذاتية للعالم صوتًا يسمعه الآخر. العديد منهم غمرته الحماسة لما أتاحته اللغة الإنجليزية ومهارات التواصل الاجتماعي من احتمالات حقيقية لكسر العزلة التي ما انفكَّت إسرائيل تحاول فرضها عليهم، والتواصل مع ناشطي التضامن مع غزة حول العالم الذين أسسوا، بعد عام من عملية الرصاص المصبوب، كثيرًا من القواعد التنظيمية وأنتجوا الدماء الجديدة الهادفة إلى الضغط من أجل حصول الفلسطينيين على حقوقهم، بما فيها حق فلسطينيي غزة في عيش حياة كريمة طبيعية حرة والخلاص من الفاقة والعوز اللانهائيين بفعل الحصار الإسرائيلي.

كثيرٌ من هؤلاء الكتاب كانت اللغة الإنجليزية تخصصهم الجامعي، ما يعني أنهم قرءوا الأدبين الإنجليزي والعالمي. هم أيضًا قرَّاء مطَّلعون جيدًا على الكتابات الفلسطينية بكل أجناسها، ودومًا ما سعوا إلى الإلهام من إدوارد سعيد وغسان كنفاني ومحمود درويش وجبرا إبراهيم جبرا وسعاد عميري وسوزان أبو الهوى وسماح سبعاوي وعلي أبو نعمة وغيرهم كثيرون. ومن الواضح أنَّ هؤلاء الكتّاب الفلسطينيين تركوا أثرهم البالغ في نصوص الجيل

الفلسطيني الشاب من مدونين وكتَّاب. لهذا، فإن الكتابة التي تولدت بدءًا من منشور على فيسبوك، تغريدة على تويتر، تدوينة قصيرة في مدونة تلتها تدوينات طويلة، قد تطورت بفعل الممارسة والتدريب إلى كتابة القصة، وهو جنس الكتابة الأشمل إنسانيةً وعالميةً من أي جنس آخر. الموجة الأولى من تلك الكتابة ارتكزت أساسًا على الوصف، أي الكتابة التي تعتمد أسلوب «هذا ما حدث وهذا رأيي فيما حدث»، لاحقًا انزاحت هذه الموجة وفتحت سبيلًا أمام كتابة القصة التي هي موضوع هذه المجموعة من المقتطفات الأدبية. خطوة الانتقال من كتابة المقال -مجال الكتابة لدى بعض الكتَّاب في هذه المجموعة ولا يزالون يمارسونها- إلى كتابة القصة كانت خطوة ذكية. فمقالات الرأي وإن كانت بلا شك مؤثرة وذات معنى، فإنَّ تأثيرها قصير المدى وكُتبت أساسًا لجمهور القراء الذي يساندك. أما كتابة القصة بقلقها الإنساني وجاذبيتها الكونية فتتجاوز هذا المدى لأنها تمس مجموعة أكبر بكثير من الناس، ولا تترك تأثيرًا لحظيًّا في القارئ بل تأثيرًا يمتد عقودًا بعد قراءتها. والكتّاب الشباب في هذه المجموعة يدركون جيدًا أنَّ القصة تتجاوز حدود الزمن والاعتقاد والمكان.

الكتاب، كما أشرت أعلاه، يتضمن عددًا أكبر من الكاتبات مقارنة بعدد الرجال. هذا الواقع ليس على حساب الشباب، بل لأنَّ عدد الكاتبات اليافعات في غزة اللواتي يستخدمن وسائل التواصل الاجتماعي ويكتبن نصوصًا أدبية باللغة الإنجليزية يفوق عدد

نظرائهن من الرجال. وهذه الحقيقة تُظهر لك إلى أي مدى أصبحت المرأة الفلسطينية مهمة في الأعوام الأخيرة، فقد تدبرت استخدام كل الأدوات المتاحة لأخذ المبادرة ولعب دورٍ ذي معنى في الحفاظ على الهوية الفلسطينية ومقاومة الاحتلال وبناء مجتمع فلسطيني أكثر انفتاحًا تتساوى فيه المرأة بالرجل. إنَّ الدور الذي لعبته المرأة الفلسطينية على مر التاريخ لا ينكره أحد، وهذه الموجة اليافعة من كاتبات القصة القصيرة لا تأتي لتواصل النضال فحسب، بل تجدِّد فيه جذريًّا، حيث تضيف الفلسطينية الشابة إدراكها ووعيها ونظرتها المتفردة نحو العالم. كذلك، من اللافت أنَّ الشخصيات النسائية في هذه القصص شخصيات قوية ومستقلة وعقلانية ومبادرة بأفعالها؛ ما عاد دور المرأة الفلسطينية محصورًا في إنجاب المقاومين بل أصبحت هي المقاوِمة. الآن، إلى أي مدى تتشابه وتختلف أصوات تلك الشخصيات النسائية عبر القصص وما الهموم التي تعبِّر عنها تلك الأصوات النسائية اليافعة في قصصها، فهذا شأنٌ نترك نقاشه للباحثين والأكاديميين وكُتَّاب المراجعات.

تلكن الكاتبات اليافعات اللواتي بدأن الكتابة كمدوِّنات آمنَّ أنَّ الوقت قد حان ليكون لهن قولٌ في نضال شعبهن ضد وحشية الاحتلال، والإسهام في المقاومة بأي وسيلة ممكنة. فلأول مرة منذ تاريخ النضال الفلسطيني نحو الاستقلال تحتل المرأة الفلسطينية اليافعة الصدارة في هذا النوع من المقاومة مع تفوق الكاتبات عددًا على الكتَّاب، وبتبنيها الإطار العام للسرديات الفلسطينية تلقي

الضوء على قضايا المرأة وتعبِّر بصوتها عن الحلول ورؤيتها الذاتية للعالم بالقوة نفسها التي يعبِّر بها الكتَّاب الرجال. هكذا، انبثقت هذه السرديات والأصوات الجديدة متحدِّيَةً كل محاولات صدِّها. بمعنى آخر، الأسلوب الذي تكتب به الكاتبات الفلسطينيات اليافعات -لغتهن السردية وكيفية تعبير النص عن نفسه- هو صراعٌ لإثبات الذات، أي لكي تفهم تلك النصوص لا بد أن تقرأها في سياق مفاهيم الهوية، في هذه الحالة تحديدًا الهوية الجندرية.

القصص التي تتضمنها هذه المجموعة متنوعة في ثيماتها وزمانها ومكانها وأشكالها وأجناسها ومدى التجريب فيها. ورغم أنَّ الكتاب يحاول اقتفاء تفاعل الكتّاب اليافعين في قطاع غزة مع العدوان العسكري الإسرائيلي في ٢٠٠٨-٢٠٠٩ وتوثيقه، فإن القصص تضم أيضًا *فلسطين* ككل في محاولة لرفض أي نوعٍ من التقسيم. فالفلسطينيون، من حيثما كانوا، يشددون على حق العودة. هكذا، تتناول بعض القصص قضايا الضفة الغربية، مثل: الجدار الفاصل والمستوطنات والقدس. وبعضها لا تحدد الزمان والمكان بوضوح وكأنها تقول إنَّ هذه القصة قد تقع أحداثها في أي بقعة من فلسطين المحتلة، بل قد تقع لأي شعبٍ يرزح تحت نير الاحتلال.

تتنوع القصص بين نصوص قصيرة بسيطة ومشوقة إلى نصوص أطول وأعقد، من قصص تعتمد الصور المجازية إلى قصص أشبه بحكايا الأطفال قبل المنام. هذه المجموعة المذهلة من القصص تتجاوز قيمتها الأدبية الخالصة، إذ توحِّد الشعب الفلسطيني

ككلٍّ في سردية واحدة، فبينما تضطر غزة إلى تحمُّل حصار إسرائيل الشبيه في وحشيته بممارسات القرون الوسطى وتحتمل الاعتداءات العسكرية المتتالية، تضطر الضفة الغربية والقدس إلى اختبار جدار إسرائيل الفاصل وحواجز التفتيش، ويعاني فلسطينيو ١٩٤٨ سياسة الفصل العنصري، ويضطر فلسطينيو الشتات إلى تحمُّل عجزهم عن حجز تذكرة بكل بساطة والعودة إلى وطنهم متى شاؤوا. أغلب كتّاب غزة في هذه المجموعة، إن لم يكن جميعهم، لم يغادروا يومًا غزة إلى أي مكان آخر في فلسطين. الإنترنت كان المساحة التي تمكنوا فيها من التواصل مع فلسطينيي الشتات والضفة الغربية والقدس وفلسطينيي ١٩٤٨ والتفاعل معهم. معًا حاكوا الشذرات الممزقة من الأراضي الفلسطينية بعضها مع بعض وشيَّدوا وحدةً واحدة مذهلة لا تزال إسرائيل إلى اليوم ترفض السماح بوجودها على أرض الواقع. في حقيقة الأمر، كتب هؤلاء الكتّاب عن أحداث لم يعايشوها قط، مثل: الجدار والحواجز والمستوطنات. صحيح أنَّ *غزة تقاوم بالكتابة* يركز في الكتّاب من غزة، لكن هذا الكتاب يقاوم ويدحض الاعتقاد الشائع والخاطئ بأنَّ غزة كيانٌ منفصل عن فلسطين.

الثيمات

تستكشف القصص في هذه المجموعة عددًا من القضايا، لكنَّ القضايا الأساسية بينها هي الأرض والموت والذاكرة. وفيما يخص الأرض، كتب إدوارد سعيد في «الثقافة والإمبريالية»:

«لطالما كانت المعركة الأساسية في الإمبريالية هي تلك التي تدور حول الأرض، وهذا بديهي، لكن حين يتعلق الأمر بمن كان يملك الأرض ومن كان لديه حق الاستقرار فيها والعمل عليها، من الذي عمل على استمراريتها ومن استعادها ومن يغرس بذور مستقبلها، فهذه مواضيع تخضع للتفنيد والنقاش، بل وأحيانًا تُحسم من خلال السرد».

يتطور إحساس المرء بالأرض من شعوره العفوي بالتجذُّر فيها متى تعرضت علاقته بأرضه للتهديد من الآخرين، لهذا فإنَّ القصص هنا مفعمة بالعاطفة الغامرة التي يربط فيها الفلسطيني نفسه بأرضه، الأرض والمكان والشجر جميعها موتيفات محورية في قصص *غزة تقاوم بالكتابة*. وما ينفك هذا التعلُّق بالأرض والوطن ينمو رغم كل الممارسات والمعايير التي تتخذها إسرائيل لفصل الفلسطينيين عن أرضهم، فكلما حاولت إسرائيل أكثر، ازداد التعلق لدى الفلسطيني بأرضه. لهذا، كثيرٌ من هذه القصص ممكن أن تُقرَأ في سياق تفنيد السردية الإسرائيلية ومزاعمها الأسطورية بامتلاكها أرض فلسطين.

قد يقول بعض القراء إنَّ الموت يتخلل هذه القصص. فعلًا، وبلا أي شك، للموت حضوره الطاغي في عددٍ منها، فما الذي نتوقعه من جيل قضى أمدًا غير هيِّن من حياته يحدِّق إلى عيني الموت؟ فقد أضحى الموت على يد الاحتلال مواجهةً يومية في حياة أغلب الفلسطينيين، ومع ذلك، أسفل هذه الطبقة القصصية، يكمن إصرارٌ على مواصلة العيش وتصميمٌ على الحياة، وستجد بين

أسطر تلك القصص التوق إلى النجاة. فعل الكتابة في حد ذاته يخبِر عن أمل الكاتب في حياةٍ أفضل، التوق إلى وصف تجارب الحياة واستكشافها -بما في هذه الحالة الموت- لكي يتسنَّى للآخرين أن يحظوا بحياة أفضل هو في حد ذاته فعل «الصمود» الذي لطالما شكَّل الحياة الفلسطينية، حيث مجرد التلميح إلى اليأس، أو الاستسلام للاحتلال، يثير اشمئزاز أغلب الفلسطينيين.

فيما يخص الذاكرة، علينا أن نضع في الحسبان أنَّ لكي نسرد قصة ينبغي علينا أن نتذكَّر ونساعد الآخرين على التذكُّر. والعديد من هذه القصص، إن لم يكن جميعها، تركز عدستها في تفاصيل دقيقة في محاولة لنقش الفظائع أو اللحظات النادرة من الأمل في ذكريات الكاتب نفسه وفي ذكريات الآخرين. فالذكريات تشكِّل عالمنا إلى حدٍّ بعيد، وسردها على هيئة قصص هو فعل مقاومة في ذاته ضد احتلال يحاول جاهدًا بشتى الطرق طمس الأواصر بين فلسطين والفلسطينيين. القصص هنا تعزِّز فعل الذاكرة وتدين النسيان، لذا حتى إن كانت الشخصية تموت، فأبلغ أمانيها للآخرين أن «يسردوا قصتها»، كما قال هاملت. وبهذا يصير سرد القصة في ذاته فعل حياة. كذلك، تطارد بعض هذه القصص وعي الجندي الإسرائيلي وذكرياته وضميره، معلنةً أنَّ لا راحة لجنود الاحتلال، وسنظل نحن الفلسطينيين نتنفس على أعناقهم إلى أن يدركوا أنَّ الاحتلال لا بد أن ينتهي، وإلا فسنفسد أشد ذكرياتهم حميميةً بالصراخ بأعلى أصواتنا: «كفى! كفى!»

الحياة والكتابة في غزة اليوم

طبعًا هذه القصص كلها كُتِبت تحت ظروف بالغة القسوة، فغزة تقع تحت حصارٍ إسرائيلي منذ عام ٢٠٠٦. وبعد الهجوم الإسرائيلي غير المبرر على أسطول الحرية في عام ٢٠١٠ خففت سلطات الجيش الإسرائيلي قليلًا من شدة الحصار، وفعلت الشيء نفسه مباشرة بعد الربيع العربي. (لكن بعد التطورات المخزية في مصر في صيف ٢٠١٣، عادت إسرائيل وشدَّت الأنشوطة حول عنق غزة شدًّا وثيقًا.) الحصار السياسي والاقتصادي والفكري طويل الأمد الذي فرضته إسرائيل وأبقت عليه يعني أنَّ كلَّ كتّاب القصة في هذه المجموعة، وبينما كانوا يكتبون قصصهم، كان لزامًا عليهم -مثلهم مثل كل من يعيش في غزة- التأقلم مع العنف البنيوي الموهِن والدائم من قطع الكهرباء وفرض العزلة والبطالة والافتقار إلى مستلزمات المعيشة الأساسية ونقص الكتب والأدوية وصعوبة الحصول على الرعاية الصحية والصعوبة البالغة في السفر خارج غزة، والتكيف المتواصل مع الألم ومع الموت وفقدان الأحباء. وفي غضون كل ذلك لم توقف إسرائيل قط رقابتها الأمنية المتطفلة على غزة ولا هجماتها العدوانية المسلحة القاتلة ضد سكانها البالغ تعدادهم ١.٧ مليون شخص.

مع كل ذلك، كلما توحشت إسرائيل أكثر، ازدادت الأسباب التي يجدها فلسطينيو غزة للتشبث بالحياة، والتشبث بالبقاء في أرضهم. بدهاء لا نهائي والتزامٍ راسخ، ابتدع فلسطينيو غزة حلولًا

لكثير من المشاكل التي خلقها الاحتلال. الكتب ومستلزمات المعيشة الأساسية والوقود ومواد البناء وغيرها كثير كان يجري تهريبها من خلال الأنفاق. (حتى العرائس أتين إلى غزة وغادرنها من خلال الأنفاق، وعددٌ من اللاجئين الفلسطينيين من سوريا -وإن كان العدد هزيلًا- فر من الظروف المروعة هناك ليجد الملاذ في غزة.) لا شيء في وسعه إيقافنا عن الحياة. عوضًا عن اليأس، هؤلاء الكتَّاب وأنا استغللنا هذه الظروف المروعة واستكشفناها من خلال قصصنا، في فعلٍ لنا أن نصفه بالسردية المضادة. هذه القصص ولدت تحت ظروفٍ من الخوف والشك شبيهة بما عانته تلك الفتاة المسكينة آن فرانك، وعشنا ظروفًا بنفس السوء الذي رأيناه في فيلم «عازف البيانو». ومثل آن فرانك والمقاومين في فيلم «عازف البيانو»، ومثل أي أناس في أي مكان وجدوا أنفسهم تحت الاحتلال، قاومنا وأصررنا على الدفاع عن أنفسنا. وفي حالتنا هذه، قاومنا ودافعنا من خلال الكتابة.

في عام ٢٠١١، في صورة من صور التضامن العالمي الذي ذكرناه آنفًا، أطلقت مجموعة من مواطني الولايات المتحدة مشروعًا ملؤوا فيه قاربًا برسائل إلى غزة كتبها أناسٌ من حول العالم ممن يكترثون لمصيرنا، وأبحروا به لكي يرسو على شاطئ غزة حيث ترتطم الأمواج برفق. أطلقوا على القارب عنوان كتاب الرئيس باراك أوباما (قبل انتخابه رئيسًا): «جسارة الأمل». وقبل بلوغ القارب شاطئ غزة، بمسافة كبيرة، تدخلت الحكومة اليونانية -تحت ضغط شديد

من إسرائيل- ومنعت القارب من إكمال مهمته. لكن الروح التي كُتب بها هذا الكتاب ونُشِر هي روحٌ قوية من التقدير المتبادل لكل الجهود التي بذلها الناس خارج غزة (من ضمنهم كتّابٌ معروفون ومتعاطفون) لكسر العزلة الفكرية والشخصية الحادة التي تسعى بها إسرائيل إلى إبقائنا حبيسي القفص. هكذا، بعد خمسة أعوام من عملية الرصاص المصبوب، يسعدنا أن نقول لكل الناس حول العالم من يدعمون حقنا في عيش حياةٍ طبيعية، حياة مثرية طبيعية: إنَّ غزة *تقاوم بالكتابة*.

غزة تقاوم بالكتابة لأنَّ سرد القصة يساعد على بناء الهوية الفلسطينية الوطنية ووحدتها. غزة تقاوم بالكتابة لأنَّ ثمة فلسطين تحتاج إلى الإنقاذ، على الأقل قصصيًّا في الوقت الحالي. غزة تحكي قصصها لأنَّ فلسطين عالقة في دورة القصص القصيرة، وغزة تواصل السرد لعلَّ الناس لا ينسونها. غزة تقاوم بالكتابة لأنَّ قوة الخيال تمنح سبيلًا إبداعيًّا نحو بناء واقعٍ جديد. غزة تقاوم بالكتابة لأنَّ الكتابة التزامٌ وطني، واجبٌ نحو الإنسانية، ومسؤولية أخلاقية.

رفعت العرعير

نوفمبر ٢٠١٣

القصص

حنان حبشي

نون نحيا

كيفك بابا؟

مرَّ دهرٌ منذ جلست آخر مرة وتحدثت إليك. كدتُ أنسى وعدي بأن أكتب إليك كلما تسللت السعادة إلى «قلبي الصغير»، لكني أخشى أنَّ رسالةً مفعمة بالسعادة مهددة بألا تُكتَب أبدًا، لذا دعني أكتب إليك دونما شروط، لا تحرمني إحساس الرضا الذي كان يغمرني ساعة أجلس وأتحادث معك. اليوم تحلُّ الذكرى الحادية عشرة على رحيلك، لكن الآن فحسب بدأت أعي مدى شوقي إليك، مدى معزتك عليّ، كيف أنَّ فقدانك وحشٌ غاية في القبح وأنا عاجزة عن هزيمته. أنت تعرف إلى أي مدى احتياجنا إليك بابا، إلى أبعد مدى. عزائي الوحيد معرفتي أنَّك تشعر بما أفكِّر فيه.

الحياة، على نحوٍ مؤلم، باتت أعقد بكثير من مجرد نيل علامة امتياز في مادة التاريخ أو نزهة مع عيلة عمتو كرامة. أساسًا الحياة ليست أبدًا بهذه البساطة. إيش أقُلَّك بابا؟ غزة في هذه الأيام محبِطة، بل قُل في هذه الأعوام، على الأقل هي تمرينٌ جيد على ممارسة الصبر. هذا الصيف كان أسوأ صيف مرَّ علينا بدونك، مجرد استنشاق هواءٍ نقي

بات رفاهية لا نستطيع تحمل كلفتها أغلب الوقت. ومتى غمرني الإحساس بالعدم، وهو ما يحدث غالبًا، أجلس في غرفتي المكشوفة تمامًا للشمس، وأحدّق إلى الأثر الصغير لطلقة الرصاص والصدع القبيح الذي خلَّفته. أجل الصدع نفسه على الجدار الذي تسببت به بندقيته. يا لبشاعته! في أوقات أخرى، أجلس أحدق إليه محاولةً استحضار صورة ذاك الجندي. ذاك المخلوق الضخم انتزعك من فراشي ولم يمنحك الفرصة لإنهاء حكاية ما قبل النوم. أعجز عن تذكر أي شيء آخر عدا جزمته السوداء المغبرة وبندقيته المرعبة. حاولتُ تخيله مرات عديدة، ودومًا ينتهي بي الحال إلى التصديق أنه ما كان سوى وحشٍ عديم الوجه. ولربما تجاوزت الحدود، وبتُّ أتفكُّر فيه وفي حياته وعائلته وزوجته التي «يحبها» وطفله الذكي الذي بوسعه نيل علامة ممتازة في الرياضيات، أتصوره ضاحكًا وباكيًا. بابا، ما الذي يجعل تنعُّم إنسانٍ بهذه النعم يقوم على حساب أساي من فقدك أبًا، وتركي مع حكايةٍ ناقصة؟

حين تعم الظلمة، أجلس عند النافذة وأتأمل المدى متجاوزةً صفوف البيوت المحرومة من الكهرباء، أشمُّ أريج ليلة غزاوية هادئة، أستشعر هواءها النقي ينفذ إلى قلبي، وأفكِّر فيك، فيَّ، في فلسطين، في الصدع، في الجدار الأصم، فيك، في ماما، فيك، في حصة التاريخ، فيك، في الله، في فلسطين، في حكايتنا غير المنتهية. أستمتع باستحضار صوتك الحنون وأنت تسرد عليَّ حكاية ثائر. لا أزال أتذكر كيف كنتُ أشع بهجةً كلما أخبرتني أني وثائر نشبه بعضنا

بعضًا جدًّا، أنه يتمتع بعينيَّ الجامحتين وأنا أتمتع بضحكته الخجولة. لا أزال أجهل من هو ثائر وأين موقعه في هذه الحياة، لكن لطالما وثقت بأبطالك. ليس بوسعي أبدًا نسيان تلك اللمعة في عينيك المشرقتين كلما استذكرتَ ثائر وهو يغرس بذور الزيتون في فناء الميتم. الله يرحم ابتسامتك الحلوة ويبارك بذور الزيتون إللي تحت التراب. لن أنسى أبدًا نظرتك إلى عينيَّ وقولك: «هالولد خسر كل عيلته لكن عمره ما خسر إيمانه بالحياة. وبدي اياكي تكوني قوية زَيّو». بابا، هل تتذكر حين سألتك إذا كان ثائر قويًّا كفاية ليصارع جنديًّا إسرائيليًّا؟ كشَّرت -دومًا كنت تكشِّر- لكنك لم تجبني. لطالما أردتني أن أستنتج الخلاصة اعتمادًا على نفسي. أخبرتني أنه كان في الثانية عشرة من عمره حين تعرضت إحدى فتيات الميتم، أمل، لنوبة ارتعاش وهلوسة وتعرُّق، ولا أحد كان لديه الجرأة على كسر الحصار العسكري، على مواجهة الموت. لكن ثائر خرج وأحضر الطبيب لأمل، وبعدها... بعدها شُرِّعت أبواب الجحيم بابا. بعدها ما عدتَ موجودًا.

لا أتذكر تحديدًا متى بدأت رغبتي في إكمال قصة ثائر، لكن كلما جرؤت على خوض هذه المغامرة ومنحها النهاية الملائمة ينتابني التعب، والثقل في رأسي يزداد ثقلًا. لا أستطيع تحقيق ذلك بمفردي. يخيّل إليَّ أنَّ عليَّ التفكير مرتين: مرة عن نفسي ومرة عنك. وقد بذلت أقصى ما لديَّ بابا، ولم يكن سهلًا عليَّ. فمن بين كل الناس حولي، أنت الأدرى أنَّ القصة تحتاج إلى اثنين لكي تكتمل،

دومًا ما كانت في حاجة إلى اثنين. كرهتُ التعامل مع حقيقة أنَّ رغبتي هذه قد تكون محض فضول، رغبة مدفوعة بحبي للنهايات. فثائر وجودٌ «آخر» لك في حياتي، تمامًا كما هي صورتك المعلقة أعلى الصدع الكريه، وكوفيتك التي استحالَ سوادها البهيُّ الحالك رماديًّا مجيدًا، كلها أجزاءٌ حيَّة منك. كان عليَّ أن أؤمن أنَّ خوفي من خسارة بضعةٍ أخرى من أبي هو الذي دفعني إلى هذا الطريق.

فكَّرتُ، ما إن فكَّرت، بتوأم روحك، بماما. اعتقدت أنَّك لا بد أخبرتها عن ثائر. تخيلتكما تقضيان الليل معًا تتغزلان في عيني ثائر وابتسامته، إذ أذكر جيدًا أنكما كلما اجتمعتما -واجتماعكما هذا كان رفاهيةً في حياة ماما- تتسامران كأنما لا نهاية لليل. أحيانًا أجدني أرتحل إلى ذكريات محددة. أسمع رنَّة صوتك وصدى ضحكات ماما، ضحكاتها التي ماتت منذ أمد طويل. لا، لا تقلق؛ لم تكف ماما عن الابتسام. أدري أنَّ عليَّ ألا أزعجك بابا، لكن عليك أن تعرف، مع مرور كل يوم تزداد ماما وهنًا. ولطالما تساءلت «ما الذي تعرفه هي وأجهله أنا، ويجعلها تواصل الحياة في وحدةٍ مريرة؟» هي تعرف الكثير، مش هيك، بابا؟

لاعتقادي أنها تعرف ثائر، سألتها ذات مرة دون مقدمات «إيش صار على ثائر، آخر شي؟» كانت تغسل الصحن الأخير، أغلقت الصنبور وحدَّقت إلى الحوض لوهلة. شعرتُ أنها على وشك إخباري بالإجابة الشافية، لكنها سرعان ما أنكرت. «مين ثائر؟» سألتني وهي تخزر عينيها.

«ثائر»، أجبتها. مع رؤيتي الانزعاج ينسدل على وجهها، كررت إجابتي، «ثائر، ثائر من حكاية بابا!» في كل حركة تؤديها وفي كل كلمة صمتت عن قولها، كان بوسعي رؤية وميض قصة يلمع من بعيد. استخدمتْ صمتها درعًا يحجب الفوضى التي لمحتُها في عينيها. «ماما! ثائر الولد القوي إللي غرس أشجار الزيتون في الميتم»، قلت لها علَّني أحثُّها على الكلام.

«قوي، هه؟ مش مهم قديش انت قوي أو تفتكر حالك قوي، إلا يجي وقت والدنيا توقعك. وهالحقيقة ما تخليكيش ضعيفة حبيبتي، تخليكي إنسانة».

بعرف بابا، أنت عاجز عن التعرُّف على هذه المرأة الجديدة، وأنا مثلك. بودّي أن أعتبر كلامها حكمة، لكن للأسف ماما باتت متهكّمة، إلا أنَّ هذا لا ينفي أنها اكتسبت المزيد من الحكمة. ولأني اعتقدت أنَّ إجابتها لا علاقة لها بثائرك، كررت سؤالي عليها إن كانت تعرف ما جرى له وهل تمكَّن من العودة إلى الميتم أم لا. «رجع على داره، رجع. وكلنا رح نرجع». أجابتني هامسة. قضيت تلك الليلة أتفكَّر في بيت ثائر، في الحياة البعيدة التي لمحتُها في عيني ماما، وما انفكَّ هذا التساؤل يؤرقني: ما الأشد تعذيبًا بين الاثنين؟ أزيز الطائرة المسيّرة خارجًا أم ضجيج الأسئلة الصعبة في دواخلي؟ أخيرًا نمت بلا إجابة، شاكرةً الطائرة المسيّرة على عدم منحها اهتياجي الداخلي أي فرصة للخمود.

قبل أسبوعين ذهب جدي برفقة جارنا أبو فراس لكي يستلم

كوبونات الطعام من الأونروا. غادر البيت عاقلًا وعاد إليه مجنونًا. بهذه البساطة. يقول أبو فراس إنَّ جدي انتظر ثلاث ساعات تحت الشمس الحارقة في صفٍّ طويل. وأخيرًا، حين كاد يحصل على الكوبون، سأل الرجلَ هناك: «إيش أوخذ هون؟» فأجاب الرجل بكلمة واحدة: «أكل!» فصاح جدي عليه، «ووقتيش بالضبط رح أوخذ يافْتِي بهالكوبون؟».

ولك أن تتخيَّل المعمعة التي حدثت، لكن سرعان ما هدأت الأمور حين أجبر أبو فراس جدي على العودة إلى البيت. لا رغبة لديَّ في الاستغراق في هذه الحادثة. أعرف أنَّ منذ رحيلك، كرَّس جدي حياته بأسرها للحزن على فقد شجرة ليمون وفقد ابنٍ عزيز. والآن، ما عاد جدي الرجل الذي بوسعي خوض حديثٍ معه لساعات. هو فقد إيمانه، ما عاد يؤمن بي. يقول إنَّ الناس تحارب وتموت لاسترجاع أرضنا في فلسطين، لكن لا المقاوم يعود ولا فلسطين عادت. يحلف بالله إنَّك اللحظة جالسٌ في يافا عند شجرة ليمون تستمتع بمرأى الشمس تتلاشى في زرقة بحرنا البهيّ. يقول جدي إنك ما كنت لتعود إلينا أبدًا، فَمَن العاقل على وجه الأرض الذي يترك جنة يافا؟ عن نفسي، يومًا بعد يوم، أقع في حبِّ الأعوام التي تسكن تجاعيد وجهه، وذكريات الأيام الخوالي التي باتت خفقَ قلبه الواهن.

توقَّعتَ بالتأكيد أني سأسأل جدي عن ثائر، وسألته. أجابني فورًا: «ثائر رفض يوخذ نَفَس زيادة مع هالعالم الوسخ، واختار

يكبر في مكان ثاني. لا تطّلعيش عليّ هيك! آ الأموات بيكبروا، لكن أوعك تصدقي إنهم بيختيروا». إجابته هذه حيَّرتني أكثر من إجابة ماما، وصحتُ «ما بصدّق. ثائر عمره ما كان رح يختار الموت. وأمل؟! معقول يكون أناني ويتركها تموت؟».

«مين أمل؟» سأل جدي دونما اكتراث.

لسببٍ ما شعرت بالارتياح. ابتسمت وأجبته: «أمل صاحبتي الكبيرة، في يوم رح أعرفك عليها». أخبرته أني عازمة على زيارة عمتي كرامة اليوم التالي وسألته إن كان يود مرافقتي، قال إنه ما عاد يحتمل الأطفال والبيوت المكتظة. ما همَّني. قبَّلتُ جبينه، وشممتُ أريج براعم الليمون، كما لو أنَّه زرع بيّارة ليمون في تجاعيده الغائرة. بابا، كيف جرؤ جدي وقال عن ثائر إنه ميت؟ هو نفسه لا يصدق ذلك. احتفيتُ بكل لحظة تُضَاف إلى حياة ثائر، وكنت ممتنة لإيماني، إذ عليك أن تقفز قفزة الإيمان هذه إن أردتَ يومًا أن تشفى. قد تكون الأعوام مقياس طول حياة المرء، لكن يقينًا الإيمان عرضُها.

استيقظت باكرًا جدًّا في اليوم التالي. أنا، ولأول مرة في حياتي، أشهد شروق الشمس. محاطة بالنور المعتم، بدا العالم تمامًا كما أشعر. وحينذاك تأملت نفسي، أعمق وأعمق، وبدأت أتشظى. ليس لأني أردت ذلك، بل لأني عجزت عن كبح نفسي. بدأت أتساءل إن كانت الأمور التي أعيش لأجلها تستحق الموت لأجلها. رحت أتفكّر بكل ما لديّ في هذه الحياة، ورغم امتلاكي الكثير من

الأشياء، فإنها لم تبدُ يومًا ضرورية. كل مرة ظننتُ الحياة تسير على هواي، التفَّتْ وفلتتْ من يدي. لم أشعر بروحك قريبة مني. ورغم محاولاتي استرجاعك في أحلامي، ظلَّت روحك بعيدة عني. كنت مدركة أنَّ هذا البعد مردّه قصة ثائر، كنت أخشى النوم مرة أخرى مدركةً أنَّ ثائر سيظل دومًا القصة التي لم تنتهِ. كنت أعلم أنَّك على بعد قصة مني، على بعد قصة!

ولأنِّي ما عدت قادرة على الانتظار أطول لمعرفة ما حلَّ بثائر، أمهلتُ الشمس ساعتين لكي تأخذ محلَّها الأثير في تلك السماء المذهلة. الطقس لم يكن قد قرر بعد موقفه. النسيم العليل كان مخادعًا، لذا دثَّرتُ عنقي بكوفيتك المجيدة، وغادرت البيت بلا أي تردد. وثقت بالحياة ذاك اليوم. قد يرى جدي في ثقتي سذاجةً، لكني مؤمنة أنك لن تراها على هذا النحو. الحياة لا تزال ضمن القلة التي تستحق الثقة.

يقال: «لكي تعثر على شيء، أي شيء، حقيقة كبرى أو زوج كؤوس ضائعة، عليك أن تؤمن أولًا بوجود غنيمة من عثورك عليه». ويا لها من غنيمة بابا! حين وصلت بيت عمتي كرامة أخيرًا، طرقت الباب نافدة الصبر. انتظرت خارجًا لأكثر من عشر دقائق، ولا أحد أجاب طرقاتي المتواصلة. كنت على وشك العودة إلى البيت حين فتحت عمتي الباب. كانت نائمة. كيف لها أن تنام وأنا لا أزال أجهل نهاية قصة ثائر؟ رحبت بي، واستأذنتني لكي تبدل ملابسها. «أبدًا ولا يهمك»، أجبت اعتذارها على عجل.

رفعت عمتي حاجبيها وشحب لونها وقالت، «إيش صار؟ سيدك صابه إشي؟ أكيد صابه إشي وإلا ما كنتِيش جيتي هالساعة بعد ما صار لك شهور ما زرتيني. يا الله! إيش صابه؟».

كان عليَّ تهدئتها وطمأنة هواجسها. «ثائر هو إللي جابني عندك هالساعة». آ بابا. سألت عمتي كرامة. لم يكن لديّ خيار آخر، فأنا أعرف أنها كانت صديقتك الأقرب إليك منذ كنتَ طفلًا صغيرًا لا يحسن تهجئة «فلسطين». لطالما فخرتْ بحقيقة أنها هي من علمتك تهجئتها، ولطالما آمنتَ أنت بضخامتها: «فاء فدى، لام ليمون، سين سلام، طاء طموح، ياء يعود، نون نحيا». وهكذا بتَّ تكتبها على النحو الصحيح. كتبتها على كل مكانٍ متاح لك، على الجدران والطاولات. حفرتَ أحرفها الفاتنة في جذوع الأشجار، وانتهى بها الحال محفورةً في قلبك.

«وإيش ماله ثائر؟» أجابتني بجلافة عن سؤالي المباشر، والأمل عثر على طريقه إلى قلبي، يهنِّئني على معرفة عمتي بثائر.

«يعني إيش صار معه في الآخر؟ قدر يرجع عالميتم؟ أنقذ حياة أمل؟» سألتها، بيد أنها اختارت ألا تجيب. والحق يقال، خاب أملي. شعرتُ أنك لا تثق كفايةً بقلبي؛ لم ترد مني الاقتراب أكثر من قصتك.

عادت إليّ مرتديةً الأسود وقالت، «قومي، رح أوخذك على مكان مميز».

حدقتُ إليها بعينين دامعتين وقلت: «ووين هالمكان المميز في هالبقعة من كوكب الأرض؟» غضبتْ من ردِّي وقالت إني لا أستحق أساسًا معرفة ثائر إن لم أؤمن بهذه البقعة من كوكب الأرض. لن أخفي عليك بابا مدى الخزي الذي انتابني.

غادرنا أنا وهي. اصطحبتني إلى أماكن لم أرَها من قبل. الأزقة المظلمة الضيقة في المخيم أسرت قلبي، ومزيجٌ من المرارة والسعادة تسلَّل إليّ. فقد استشعرتُ وجودك هناك، بل كنت واثقة أنك هناك. في طريقنا إلى «المكان المميز» لم تكف عمتي كرامة عن الحديث عن كل عائلة تقطن المخيم. قصص الأسى رافقت خطانا، وسألتُ عمتي كيف عرفت كل تلك القصص، أجابتني أنَّ النكبة ليست سرًّا. إعجابي بها لحظتها ازداد، ففي نظري لم تكن سوى معلمة تاريخ مملة. كانت تلك المرة الأولى التي أعرف فيها أنها رفضت ترقيتها وآثرت البقاء معلمة في الصف الثالث. فقد آمنت بالأطفال، وقالت إنها لا تريد هجر الأمل الكامن في قلوبهم النقية الصغيرة.

«وصلنا»، قالت عمتي، وفوجئت. هل أصلًا هذا «مكان»؟ المفاجأة أخرستني، وبدا على عمتي الاستمتاع بمنظر بقايا البيت المحروق. أريجٌ انبثق من الأرض وغمرني، والتلويح بيدي لم يبعده عني. صمت عمتي الباسم راح يثقل على قلبي، وفقدت إحساسي بالمكان. أنا لست في أي مكان، أنا في كل مكان. أنا هنا.

صوت عمتي الرخيم أخيرًا دبَّت فيه الحياة وما كنتَ لتصدق أنَّ يومًا لاذ بالصمت. «يا الله! أمانة ما بتحسي بوجوده هون؟ أبوك

قضى شبابه هون يعلّم الأولاد الصغار كيف يتهجّوا فلسطين. فاء فدى، لام ليمون، سين سلام، طاء طموح، ياء يعود، نون نحيا».

خشيت لثواني أنَّ عمتي جنَّت، وأخيرًا قلت لها: «وين الأولاد الزغار، عمتي؟ مكانك المميز مش أكثر من خرابة».

ابتلعت عمتي غضبها العارم، وعادت تتأمل بقايا الخراب. ابتسمت، ضحكت، بكت، ثم راحت تتنهد. «إيش علاقة مكانك بثائر وأمل؟» قاطعتُ تنهداتها بسؤالي.

أجابت وقاحتي بحنوّ، «تعرفي مريم، انتي خرّبتي فرصتك بإيديكي. بس معلِش، طول عمري بآمن إنه الفرص الثانية هي جوهر الحياة، بالكاد الواحد فينا يستحقها، لكن بيجي وقت كلنا نصير في أمسّ الحاجة إلها». ثم سألتني: «إذا طلبتِ من ربنا هلقيت يعطيكي الشجاعة، رح يعطيكي إياها والا يعطيكي الفرصة حتى تكوني شجاعة؟ إذا طلبت من ربنا هلقيت يعطيكي الحقيقة، يحط الحقيقة كاملة بين إيديكي والا يعطيكي الفرصة حتى تفتحي عيونك؟».

«أنا بآمن إن الحياة بدها شغل وجهد كبير»، أجبتُ عمتي بإيجاز.

«إذا هيك افتحي عيونك حبيبتي. لا تتطلعي عالبيت المحروق، اطّلعي على المدى وراه، ورح تلاقي الإجابة عن سؤالك بنفسك. أنا بآمن فيكي، بآمن في كل واحد حكالو أبوكي قصة ثائر» قالت لي باسمة على مرأى عينيَّ الدامعتين. بس ما شفتش إشي بابا. لا

شيء لفت انتباه قلبي الجريح. شعرت بالخزي، وبأنك تستحق خلفًا خيرًا مني.

طأطأتُ رأسي. ابتسمت، ضحكت، بكيت، أتنهد على مرأى شجرة الزيتون أقصى البيت المحروق، أقصى الميتم. بذور ثائر نمت. لا شيء آخر تبقَّى سوى الشجرة، وبقاؤها يكفيني، يكفي أمل وثائر، ويكفيك يا بابا الغالي.

حين تعمُّ الظلمة أجلس عند النافذة وأتأمل المدى متجاوزةً صفوف البيوت المحرومة من الكهرباء، أستنشق أريج ليلة غزاوية هادئة، أستشعر هواءها النقي ينفذ إلى قلبي، فأفكِّر فيك وفيَّ، في فلسطين، في الميتم، في شجرة الزيتون، فيك، في أمل، في ماما، فيك، في حصة التاريخ، في عمتو كرامة، فيك، في الله، في فلسطين، في حكاية ثائر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

محمد سليمان

ذات يوم من أيام الحرب

كالعادة، أسند حمزة ظهره إلى الجدار الأبيض، الملطَّخ مؤخرًا بطبعات أيدي أبناء أخواته وبناتهن وأبناء أخواله، حيث تمتد الصدوع الكئيبة متفرعةً بأطوال متباينة. كان يصارع الهواجس التي تنتابه بشدة بين حينٍ وآخر، كما لو أنها تهجم عليه بالتآمر مع دوي القصف المتقطع، لكي تشغل ذهنه وتقلق سكينته متى بدت كافية ليواصل القراءة. افترض أنَّ هذه الهواجس من صنيعه، شذراتٌ من خياله. لهذا هي لا تطارد أحدًا سواه، وجل ما تريد أن تمنعه من قراءة كتابه.

ضوء الشمعة يخفق، وكذا يخفق ظله على الجدار. نسيمٌ عليلٌ بارد، ينسلُّ عبر الشبابيك شبه المغلقة. والدة حمزة، امرأةٌ في أواخر الأربعينات مع شامةٍ على أنفها، حرصت على ألا تحكم إغلاق الشبابيك، تتركها مواربة قبل أن يخلد الجميع إلى النوم حرصًا منها -في حال وقع قصفٌ في مكانٍ قريب- ألا يتهشم زجاجها.

حمزة، كتابه مفتوحٌ بين يديه الدافئتين، أصرَّ على قراءة كتابه البالي الذي كان أبوه متعلقًا به حدَّ الهوس. وبينما كان حمزة يقرأ، رفع عينيه عن الصفحة ومدَّ ناظريه عبر الشباك المفتوح وقال: «قد

يسلبوننا حياتنا، لكن أبدًا لن يسلبونا حريتنا». لم يستطِع تخمين السبب الذي جعله يستحضر هذه العبارة، لكنه كررها مرةً أخرى محاولًا كبت حماسته لكيلا يوقظ أخاه الوحيد جهاد، الأصغر منه بسبع سنوات، النائم قربه. ما كاد طرف لسانه يفارق سقف حلقه لدى نطقه النون في «حريتنا»، حتى دوَّى قصف يضرب المنطقة مصيِّرًا الصمت اللانهائي السائد صاعقةً تصم الآذان. اشتدت قبضته غريزيًّا على كتابه، قلبه يخفق بقوة كما لو أنه سيمزق صدره من الداخل، وفورًا ارتمى برأسه إلى الحائط خلفه. تحرَّك جهاد في منامه وأوقع الملاءات التي كان يتغطى بها. نهض حمزة بهدوء ودثَّر أخاه، ثم عاد إلى كتابه. حدَّق إلى الأمام، محاولًا أقصى جهده فهم شيءٍ مما سمعه. لكن كلما ركَّز أكثر، اشتدت قبضته على الكتاب، واسودَّت الظلمة المحيطة به. ثم سرعان ما نام.

لا أحد قط استطاع تفسير تبسُّم حمزة في منامه. لا أحد كان في مقدوره أن يخمِّن أنَّ في منامه فحسب كان في وسع حمزة أن ينال الشيء الذي يمنحه الارتياح والسعادة، يملك الشيء المحروم منه في يقظته. كان محاطًا بهسهسة أطفال أخواته وأطفال أخواله، المقيمين في بيته برفقة عوائلهم وقتَ الحرب. كانوا يتنافسون فيما بينهم على الاقتراب من جسد حمزة النائم ولمس ذقنه الخشن. فتح حمزة عينيه على وجوهٍ بريئة مبتهجة. تثاءب ومطَّ ذراعيه، كتابه إلى جانب رأسه، نصف مكشوف أسفل وسادته، وابتسم للأطفال قبل طلبه منهم في هدوء مغادرة الغرفة، «يلا يا ولاد، روحوا العبوا،»

وشدَّ اللحاف عليه. الغرفة كانت تفيض بأشعة الشمس العابرة للشبابيك المشرعة. فهذا أول ما تفعله والدته لدى استيقاظها من النوم، وورثت هذه العادة عن أمها دون معرفة دقيقة بمعنى فعل هذا الصنيع في الصباح قبل أي شيء؛ ربما نفخ حياة جديدة في أنفاسهم، ربما الشبابيك أول ما تقع عليه عيناها، أو ربما للتخلص من رائحة عطنة. على إثر شعشعة الشمس تجلَّت اللطخات على الجدار، وسطعت كتل الشمع المكدَّسة على الشمعدان الباهت.

بعدما رأى جهاد الأطفال مستمتعين بلعبتهم، أشار إلى الصغار منهم بالعودة. ابنة أخته الصغيرة، ذات الوجه الملائكي، تسللت خلسةً إلى حمزة النائم، ابتسامته لم تكن قد تلاشت بعد. تحرَّكت نحوه على أطراف أصابعها، عيناها تبرقان، تحجب ابتسامتها بظاهر كفها، وتموضعت عند رأس خالها، ضحكات الصغار المكبوتة تفلت منهم. راح حمزة يتململ بينما الفتاة، التي كانت تصد ضوء الشمس عنه، مدَّت يديها لكي تلمس لحيته. عمَّ الصمت الرهيب المكان وكفَّ الصغار أخيرًا عن القهقهة، يرقبون بحذر زميلتهم في اللعب تنتصر على لحية خالها. ركزت الفتاة الصغيرة عينيها بلا وجل إلى هدفها، بينما تدنو يداها بثبات من وجه حمزة. قصفٌ مفاجئ ومدوٍّ ضرب المنطقة القريبة. الفتاة ارتعدت، وعلى الفور سحبت يديها. شفتها السفلى نتأت وشرعت تصيح باكية. حمزة، بعدما نهض مفزوعًا، اندفع نحو الشبابيك. لمَّ شتات نفسه مرةً أخرى وربَّت على ابنة أخته المفضلة، يحثها على الكف عن البكاء.

طمأن حمزة نفسه أنه متى أصبح أبًا، يومًا ما، لن يواجه أي صعوبة في سرد قصة على أطفاله. كان واقفًا عند الشباك يتأمل الأيام القليلة الماضية، وغمغم: «أسبوع! يا الله قديش الوقت بطيء»، وألقى برأسه بين يديه المتكئتين على عتبة الشباك. نظر إلى الشارع الخاوي في الأسفل، يستذكر كيف كان مفعمًا بالحياة، فجأة انتابه الغثيان ورفع رأسه. وجد شيئًا من السلوان في مرأى السماء الزرقاء المنقطة بعدة سحبٍ خفيفة تتحرك أعلاه، وانتعشت معنوياته المنخفضة، «على الأقل لسّاتك عايشة» غمغم من جديد، وأخفض رأسه.

لم يكن الشارع خاويًا تمامًا، كان ثمة كلبان شريدان يهرولان، يدليان لسانيهما ويهزان ذيليهما. سُرَّ حمزة بمرأى الكلبين، وفتح فمه لكي ينادي عليهما. أراد أن يقول شيئًا، أراد أن ينادي عليهما، وللحظة انتابته رغبة صادقة في العواء، لكن رغبته لم تدم طويلًا. رفع رأسه مرة أخرى، فمن الصعب تجاهل صوت طائرتي الهليكوبتر تحومان أعلاه، حدَّق إليهما تشقان طريقهما عبر السحب بينما الكلبان في الأسفل واقفان في منتصف الشارع. كان حمزة واعيًا كفاية ليتبيَّن الرسالة خلف حومان الطائرتين أعلاه وهزِّ الكلبين ذنبيهما أسفله. كان يتفكر في وضعه الثابت على ما هو عليه، ساخطًا على إدراكه التضارب بين وضعه ووضع السماء والأرض. فهو يتمتَّع بقدرة لا تُبارى في التعمق في الأحداث حوله، حتى الأحداث الصغيرة التافهة التي تمر مرور الكرام على غيره تلهمه، وإن كان يغفل أغلب

الأحيان عن نداء أمه لتناول الغداء، وتهديدها المازح بالتهام جهاد وإخوته الصغار الطعام دون ترك شيء له.

عمَّت الظلمة، وبات صعبًا عليه القراءة بينما الشمس تغيب في سلام لكي تهب أناسًا آخرين الحياة. حمزة، يغرق أعمق وأعمق في الظلمة، عانى في قراءته من الأسطر الداكنة الهامدة أمام عينيه. كان قد خطر له سابقًا أَنَّنا ما دمنا نسعى إلى الحياة فسيصبح في وسعنا أن نهبها، ودومًا ثمة حياة قريبة منا، أقرب مما نتخيل. وها هنا في هذه الظلمة ثمة حياةٌ تُعاش، لم يفت حمزة رؤيتها تتجلى أمامه. «الكل نايم، سبب زيادة لحتّى أكون فخور بحالي»، قال في نفسه، مريحًا عينيه. ناظرًا إلى الصفحة، راح يتفكُّر في عدة خواطر. صرير الباب الأبعد على الجهة المقابلة ما كان ليزعجه ويقطع عليه استغراقه في تأملاته. «أصلًا عندي كثير أسباب لأكون فخور بحالي»، قال معتدًّا بنفسه.

«هيه، لسّاتك صاحي!» فاجأه صوت أخيه جهاد الخفيض والرقيق.

صمت حمزة لحظة. «آ، أقرأ لي كم صفحة قبل ما أنام»، أجاب هامسًا، باسمًا لأخيه لدى نطقه تلك الكلمات.

«آ، بعرف» همس جهاد، ودنا من أخيه، يجر خلفه لحافه الذي تدثَّر به، وجلس جانبه. عاد حمزة يُنعِم النظر في كتابه، ساقاه نصف مكشوفتين بعدما تكدست طيات بنطال بيجامته عند ركبتيه. جهاد، ما إن لاحظ ساقي أخيه، شدَّ اللحاف لكي يحميهما، انتابه شعورٌ أنَّ

ساقي أخيه مهددتان، لكن لم يعرف بماذا. لكنه عرف أنَّ تغطيتهما ستساعد أخاه، أو على الأقل ستساعده على التركيز.

حتى في الأوضاع المستقرة والهادئة، كان جهاد يخشى الظلمة، يكره الصمت ويمقت الإحساس بالبرد، وكلما كان وحيدًا حرص أشد الحرص على تفادي تلك الأوضاع الثلاثة. لكن في حضور حمزة كان يقاوم الظلمة بالضحكات.

التفت جهاد إلى أخيه حمزة وحدَّق إليه، ولاحظ بقلق التركيز في عينيه.

نسمة هواء باردة هبَّت على وجهيهما، وغمرت جهاد رغبةٌ عارمة في كسر الصمت الرهيب. لذا، واثقًا، قطع على أخيه تظاهُرَه بالقراءة، وصرَّح في نبرةٍ جلية عالية، «منّيش رايح عالمدرسة بعد ما تخلص الحرب». وكشَّر بابتسامةٍ عريضة.

فورًا التفت حمزة إليه، وخفض نظرته لكي يلاقي نظرة أخيه: «مش رايح؟»

اتسعت عينا جهاد، وهمس في محاولة ماكرة للإجابة: «آ منيش رايح، سمعتهم يقولوا إنهم رح يعطونا أسبوع مفتوح، وبعرف أصلًا إيش رح يحكوا لنا هناك»، وبعينين لامعتين في الظلمة واصل قائلًا: «لهيك بدي اقعد في البيت».

لم يتفاجأ حمزة بتصريح أخيه الصغير الواضح والواثق. «فهمت عليك، مش لازم تروح، بس مش رح تقعد تلعب طول الأسبوع،

اتفقنا؟ رح أجيب لك قصتين زيادة تقرأهم، إيش رأيك؟» مضى حمزة يقول بإعجاب، ابتسامته اتسعت لدى عرضه القصتين على أخيه.

للحظات تبادل جهاد النظرات مع حمزة. ثم، متجاهلًا الظلمة الباردة، قال مبتهجًا، «اتفقنا، رح أقرأ كل القصص إللي تجيبها». بعدها، ما إن شعر بالأمان، حتى اندسَّ أسفل لحافه وغرق في المنام. محاطًا بالصمت والظلمة الباردة، راح حمزة يتفكَّر في المستقبل الباهر الذي ينتظر جهاد، وأقسم بينه وبين نفسه، في همسٍ بالكاد يعلو أنفاسه، أن يبذل كل جهده في سبيل تحقيق ذلك.

قضى حمزة ليلته يقتل الوقت، كتابه في حجره، يداه تقلِّبان الصفحات، الصفحة تلو الأخرى. لم يعرف أنَّه سيتمتَّع بتصميم راسخ في ليلة لا أحد يرافقه فيها سوى الظلمة الباردة وأزيز أخيه الصغير النائم إلى جانبه، تصميمٍ منحه القوة على إشباع نهمه وازدراد الكلمات بلا رحمة. كان ينفخ روحًا جديدة في نفسه.

بعد ساعات، كان حمزة يصارع لكي يفتح عينيه، وفشل. واصل المحاولة، وفشل مجدَّدًا. ابتسامته لم تتلاش عن شفتيه طوال نومه، لكن هذه المرة، كانت ابتسامته متكلفة، الابتسامة التي يصد بها أي محاولة من الآخرين لاستفزازه وامتحان صبره. فتح حمزة عينيه، لكن كل ما كان في وسعه رؤيته أشكالٌ مغبشة تتخبط أمامه، شخوصٌ تتأرجح، إلى الأعلى وإلى الأسفل، إلى الأسفل وإلى الأعلى، يمينًا يسارًا ويسارًا يمينًا. بعدها بلحظات هدأت الشخوص، والصورة

أمام عينيه استقرَّت. استوعب حمزة وجود أشخاص مجهولين حوله، ركَّز عينيه وحاول النظر مليًّا إليها: جراحون مقنعون يحيطون به، وعلى جانبيه كان في وسعه رؤية إبر ونصال جراحية ومشارط ومقابض وأضاميم ورق مبعثرة. أدرك وجوده في غرفة عمليات جراحية، ومع ذلك، احتاج إلى سؤالهم عن مكانه، ما هذه الغرفة ولماذا هم محيطون به وعيونهم تحدِّق إليه بفضول. حاول حمزة أن يسأل، لكن ما إن حاولت شفتاه بشق الأنفس الانفصال إحداهما عن الأخرى حتى ابتلعه ألمٌ مهول انصبَّ من صدره ومؤخرة رأسه، وأدرك أنَّ عليه الخضوع والاستسلام.

أغمض عينيه، وبدأ يتذكّر اللحظات الأخيرة التي عاشها قبل أن يجد نفسه في غرفة العمليات، «هون، هون، يلا! يلا! لقيت واحد كمان!» تلك الكلمات ترنُّ في أذنيه. بعدها، في خضم المعمعة، شعر حمزة بأيادٍ تنتشله من أسفل الأنقاض، رأسه يتدلى، والركام يخدش يديه المعلَّقتين. صفارات إنذار الإسعاف تزعجه، الهواء البارد يهبُّ قاسيًا على وجهه، بينما الأيادي التي تحمله من كل جانب تكزه في ضلوعه في محاولتهم الإسراع به إلى إحدى سيارات الإسعاف.

لكن حمزة لمح، من خلال فجوة في الأنقاض، جسد أخيه، جهاد الصغير، يرقد في سلام، يده المحروقة الهامدة ممتدة على كتابه البالي.

روان ياغي

المعفى

كانت الكهرباء مقطوعة. لم يكن لدينا مدرسة وسئمنا من قضاء الوقت في البيت. جيراني وأصدقائي خرجوا ليلعبوا مباراة كرة قدم. لم يُسمَح لي بالخروج لأنَّ أمي كانت تعد الغداء وأوشك أن يجهز. وقفت على الشرفة، أشاهد أصدقائي يركلون الكرة فيما بينهم ويتصرفون مثل مشاهير اللاعبين متى سجلوا هدفًا، يفردون أذرعتهم كما النسور ويركضون صارخين «جوووووووول».

وقفت هناك، أصرخ صيحات التشجيع كلما سجل صديقي المقرب، أحمد، هدفًا. بدا كأنَّ تجهيز الغداء يستغرق دهرًا. نظرت خلفي، أمي كانت توزع الأطباق على الطاولة، وبادلتني النظر بابتسامةٍ صافية هادئة. كانت تعرف كم كنتُ أتحرّق إلى الخروج ولم أبقَ سوى لأنها أجبرتني على ذلك.

«يلا ماما! عَجْلي! أحمد عم يسجل كل الأجوال»، شكوتُ إليها متذمرًا.

«تكّة ويجهز، حبيبي. مش هتقدر تلعب على معدة فاضية، والا؟» أجابتني بنبرةٍ عذبة. رددت عليها بملامح نزقة وعدت إلى مشاهدة المباراة الكبيرة. أسندتُ ذقني إلى حافة الشرفة، سحبت ذراعيَّ إلى

الخلف، وأبقيت قدميَّ على المقعدة الصغيرة الزرقاء البلاستيكية التي اشترتها أمي تحديدًا لهذه الغاية. كانت قد أخبرتني بأني لا أحتاج أكثر من عشرة سنتيمترات لكي يصبح في وسعي رؤية الشارع. أي سنتيمتر زيادة في الارتفاع سيتسبب في مأساة لا أحد من العائلة ولا الجيران، ولا أنا بالذات، يريد أن يشهدها. أرعبتني بقصص الأطفال الذين تسلقوا الشرفات وانتهى بهم الحال إلى الشارع بعظام مكسورة. بالطبع، عقلي الصغير حينها صدَّق كل كلمة قالتها، فالتزمت حذري دومًا، وحرصت ألا تتدلى ذراعاي أو رأسي متى تسلقت الشرفة على تلك المقعدة الصغيرة الأثيرة. أحمد، بعدما توقَّف للحظات في أثناء المباراة، نظر إلى الأعلى نحوي وأومأ سؤالًا. هززت رأسي وصحت: «لسّه!» فضحك الأطفال عليّ وعادوا إلى كرتهم.

في لحظة، ضوءٌ ساطع برقَ أمام عينيّ وارتميت إلى الخلف، اصطدمت بجدار المطبخ ووقعت أرضًا. بعد ثوانٍ انهارت أحجار طابوقٍ على الأرض وتهشَّمت الشبابيك. ركبتاي ويداي ترتعشان، وللحظة عجزت عن الوقوف على قدميَّ. صوتٌ غريبٌ ما انفك يئز في أذني، أشبه بصفيرٍ مزعج لا ينقطع. اختنقتُ بالدخان. أمي جرت إليّ تصيح على نحوٍ هستيري، تتفقد كل جزء في جسدي للتيقن أني لم أُصَب. عانقتني، لكني ما اكترثت، كنت أريد رؤية ما حلَّ بأصحابي. استجمعت أمي قواها ونهضت حاملةً إياي خارج البيت، إذ استمر الدخان يندفع داخلًا. يداي ترتعشان، عقلي يرفض التخلي عن حقيقة أنَّ كل أصدقائي كانوا يلعبون في الشارع

قبل ثوانٍ. في دقيقة، كنت أنا وأمي نقف في وسط الشارع نحاول التقاط أنفاسنا، لكن كل ما استنشقناه كان هواءً مثقلًا بالأسمنت، وانتابتنا نوبة سعال حادة لكي نطرده من رئتينا.

مع تلاشي الدخان، أخيرًا بات في وسعنا التنفس؛ الهواء رائحته رائحة ألعابٍ نارية. ثم استوعبت أمي أننا واقفون على البقعة نفسها حيث كانت تجري المباراة، ولم تعرف إلى أين تذهب. انطلقت تمشي في دوائر حول نفسها، تضم رأسي على كتفها، قرب عنقها. رأيت أصحابي مرميين على الأرض. كلهم. أحمد كان مرميًّا على جسد ابن عمه، رأسه انشقَّت. خالتو أم أحمد رأته أيضًا من أمام منزلها وراحت تصيح. أمي كانت لا تزال تضمني إليها بذراعيها المخدوشتين، بأقصى قوتها. هرعت أم أحمد نحو الشارع، تصرخ، حملت ابنها واندفعت تجري نحو أي سيارة إسعاف من السيارات التي بدأنا نسمع صافراتها على بعد. لم تصمد أكثر من عدة أمتار، وانهارت أرضًا، لا تزال تبكي، لا تزال تضم ابنها إليها. غابت عن الوعي. والد أحمد هرع وراءها، حمل أحمد وراح يجري، هو أيضًا عجز عن المواصلة ووقع أرضًا. نحيبي الهستيري يرافق نحيب أمي التي ظلت تحملني وتضم رأسي بشدة. لم تردني أن أقترب من أيٍّ من أصدقائي، أرادت أن تحجب عينيَّ عن مرأى أشلائهم المتناثرة هنا وهناك.

حمل الجيران أحمد وهرعوا بجسده المتدلي إلى سيارة إسعاف، وحملوا أمه إلى بيت من بيوت الجيران. عمو أبو أحمد واقفٌ في وسط

الشارع، الجيران من حوله ينتشلون الجرحى من أسفل الركام، واقفٌ يحدِّق إلى دم أحمد ودماغه المنتثر على الأسمنت. حاول أبي وآخرون إبعاده، لكن ظلَّ يقاومهم. لاحقًا، كان عليهم حملي سريعًا إلى المستشفى أنا أيضًا، إذ تبين أني تعرضت لإصابة.

أحمد رحل. وكل يوم أذهب فيه إلى المدرسة، تطاردني عيون الآخرين بنظراتها اللوامة. ما كان في وسعي النظر إليهم، إلى الأطراف المبتورة، الوجوه المحفورة بالندوب، المشي الأعرج. فجَّروا حيّنا إلى هباء في ثانية. ما عادت هناك مباريات، ما عاد هناك أهداف، ما عادت هناك صيحات تشجيع. الأحياء من أصدقائي كبروا في ثانية، وما عادوا ينظرون إليَّ كما اعتادوا قبل ذاك اليوم المفزع، وما عادوا يخرجون للعب. نظراتهم شاخصة، تشبه نظرة عمو أبو أحمد حين ينظر إليَّ وكأني لا أفهم، كأنهم يعلمون شيئًا أنا أجهله، كأني ارتكبتُ خطأً.

نور السوسي

كناري

الشمس في كبد السماء، والحرارة لاذعة.

جلس على مقعدٍ خشبي في وسط حديقة عامة مثل مسافرٍ غريب تاه في المطار، وأخذ يعد الخطوط على كفّيه كما لو أنَّه انتبه إليها للمرة الأولى في حياته. بدا مثل شخصٍ استيقظ فورًا وبدأ يحاول استيعاب ما حوله. تفحَّص الحديقة بعصبية، لفت انتباهه سربٌ صغيرٌ من الطيور لكن سرعان ما فقد اهتمامه به بعدما عجز عن التعرف على فصيلتها. شاهد طفلًا يدهده الكرة بمهارة مثل لاعب كرة قدم مشهور في محاولةٍ منه لإثارة إعجاب أمه. ابتسم، إذ سبق أن عاش موقفًا مماثلًا. بدت أشبه بلحظة ديجافو. فقد اعتاد أن يرجو أمه لكي تصحبه معها خارجًا، بل حاول حمل الأغراض الثقيلة لعلَّه يقنعها أنه كبيرٌ كفاية ليحمل بعضًا من مؤونة الأمم المتحدة التي تحضرها إلى البيت برفقة أخيه غسان. كانت تنظر خلفها، تكشر بابتسامة عريضة تنكمش معها تجاعيد البؤس المحفورة في وجهها، وفي محاولة يائسة أخيرة يتعلَّق بهدب ثوبها.

«بدّي روح معك»، كان يصر عليها وهو يكبت غصة بكائه.

«بدي روح معك زي غسان».

«صار كبير كفاية ماما ويقدر يشيل معنا الأغراض، مبارح شال معي كرسيين من الكراسي الثلاثة»، قال غسان مؤازرًا أخاه الأصغر.

«طيب، رح أخليك تيجي معنا المرة الجاية، بس اليوم بدك تضل في البيت».

دمعتان فرَّتا من عينيه وهو يراهما يغادران البيت. بعدها قرَّر انتظارهما خارجًا، وحاول إقناع نفسه أنَّ هذا كان القرار الصائب، فلا بد لأحدهم أن يبقى في البيت. كما أنَّ وعد أمه منحه الأمل، ومؤازرة أخيه رفعت معنوياته. أخيرًا بدأ أخوه الأكبر يؤمن به.

عادت أمه قرابة الظهر، حاملةً كيس طحين أبيض مخطَّطًا بالأزرق. غسان كان يتبعها، يحمل جاهدًا كيسين بلاستيكيين ستسد مكوناتهما احتياج العائلة لأسابيع. جرى نحوهما وأومأ إلى غسان أن يدعه يحمل الكيسين عنه، لكن غسان عرض عليه حمل كيسٍ واحد فقط، الأخف بينهما، إذ لم يرد لأخيه الأصغر أن يفشل في اختباره الأول. حمل الكيس أولًا بيده اليسرى، ثم باليمنى، ثم باليسرى، وحين أرهقت يداه، حضن الكيس بشدة إلى صدره. لم يرد التخلِّي عنه لأي سبب، لم يرد أن يخيب أمل أخيه فيه.

***

وقفت تحدِّق إليه من بعيد، تتفحص تعابير وجهه وإيماءاته التي، لخيبة أملها، بدت غريبة عليها وإن مألوفة، إذ عجزت عن

تحديد موقعها تمامًا في عقلها. عيناها ما طرفتا مرة وهي تحدق إليه. أخذت تحوم في الحديقة، في دائرة هو مركزها. ظنَّت أنَّ فعلها هذا، برؤيته من الأبعاد الثلاثة، سيحفزها على التنقيب عميقًا في ذاكرتها. فشلت. وبينما وقفت أمامه قفز طفلٌ بينهما، يلعب متباهيًا بمهاراته في كرة القدم أمام أمه الفخورة. هزت رأسها. فقد عاشت وضعًا مماثلًا، أشبه بلحظة ديجافو. كانت طفلةً صغيرة في بيتها البارد تحاول إرضاء أمها وتتوسل إليها أن تبقى. كانت وحيدة وتشعر ببردٍ شديد. وجدت عزاءها الوحيد في الدمى والدباديب الكثيرة في غرفة نومها، إذ كانت عالمها وأملها. أمها كانت ستترك البيت وتعود قرابة الفجر، محمولة بين ذراعي صاحبها الجديد.

***

الشمس في كبد السماء، والجو خانق.

أرخى رأسه على ظهر مقعد الحديقة، تفحَّص ساعته، وأغمض عينيه لكي يريحهما من شدة الحر. جمع لعابه وابتلعه في محاولة لكبت نوبة الظمأ المفاجئة. بعدها، حين قرر الالتهاء بفكرةٍ منعشة، جذب انتباهه شعرُها الذهبي. كانت قصيرة القامة، والزي العسكري جعلها تبدو أقصر. كانت فاتنة، ما من مجالٍ لإنكار هذه الحقيقة. شاهدها تحوم في الحديقة، وقال في نفسه: «لربما هي من بولونيا، هل سأعجب بها لو كانت سائحة؟» ثم سرعان ما فقد اهتمامه بها. فضجيج أزمة السير والناس من حوله غزوا أفكاره، واستحضر ذكرى مشابهة لهذا الضجيج. كان يركض برفقة أخيه نحو شاحنة

صهريج الماء العذب التابعة للأونروا، فلأيام لم يكن ثمة مياه صالحة للشرب في المخيم. وقفا في الطابور إلى ما يزيد على ساعة، ملآ جلنين بالماء، وحملا الجلنين على أكتافهما، وترنحا في طريق عودتهما إلى البيت على حدود المخيم. تغريد عصفورٍ جذب انتباهه، فوضع الجلن على الأرض لكي يلحق به، هوايةٌ هو وأخوه يمارسانها كلما غادرت أمهما البيت.

«كناري!» صاح غسان، وقال: «أنا شفته بالأول، استناني هون وأجيب لك اياه». الكناري طار نحو الشجيرات في ضواحي المستوطنة اليهودية القريبة. رصاصة واحدة فحسب، أخرست أخاه والكناري إلى الأبد، أمام عينيه.

***

لاحظت استرخاءه على المقعد مغمض العينين، وعلى ما يبدو غير مبالٍ بأي أحد. تساءلت ما الذي يشغل تفكيره في غمرة هذا الضجيج. تساءلت إن كان على موعد مع امرأة. وتحت وهج الشمس الحارقة، قررت أن تحوم حوله في الحديقة مرة أخرى. كانت تلقي عليه نظرةً أخرى حين تجمدت في مكانها إثر الوميض الساطع لنجمة داود المتدلية من قلادة حول عنقه. أشاحت بنظرها عنه وأغمضت عينيها بشدة لكي تتخلص من العمى اللحظي الذي أخذها على حين غرة. شعرت بدماغها يتبخر بفعل الحرارة وأنها على وشك أن تجن. تمنت لو كان جالسًا في انتظارها. وفي لحظة يأسها، شيءٌ في دواخلها جعلها تحب هذه الحالة من الهلوسة.

عجلت في خطاها نحو شجرة قريبة لكي تخلص نفسها من لهيب الهواء حولها. قررت أن تفكر في خاطرٍ منعش. أغمضت عينيها وتخيلته مسترخيًا في حوضٍ من الماء البارد، الماء يتقطَّر من شعره وأنفه وأذنيه. وجهه يشتت انتباهها، ففيه أشياء كانت تبحث عنها. وما تلك الأشياء؟ لا تدري. اجتاحتها رغبةٌ في الوصول إليه، باحتلال عالمه. تذكرت آخر مرة حظيت فيها بحبيب. مر زمنٌ طويل، قالت في نفسها، قبيل تجنيدها في الجيش. لم يكن سهلًا عليهما البقاء معًا، كلٌّ يخدم في منطقة مختلفة تمامًا، وخطر لها أنَّه كان في وسعه بذل جهدٍ أكبر.

***

الشمس في كبد السماء، والجو قائظ.

قطرات العرق تدبُّ من جبهته إلى صدغيه، ورفَعَ يده اليسرى لكي يمسحها. فتح عينيه ونظر حوله، ارتاح لمعرفة أنَّ الأم وابنها أخيرًا غادرا ومزيدٌ من الجنود الآن اجتمعوا لاستراحة الغداء في البقعة المعتادة. إلى الآن، كل شيء يسير تمامًا وفق الخطة. الحزام يخنقه، ويداه رطبتان. العرق كان يتصبب منه، لكنه في حاجة إلى التركيز والرؤية بوضوح. جفف يديه، مسح العرق عن جبهته، تفحص المؤقت في جيبه الأيمن، عدَّل جاكيته الثقيل وشدَّه أقرب إلى جسده كما لو أنَّ الشتاء هبَّ فجأة. تفحَّص ساعته مجددًا، كانت ١:١٠ ظهرًا تقريبًا.

فتحت عينيها، وبرؤيته على وشك النهوض قررت اتباع نزوتها

والذهاب لمحادثته. كانت فرصتها الأخيرة. فقد خسرت كثيرًا من الناس لأنها لم تجرؤ كفاية، لكن ليس هذه المرة. وسارت في اتجاهه.

لدى رفع رأسه لكي يتفحص المكان مرةً أخيرة، تجسدت أسوأ مخاوفه أمام عينيه. المرأة الشقراء القصيرة، في اللباس الكاكي وجزمتي الجيش السوداوين، ببندقيتها المشدودة على ظهرها، ذيل حصانها يتراقص خلفها، كانت تشق طريقها إليه عبر الطاولات كما السهم المنطلق. نهض، يتصبب عرقًا أكثر، مشلولًا بالمفاجأة. بالكاد استطاع تحريك يده إلى جيبه لكي يقبض على الصاعق.

كانت مهتاجة، تتصبب عرقًا، فقد أقدم هو على خطوة، وسارعت هي في خطاها. أخيرًا أصبحت أمامه، على بعد مترين تقريبًا. توقفت لكي تمسح العرق عن جبينها بظاهر كفها الأيسر. قطرة عرقٍ تدحرجت من خده الأيسر إلى عنقه. ارتجف. قطرة عرق سالت على جبهتها. عينها طرفت. الشمس في كبد السماء، والشمس حارقة. نجمة داود المعلقة حول عنقه، جاكيته الشتوي، ملامحه العربية! شعرت بالدوار. الآن أدركت ما يجري حقًّا! كيف لم تربط الأمور بعضها ببعض؟ سحبت بندقيتها الـ(M16) وسددت فوهتها إلى جبهته، أصابعها تقبض بإحكام عليها. أطلقت نداء تحذير إلى بقية الجنود الإسرائيليين عبر جهازها اللاسلكي، ووقفت جامدة، العرق يتصبب منها.

عيناهما التقتا. الخوف والإحباط فاضا وغمرا المكان. أصبعها على الزناد. أصبعه على الصاعق. الموت حمل كليهما إلى المجهول.

سارة علي

قصة الأرض

إلى بابا.

نظرتُ إلى عينيه الدامعتين، لمحتُ شيئًا أشبه بالسعادة فيهما، فابتسمت. الرجل الذي لطالما عرفته على أنه أبي ها قد عاد. لم يبدُ مثل ذاك الرجل المجهول الذي عجزت عن التعرف إليه طوال السنوات الثلاث الماضية. ما عاد ذاك الشخص الذاهل الصامت المحدِّق إلى الجدران طوال الوقت، يومئ بلا اهتمام كلما خاطبه أحدٌ في البيت. كان حقًّا هناك. كان حاضرًا. كان يصغي حقًّا إليّ وأنا أتباهى بدرجتي العالية. اتصالٌ هاتفي، وورقة موقعة من مؤسسة ترعاها تركيا، أعادا إليّ أبي. عاودت النظر إلى عينيه، هذه المرة أتفحصه بحذر خشية أن تكون النظرة الأولى زائفة. وبينما رأيت السعادة المطلقة في عينيّ أبي، ابتسامةٌ عريضة وجدت طريقها مجددًا إلى وجهي.

وبينما نحتفي الآن بذكرى «يوم الأرض»، نكرِّم الناس الذين هبّوا دفاعًا عن أرضهم في ١٩٧٦ حين أعلنت إسرائيل أنها ستصادر آلاف الدونمات من الأراضي الفلسطينية. خلال تلك المسيرات

التي انطلقت اعتراضًا على الإعلان قُتِل ستة أشخاص، ولهذا يعيد إلينا الثلاثون من مارس ذكرى أرضنا، ذكرى أرض أبي. قبل أسبوعين، تلقينا اتصالًا هاتفيًّا يعلمنا بأنَّ اسم أبي قد اختير ضمن برنامج إعادة الإعمار الممول من تركيا. يهدف البرنامج إلى مساعدة المزارعين الغزيين -الذين دمرت أراضيهم إثر الاعتداء الإسرائيلي في ٢٠٠٨- على إعادة زرع أشجارهم، ومنحهم كل التسهيلات، من ضمنها السياج والفسائل والشتلات والشجيرات والبذور وأنظمة الري. كان أبي يرفض تقديم طلب إلى تلك المنظمات التي تمنح التعويضات المالية للمزارعين، إذ كيف له أن يأخذ مالًا مقابل الأرض؟ لكن على خلاف برامج المنح الأخرى، فهذا البرنامج لا يمنح مالًا للمزارعين، بل يساعدهم على النهوض من جديد.

رغم أنَّ أبي ولد في عائلة مزارعين، لكنه لم يتبع ذاك الطريق. درس العلوم الاقتصادية والسياسية في مصر، وقضى معظم شبابه يعمل صحفيًّا في الكويت، تحديدًا كاتب عمود، يكتب عن القضايا السياسية والاقتصادية في صحفها. لكن حين عاد إلى غزة، توجب عليه رعاية قطعة الأرض التي تركها له جدي قبل أعوام. لم يجد المهمة صعبة عليه. ومع الوقت، أصبحت رعاية الأرض شغفًا أكثر منها حرفةً. كانت من الأشياء القليلة التي اكترث لها، المهمة اليومية التي أبقته مشغولًا.

كانت جنته على الأرض.

خلال تلك الأيام الثلاثة والعشرين للهجوم الإسرائيلي على

غزة، كنا نتلقى على الدوام أخبارًا عن تجريف الأرض بالبلدوزرات الإسرائيلية. قيل لنا إنَّ آلاف الأشجار اقتلعت. أشجار أعمامي اقتلعت. أشجارنا اقتلعت. قيل لنا إنَّ كامل المنطقة الزراعية شرق غزة جُرِفت. لكن تلك كانت إشاعات، أو هذا ما أراد أبي تصديقه. كلنا أملنا في بقاء أرضنا مصانة، لم يمسها أي ضر. تعلَّقت آمالنا بافتراض أنَّ أشجار الآخرين فحسب يمكن لها أن تُقتَلع من جذورها، أما أشجارنا الجميلة بزيتونها الذي لا يضاهيه أي زيتون آخر، يقينًا لن تلقى هذا المصير. يقينًا ليست الأشجار التي في نظر أبي كانت الشيء الوحيد الذي يتفاخر به لكي يثبت أنه لا يقل عن أي غزاوي آخر، لا سيما هؤلاء الذين ما انفكوا يؤنبونه على قراره *الطائش* ترك أرض «الذهب الأسود»، حيث افترضوا أنه يسبح كل يوم في آبار نفط الكويت، لكي يأتي إلى غزة ويعيش *هان* (مع نبرة استصغار). أما أبي، فقد نظر إلى قراره من منظور آخر مختلف تمامًا، إذ دومًا ما آمن أنَّ *هان* هي أرض الزيت المقدس.

سماء غزة استعادت زرقتها، فقد انتهى الأمر؛ في الأخبار قالوا إنَّ الأمر انتهى. مضى أبي إلى هناك لكي يطمئن على الأرض، وثق بأنَّ زيتونه هو الاستثناء، ومضى. وثق ببضعة صغيرة في قلب سائق البلدوزر، الذي افترض أبي أنه سيصعب عليه مقاومة جمال أرضنا، وسيصغي إلى الإنسان الفطري الطيب فيه يحثُّه ألا يجرف هذه الأرض. وثق بطيبة الإنسان ومضى إلى هناك. وثق بالله ومضى إلى هناك. أخي الذي رافقه، أخبرنا لاحقًا أنَّ كل ما شاهداه في

مسيرهما كانت أراضٍ مدمرة، ملأى بالأشجار الميتة المجرَّفة التي من شأنها أن تؤمّن احتياج عوائل أصحابها إلى الحطب لأعوام عديدة قادمة. أخي أخبرني بأنَّ بابا بكى ما إن رأى الناس تبكي، ومضيا إلى هناك. رأيا مزيدًا من الأشجار المتداعية إلى السقوط، واهنة ومهزومة، ومضيا إلى هناك. وهناك *كانت* الجنة. المشهد في أرضنا لم يكن صادمًا. ببساطة، أشجارنا لم تكن استثناءً. أشجارنا اقتلعت. مزيجٌ من مشاعر الابتلاء والإنكار ساد المكان. إيمان أبي تشظَّى إلى هباء، والعالم بدا مكانًا قبيحًا.

شجرةٌ من أشجارنا، والتي ستغدو لاحقًا محلَّ حديث الجيرة بأكملها، كانت لا تزال واقفة. قبل الاعتداءات بأسبوع كان أبي قد أخبر أخي بميلان هذه الشجرة، وأنَّ عليهما التخلص منها بسرعة. كانا ينويان قطعها. لكن، للمفارقة الساخرة، فقد باتت الشجرة الوحيدة التي تركها الجيش الإسرائيلي قائمة (لا أدري إن كان من باب الضجر أم من باب الرحمة.) لكنها كانت لا تزال واقفة هناك. لاحقًا، كلما أراد أبناء عمومتي التخفيف من مصاب بابا، يسخرون من الأمر برمته: «كيف عرفوا هالجنود الملاعين إنك ناوي تقطع الشجرة وحطوا في راسهم ميقطعوهاش بس حتى يقهروك؟» والجميع يضحك. لكن بابا ما ضحك يومًا عليها، أرضه وكروم الزيتون ليستا مثار ضحك.

حين عاد أبي وأخي إلى البيت يومها، بدأ أخي يروي علينا ما رآه. أخبرنا بأنَّ الشجر اُقتلِع، ما انفك يعيد علينا «الشجر اتجرَّف».

أبي كان في غرفته يبكي. وخلال الأسابيع التالية لذهاب أبي إلى الأرض، عاش يومه وفق جدولٍ ثابت: في الصباح يصلي ويقرأ القرآن، وفي الليل يبكي. لدى البعض، يبدو الحديث عن الأرض والبيوت والخسائر المالية خلال العدوان الإسرائيلي - أو فورًا بعده - دلالة على الأنانية واللامبالاة بمصائب الآخرين. حين يموت الناس، فأنت لا تتكلم عن بيتك الجميل الذي دُكَّ وسُوِّي بالأرض. حين تُبتَر سيقان الناس وأذرعها، حين يُتركون معاقين بقية حياتهم، فأنت لا تتكلم عن سيارتك الفارهة التي بدت يومًا مزهرية تزين شوارع حيك المتواضع والآن ما عادت سوى حطامٍ رمادي. حين تدفن أمٌّ طفلها قبل أن يتسنى لها وداعه، فأنت لا تتكلم عن أرضك وأشجارك التي اقتلعت بلا رحمة. هؤلاء الناس يتكلمون، يبكون، يندبون فقدهم، وأنت تصغي. فاجعتك التافهة وبؤسك الضئيل تحزن عليهما في صمت. ويبدو لي أنَّ هذا ما زاد الكرب على حزن بابا.

أخيرًا، ذهبت إلى أبي لكي أحصل منه على معلومات دقيقة بشأن الأشجار التي اقتلعت، عن عددها وأعمارها.

«ليش بتسألي؟ إنتي ناوية تقدمي طلب على وحدة من هالمؤسسات الخيرية إللي بتعطيكي شوية مصاري وكيس طحين بدل ما تساعد الناس تزرع شجرها من أول وجديد؟ هاد إللي ناوية تعمليه؟ ما بدناش منهم إشي! الزلمة إللي التقيته من برنامج إعادة الإعمار اتصل عليّ الأسبوع الماضي، وبعتوا عمّال ومزارعين على الأرض حتى يبدوا شغل، وهلقيت بدك تقدمي على صدقة؟».

«لا بابا! أنا بسأل عشان بدي أكتب في مدونتي».

«مدونة؟ طيب، طيب، تفضلي اسألي هالمدونة تبعتك!».

«كم شجرة تجرَّفت؟ أظن ١٨٠ شجرة زيتون و..».

«١٨٩ شجرة زيتون. ١٦٠ شجرة ليمون. ١٤ شجرة جوافة..».
راح بابا يعدِّد عليّ في جؤارٍ عالٍ، غاضبًا من جهلي الأعداد بدقة.

محرجة، أخفضت رأسي وتساءلت لم وضعت نفسي في هذا الموقف، لكن سرعان ما انقطعت أفكاري إثر مواصلة أبي توبيخه: «المرة الجاية إللي تقرري فيها تعملي الإشي إللي بتعمليه هلقيت، احفظي أرقامك صح!».

لم أجبه.

«سمعتيني؟ ١٨٩ شجرة زيتون، مش ١٨٠ ولا ١٨١ ولا حتى ١٨٨! ١٨٩ شجرة زيتون!».

غادر الغرفة بعدها بدقائق، لا شيء سوى الذنب يغمرني.

لن أستوعب أبدًا كيف لجندي إسرائيلي أن يجرف ١٨٩ شجرة زيتون على أرضٍ يدَّعي أنها «الأرض الموعودة له من الرب». ألم يخطر إليه احتمال غضب الرب عليه؟ ألم يعِ أنَّ ما يدهسه كانت شجرة؟ لو قُدِّر لنا اختراع جرافة بلدوزر فلسطينية (ههه! أدري!) وتسنت لي فرصة الوجود في بيّارة، في حيفا مثلًا، ما كنت أبدًا لأقتلع شجرة زرعها إسرائيلي. لا أنا ولا أي فلسطيني كان سيفعلها. فالشجرة مقدسة لدى الفلسطيني، والأرض التي تحملها مقدسة.

وبينما أتكلم الآن عن غزة، أتذكر أنَّ غزة ليست سوى جزءٍ صغير من فلسطين. أذكِّر نفسي بأنَّ فلسطين أكبر من غزة. فلسطين هي الضفة الغربية، فلسطين هي رام الله، فلسطين هي نابلس، فلسطين هي جنين، فلسطين هي طولكرم، فلسطين هي بيت لحم، وأذكِّر نفسي بالأهم، فلسطين هي يافا وحيفا وعكا وكل المدن التي تريد إسرائيل منا نسيانها.

اليوم أعي أنَّ ليس الاتصال الهاتفي هو ما أعاد أبي، ولا الورقة الموقَّعة من مؤسسة الإغاثة، بل ذكرى الأرض تُبعَث من جديد. ذكرى أشجار الزيتون التي تمنحه الأمان كلما جلس يستظلُّ بها، ينعم بفيئها متفاديًا أشعة الشمس الحارقة. ذكرى النفط الذهبي، أنقى أنواع النفط وخيرها، يُصَبُّ في تنكات وتُرسَل هديةً ثمينة إلى الأهل والأصدقاء. ذكرى أعوامٍ طويلة من الاعتزاز بالأرض وحبِّها ورعايتها، أعوام من العطاء والانتماء.

بين أبي وأرضه عروةٌ وثقى لا تنفصم. بين الفلسطينيين وأرضهم عروةٌ وثقى لا تنفصم. باقتلاع الزرع وجرف الأشجار، تحاول إسرائيل فكَّ هذه العروة وفرض قواعدها البائسة الجديدة على الفلسطينيين. بإعادة زرع الأشجار، المرة تلو الأخرى، يرفض الفلسطينيون قواعد إسرائيل.

«أرضي، قواعدي»، كذا يقول بابا.

سميحة علوان

وجع أسنان في غزة

استيقظتُ على ألم الأسنان الفظيع ذاته، الألم ينخرني من سنِّي إلى قمة رأسي. على مر يومين عجزت عن الدراسة، عن الأكل، والأسوأ، عن النوم. كلُّ بضعةٍ في جسدي تؤلمني على طريقتها. لذا ما كان أمامي خيارٌ آخر، عليَّ الذهاب إلى طبيب الأسنان. حاولت تفادي الذهاب إليه، لكن ما عاد من مفر. كان يفترض بأبي أن يحجز لي موعدًا لدى طبيب أسنان، لكن لسوء الحظ، كنت سأضطر إلى الانتظار ثلاثة أيام أخرى لكي أحصل على موعد. لا شيء في العالم يهيِّج الأعصاب مثل صداع ألم الأسنان، ألمٌ لا يطاق.

لدى سماعه أنيني ونواحي من الألم، صاح عليَّ أبي من الغرفة الأخرى: «إذا متقدريش تتحملي الألم ثلاث أيام، خلينا نروح هلقيت..».

أظن أني إما لم أسمع أبي جيدًا وإما ظننته يمزح، فسألته: «نروح على وين؟»

تنحنح أبي وصاح تلك الكلمة المخيفة التي وصلتني حادةً بيّنة: *الوكالة*. قلبي وقع، وجسدي بأسره ارتعش. حنجرتي غصَّت بكلماتي. وفجأة كل ما بات في وسعي رؤيته لحظتها هي صورة

ذاك المكان. فكل يوم، في طريقي إلى الجامعة، أمرُّ باثنين من مباني الأونروا: المركز الصحي والمقر الرئيسي.

جدران العيادة كانت شبه بيضاء بخطوط زرقاء قليلة، وعلى الجدران رسومات غير متجانسة الحجم لأناس يُحمَلون إلى سيارات الإسعاف. لم يكن مبعث انزعاجي جدران المباني البيضاء الشاحبة والزرقاء أسفل علم الأونروا، ولا الرسومات الفجة، ولا الأسوار المحصنة المسيجة بالأسلاك التي تضايقني كلما ألقيت نظرة عليها، بل مشهد الحشود المصطفة -أو التي تحاول البقاء مصطفة- للوصول إلى النوافذ المسيَّجة، وصوت الشخص الخفيّ الذي ينادي عبر الميكروفون على الأسماء أو الأرقام. لم أستطع يومًا منع نفسي من الشعور بالشفقة عليهم، على اضطرارهم إلى الانتظار في طوابير تحت شمس الصيف الحارقة أو مطر الشتاء المنهمر. وما تخيلت نفسي قط أصطف في طابور هناك لأي سبب. ما ظننتني سأضطر إلى الوقوف في انتظار اسمي يُنادَى عليه، أعاني في شق الطريق نحو النافذة المسيَّجة على أمل أن أكون ضمن المحظوظين الذين سيُنادَى عليهم.

رغم رغبتي الصمود في التجربة المؤلمة التي أمر بها وانتظار الموعد، فإنَّ الألم غير المسبوق هزمني، واستسلمت. بات لزامًا عليَّ الذهاب إلى عيادة الأونروا سواء أحببت أم لا. فإلى أي حد سيكون سيئًا حقًّا الوقوف هناك في الطوابير بين الآخرين، بين الفلسطينيين العاديين، بين اللاجئين، بين المرضى؟ «ليس سوى مركز طبي» رحت أواسي نفسي، لكن عبثًا.

ليلة مؤرقة مرَّت. وحين ذهبت إلى أبي صباح اليوم التالي لم يكن لديَّ شيء أقوله. بنظرةٍ حنونة حاول تهدئة فزعي، وأخبرني بأنَّ عليه الذهاب إلى العيادة قبلي بساعة لكي يحجز لي مكانًا قبل احتشاد الطوابير. تساءلت كيف لمكانٍ أن يحتشد بالناس الساعة السابعة صباحًا؟

تمامًا، في الساعة الثامنة صباحًا، توجهت إلى العيادة كما أخبرني أبي. وفي طريقي إلى المركز انتابني أسى شديد. تفكّرت في لا مبالاتي أحيانًا تجاه أبي، كيف أني لم أوفِّه قدره على كل ما يفعله من أجلنا. كل شهر، يضطر أبي إلى الوقوف في طابور لكي يحضر لنا المؤونة من الأونروا، فنحن ضمن الفلسطينيين المحظوظين ممن يتمتعون بمزايا «كرت المؤن» لأن أمي لاجئة. ولم أفهم يومًا كيف يرى بعض الناس هذه البطاقة على أنها امتياز، ولطالما تساءلت لماذا يتباهى بها البعض بمنتهى الفخر. كرت المؤن كان ولا يزال إهانةً تذكِّرنا بأقل القليل الذي يحصل عليه اللاجئ مقارنةً بما خسر. فهل كيس الطحين يعوض اللاجئ الأرض الزراعية التي فقدها؟ هل يحلِّي كيس السكر مرارة البؤس الذي ما انفك يتجرعه اللاجئ بعد خسارة بيته الجميل وإجباره على السكن في المخيمات؟ هل قنينتا زيت تنسيان اللاجئ أشجار الزيتون التي اقتلعت عن أرضها بلا رحمة مثلما اقتلع هو عن أرضه؟ أو لربما ببساطة يعتز اللاجئ بالكرت لكونه إعلانًا عن وضعه المؤقت كلاجئ كان يومًا يملك الأرض، وما دام الكرت في يده ستظل أرضه في انتظار عودته.

نوبة ألم مبرح انتشلتني وأعادتني إلى الحاضر.

حين وصلت المركز بحدود الساعة الثامنة والنصف، لم أجد سوى عدد قليل من الناس يصطفون خارجًا. خمنت أنَّ افتراضاتي المسبقة ومخاوفي مبعثها فوبيا غير منطقية من طبيب الأسنان. بدا المبنى الأبيض الأزرق لطيفًا، ووجدت في لونيّ المفضلين مبعث ارتياح، لكن للأسف لم يدم هذا الإحساس. ما إن دخلت العيادة حتى غمرتني أصوات هذرة الناس. تلفتُّ حولي، وتأملت العيادة بحجمها الصغير المثير للضحك، التي تقنيًّا ليست سوى غرف صغيرة، مع لوحةٍ أعلى كل باب توضح أنواع العلاج التي يقدمها المركز الصحي: عيادة الطب العام، طبيب العيون، طبيب الأسنان، والطب الباطني الذي يحتل أغلب مساحة المركز.

قلت في نفسي، حمدًا لله أنه مجرد وجع أسنان.

عثر أبي عليَّ وسط الحشد، ونادى عليَّ من حيث يقف: «ليش تأخرتي؟ حصّلت لك على رقم، كم دقيقة وكان رح يفوتك الدور».

«إلا الرقم، كله إلا الرقم! مفينيش أخسر الرقم بعد كل إللي مريت فيه»، كذا قلت في نفسي، إذ منعني الألم من الكلام. وجدتني في موقف من المواقف التي تجرِّد الإنسان من بشريته وتصيِّره مجرد رقم. ما عدت أنا، أنا الآن سبعة، و«سبعة» هو كل ما تقت إلى سماعه تلك اللحظة، مع أنَّ رؤيتي حال المرضى حولي خفف شيئًا من ألم أسناني المبرح الذي يقضم دماغي وأطرافي.

كم أردت لهذا الألم أن يكف، بأي وسيلة ممكنة.

جلست على المقعد الذي حجزه أبي لي. وبعدما رأى حالتي، فضَّل الوقوف مثل أغلب الناس الواقفين في انتظار أرقامهم. المقاعد الخمسة المتوفرة في الغرفة ما كانت أبدًا لتكفي عشرات النساء والأطفال والرجال والعجزة المحتشدين وقوفًا. اختلست نظرة سريعة على البطاقة لدى المرأة إلى جانبي، تتشبث بها بكلتا يديها، ولمحتُ الرقم. صدمت! إلى متى ستضطر إلى الانتظار مع الرقم ٣٦، وأنا لا أزال سبعة ولم ينادِ عليَّ أحدٌ بعد؟

على ما يبدو لن أنتظر طويلًا.

«الرقم ستة! الرقم ستة؟» نادى صوتٌ ضجر عبر مكبر الصوت.

«الرقم ستة؟ وين الرقم ستة؟» جأر أغلب الموجودين، أصواتهم يتردد صداها عبر الرواق. باب الغرفة فتح، وامرأة مسنة للغاية دبَّت زحفًا خارجه، تترنح ببطء يمينًا ويسارًا. قريبان شابان، حفيداها على ما يبدو، كلٌّ كان يمسك بإحدى يديها. عينا المرأة المسنة مغمضتان، وقطعة قطنٍ ناتئة من فمها الصغير. بدا لي جليًّا أنها في ألمٍ شديد، ولسبب أعجز عن تفسيره، جسدي بأسره أخذ يخفق. كنت أريد اختلاس نظرة إلى العيادة حين اندفعت فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها من بين الحشد، تشق طريقها نحو الغرفة، وأغلقت الباب خلفها.

الفتاة، شعرها يتدلى في ضفيرة طويلة، كانت ترتدي الزي

المدرسي الأبيض المخطط بالأزرق الذي لطالما كرهته حين كنت طالبة، (إلى الآن أتساءل إن كان في الحقيقة زيًّا أزرق مخططًا بالأبيض). كانت قد دخلت عيادة الأسنان وحدها، وقديش خجلت من حالي. فقد رأيت فيها النسخة الأصغر مني، عدا أني أحببت تسريح شعري في ضفيرتين. والاختلاف الأهم، أنها لم تكن جبانة إلى حد إحضار أبيها معها. كانت تحمل حقيبتها المدرسية على ظهرها حين دخلت، لذا، على الأرجح، ستمضي إلى المدرسة بعد اقتلاع سنها. في ظرف دقيقتين فتح الباب مرة ثانية، وخرجت الفتاة الصغيرة بملامح التحدي ذاتها التي دخلت بها، وكأنَّ لسان حالها يقول: «هيني قلعتك من تِمِّي يا الضرس الغبي». خطر لي مدى الوقت الذي قضته تلك الفتاة الصغيرة داخلًا. دقيقتان، لا يكفي إطلاقًا لتخديرها...

للحظة عزمت على الهروب. أخذ أبي يدفعني عبر الحشد حتى قبل أن ينادوا على الرقم سبعة، ومرة أخرى، جأر حشد المنتظرين في تناغم: «الرقم سبعة! وين الرقم سبعة؟» كان يمسك بيدي وأنا أتلكأ وراءه. الأطباء الثلاثة بدوا لطفاء، على الأقل سألوني عن اسمي. استلقيت على الكرسي، وفي أقل من دقيقة أعلن الطبيب أنِّي في حاجة إلى خلعٍ جراحي، ولم يفاجئني أنَّ هذا الإجراء لا توفره عيادة الأونروا. نسيت الألم، كل ما أردته النهوض ومغادرة تلك الغرفة المعقمة.

ظللت أحبس أنفاسي إلى أن غادرت. اندفعت نحو مخرج المبنى، وحين خرج أبي لاحقًا، نظرتُ إلى عينيه بالابتسامة نفسها

على وجه الفتاة الصغيرة: «قلتلّك، مبِقدروش يساعدوني». أبي، الذي بقي داخلًا ليستعلم أكثر عن الحالة من الأطباء ولكي يحضر أي أدوية ممكن صرفها، ضحك حين رأى وجهي الشاحب يستعيد أخيرًا لونه. رفع كيس الأدوية الصغير أمام وجهي وقال: «على الأقل جبت لك مسكنات للوجع».

للحظة تدبَّرتُ ما قال وابتسمت: «آ، مسكنات للوجع!».

نور السوسي

هل سأخرج يومًا من هذا المكان؟

وها أنا الآن، مؤشر بطارية الموبايل انخفض إلى النصف، وحالي ميؤوسٌ منها. فالشبكة لا تستجيب لمحاولاتي الحثيثة الاتصال بأي أحد.

هذا الموبايل نفسه هو هدية أبي لي لنجاحي في الثانوية العامة بامتياز، كانت طريقة أبي في التعبير عن بهجته العارمة ذاك اليوم. لا أنسى حين ذكَّرني بحلمي المستقبلي: «أخيرًا يا سعيد بدي أشوفك طبيب مثل ما تمنيت طول عمري، أخيرًا!»

كنت أتوقع أني سأتابع دراستي الجامعية في الخارج، لكن القدر أخذ منحًى آخر. مجرد فكرة مغادرتي هذه البلد وعدم العودة إطلاقًا كانت مرفوضة كليًّا لدى والديَّ، لذا لم أجد خيارًا آخر سوى الالتحاق بكلية الطب هنا، في غزة. وأصدقك القول، لم يكن الوضع بالسوء الذي تخيلته، إطلاقًا. فكل ما عقَّد حياتنا وصيّرها جحيمًا لا تطاق في كلية الطب هي انقطاعات الكهرباء الدورية وأزمة ارتفاع أسعار الغذاء والإغلاق المستمر للحدود الذي يمنعنا من السفر وأزمة المواصلات والمعاناة اليومية اليائسة لتأمين المعيشة. فقط تلك الأمور ولا شيء سواها.

يا الله، قديش هديك الأيام أسعد بكثير من أيامنا هيّ! بس معلِش، ساعة زيادة ونخلص.

عامٌ مضى. بيتنا قُصِف وتضرَّر جزئيًّا. غرفةٌ واحدة فقط دُمِّرت بالكامل، وأبي كان داخلها. عامٌ مضى، وما زلت أنأى بنفسي بعيدًا عن تلك الغرفة، ولا أزال أشم رائحة اللحم المحترق. حتى في هذه اللحظة -وأنا محاصرٌ هنا- لا أزال أشمها. فاجعتي على فقد أبي عظيمة لا تسكّنها الدموع، لا، لم أبكِ على موت أبي.

فجأة أصبحت أنا معيل العائلة الوحيد، وبات لزامًا عليّ البحث عن عمل، أي عمل. وعلى غير ما توقعت، لم يستغرق البحث وقتًا طويلًا، إذ هسَّ أحدهم في أذني، «سعيد، تعَ اشتغل معنا في حفر الأنفاق، مش هتلاقي شغلة أحسن من هيك!».

«بس...».

«من غير بس. رح توخذ دبل الأجر إللي توخذه من أي محل ثاني، وكمان هالشغلة مضمونة طول السنة»، ثم أضاف مع ابتسامة عريضة، «ورح نناديك دكتور سعيد».

إثر فشلي في الموازنة بين دراستي ووظيفتي الجديدة، تركت كلية الطب.

انخفاض مؤشر البطارية يضايقني.

رفعت أمي يديها المباركتين داعيةً لي. كانت تدعو لي ولا تعرف نوع العمل الذي أؤديه، ولا ألومها. ففي نهاية المطاف

ما كانت لتحتمل فكرة نوم أطفالها بمعدة خاوية، ولا أنا كنت سأحتمل.

ركبت سيارة أجرة وذهبت إلى رفح، حفر الأنفاق سيجري تحت البيوت القريبة من الحدود. كل ما شغل بالي كيف لجسدي أن يحتمل البقاء في قبرٍ أعمق من عشرين مترًا. الخمسون شيكل التي أستلمها آخر الوردية، والأكياس التي أحضرها معي إلى البيت وترسم الابتسامة على وجوه أمي وأشقائي الصغار وأختي الوحيدة سهَّلت عليَّ المهمة إلى حدٍّ ما.

بدأنا الحفر، وسرعان ما استحال الهواء فاسدًا وخانقًا. كنا ثلاثة فرق: الفريق الأول يحفر، الثاني يحمل الرمال خارجًا، والثالث يمسك قوائم السقالات. ورغم ارتدائي لثامًا، كان الرمل ينسلُّ خلال اللثام إلى فمي، وشربي الماء كان يصيّر الأمر أسوأ. حين تنتابني نوبة سعال شديدة، يضحك عليّ رفاقي غير الملثمين، أحدهم أخبرني: «مع الوقت بتتعوّد دكتور».

سرحت بعقلي بعيدًا عنهم، وتصورت البحر حيث اعتدت قضاء معظم وقتي أغوص، فالغوص كان هواية من هواياتي المحببة لديّ. قطرة عرقٍ باردة أيقظتني، تشق طريقها إلى أسفل ظهري، وحتى تلك القطرة الصغيرة كانت ملوثة بالرمال.

حاولت تحذيرهم من الحفر قريبًا من البحر، لكني امتنعت. فحفارو الأنفاق الذين لم يتعلموا في كلية الطب هم بالتأكيد أدرى مني. وهذه المهمة بدت سهلة، وإن كانت شاقة، إلى أن انهالت

الرمال علينا من السماء، من السماء الحالكة للأنفاق المعتمة، وبقيت هنا في مؤخرة النفق لأمسك بأعمدة السقالة.

والآن أتساءل كم من الوقت مرَّ عليّ وأنا عالقٌ في هذا النفق بعدما غادرني رفاقي وتركوني وحيدًا. دعوات أمي لم تنفعني بشيء، فالنفق انهار على البوابة قبل أن يتسنى لي مغادرته.

بالتأكيد سيأتون لإنقاذي، أكيد.

موبايلي يئن، ضوءه يخفق.

البرد القارس يخترق عظامي، الألم يفور فيَّ، وأشعر بدفء الأرض أسفل قدميّ كما لو أنها تُربِّت عليَّ لكي أنام. يتبدَّى لي في الأفق نورٌ آتٍ من بعيد، أستطيع مسَّه.

تسبيحة. أسمع تسبيحةً الآن. دعوات أمي. معدة أختي الخاوية. رائحة اللحم المحترق. وطعم ماء البحر.

روان ياغي

جدار

مثيرٌ للسخرية وجود رصيف مشاةٍ هنا. مشيتُ أتلمَّس بأطراف أناملي أعمدة الأسمنت الضخمة التي شُيِّد بها السور العظيم الذي بُني لكي يخيفني. لم أنظر إلى رسومات الجرافيتي، فأنا أعرفها عن ظهر قلب. السماء نصف مقضومة، والشمس ليست في حالٍ أفضل. تعثَّرت بحجر، على الأرجح رماه أحد أصدقائي ليلة البارحة. جلست حيث تعثَّرت وأمسكت بالحجر، حدقت إليه لدقيقة، ثم رميته أعلى الجدار. أصغيت لعلّي أسمع «آاه»، لعلّي أسمع لعنة، خطى أقدام، نداء، همسة، طلقة نار. لا صوت على الإطلاق. واصلتُ المشي. بدا كأنما لا نهاية لهذا الطريق، وأطراف أناملي الآن مبقعة بألوان الجرافيتي كلها. توقفت، أدرت وجهي نحو الجدار، وضعت كلتا يديّ عليه، ودفعت. واصلت الدفع، ذراعاي مستقيمتان، أعض على نواجذي، ساقاي مغروستان في الأرض، رائحة طلاء البخاخ تنفذ من منخريّ إلى رئتيّ. رجلٌ تجاوزني قبل أن يتوقف لكي يرى مآل محاولتي. قدماي تتقهقران إلى الخلف، وصوتٌ من دواخلي كسر قيده واستحال صرخةً مدوية.

انهرت على الأرض أبكي. الرجل ضحك وواصل المشي.

نور البورنو

الأرق أمنيتي

ما انفكت العاصفة تعوي طوال الليل، هسيس الريح ينسل خلال الفجوات الصغيرة للغاية في النوافذ ومن أسفل الأبواب. الساعة تومض ٢:٠٠ صباحًا. الصراخ يبدأ. الكل استيقظ، الرجل وزوجته وطفلتاهما. صرخات عزرا الرعديَّة أيقظتهم جميعًا. كان يتصبب عرقًا بغزارة. العرق، مصحوبٌ بالنسيم المتسلل من باب غرفة النوم الموارب، تحالفا عليه، رجفةٌ باردة سرت في عروقه، وألمٌ مبرح قبض على صدره.

عزرا، الذي نام الليلة على الجانب الأيسر من السرير بداعي التغيير، نهض، تلمَّس طريقه نحو المرآة شبه المهشَّمة، اختلس نظرة إلى يديه، ثم جلس على السجادة قرب طاولة الزينة. تربَّع على الأرض ووضع يديه على ركبتيه كما لو كان يحمل غرضًا، نظرته إليهما شاخصة دون أن يطرف له جفن. زوجته تاليا لاحقته بعينيها، تتبع كل حركةٍ بيديها، إلى أن جلس ساكنًا. كانت تعرف ما الذي ينبغي عليها فعله. لكن قبل نهوضها لطمأنته، تنبهت لوجود طفلتيها تقفان في الرواق شبه المعتم خلف الباب، أخيلتهما ممتدة كما الأشباح.

«عودا إلى غرفتكما حبيبتيَّ»، همست إلى صغيرتيها بينما تنهض من الفراش. سارة وزيفا كانتا قد اعتادتا الآن الاستيقاظ على صرخات أبيهما في منتصف الليل، لذا عادتا إلى غرفة نومهما، غير متأكدتين مما حصل فورًا لوالدهما، فصرخاته هذه المرة أعلى وأشد ألمًا. الأسابيع الماضية كانت موجعة لهما، فوالدهما لم يبرح غرفة نومه، وما سمعا ورأيا منه سوى الزعيق والصراخ في منتصف الليل، وأصوات التهشيم والتكسير، وأنينه طوال النهار. أمهما حرصت دومًا على إبقائهما بعيدًا عنه.

تحركت تاليا على مهل، حذرة من ألا تُجفِل زوجها. كان يرتجف، وجهه شاحب، وقلبه يخفق بشدة.

«كابوسٌ آخر؟» قالت له في صوتٍ حنون وهي تجلس مقابله.

«هذه المرة أفظع»، دمدم عزرا لاهثًا.

«ما الذي رأيته؟» عاودت سؤاله، تحاول ألا يبدو الأمر استجوابًا، تقنية تعلمتها من عدة جلسات حضرتها لدى طبيبهما النفسي. فقد أخبرها د. ديفيد بأنها إن طبقت التقنية على نحو ملائم، ستساعد زوجها على الحديث عن الكابوس والتحرر منه.

واصل كلامه من باب العادة، دونما وعي حقيقي بسؤال زوجته: «أرسلونا في الدبابات إلى غزة، مرة أخرى... تلقينا الأوامر بإطلاق النار بقصد القتل. تلك كانت الأوامر، و... وفعلنا ذلك. أطلقنا النار تقريبًا على كل شيءٍ يتحرك: أطلقنا النار على صهاريج الماء، على كلبيْ

شارع، على بقرة، على عدد من الناس... وكان ثمة امرأة... برفقة طفلها... لم أعرف إن كانت سمينة أم حبلى، لم أستطِع التأكد من خلال المنظار الليلي. لا أعرف ما الذي جرى للطفل. ليتني أعرف الآن. ظل الطفل يبكي طوال الليل، وبقيت أسمع أوامر القائد في الخلفية، لكن صوت ذاك الطفل الصغير ظل يطاردني في كل مكان..».

تستشعر زوجها ينوس بين الحلم والواقع، فضغطت على يديه في محاولة لإعادته إلى وعيه، وحاولت أن تذكِّره، لعلَّه يهدأ، «لا بأس حبيبي، كنت تؤدي واجبك تجاه وطنك، وواجبك أن تتبع الأوامر». لكن ما كان في وسعه الإصغاء إليها، ولا رؤيتها، ولا الإحساس بيديها تلمسان يديه.

«رائحة البارود، خوار البقرة، نباح الكلب، الدم على يديَّ، نشيج المرأة، صرخات ذاك الطفل، صرخات ذاك الطفل، صرخات ذاك الطفل»، ما انفك يعيدها ويكررها. «بعض الرفاق راح يلتقط الصور والآخر يكتب على الجدران، بِن وليفي يرقصان، يأخذان تذكارات من كل بيتٍ اقتحمناه. كثير من الناس في حلمي حقيقيون، وأنا مَن قتلهم». لحظة صمت، كان يختنق، صدره يحترق، كما لو أنَّ يدًا على وشك اقتلاع قلبه.

عمدًا وبمنتهى الحنان، مررت تاليا أصابعها عبر شعره الأشقر وحاولت النظر إلى عينيه الزرقاوين. رأت الألم فيهما، ورأت الرعب. من الواضح أنَّ الحديث عن الكابوس لا يؤتي نتيجة، وفكرت في التخلي عن نصيحة د. ديفيد.

«سرنا نحو البيت»، واصل عزرا استرساله. «كان البيت مظلمًا، مظلمًا بحق. أخبرونا بأنَّ البيت يأوي إرهابيين. هو قال إنَّ البيت يأوي إرهابيين. الجنرال قال إنَّ البيت يأوي إرهابيين، أنا سمعته يقولها بمنتهى الوضوح».

«حبيبي، أنا متأكدة أنَّ الأمر ليس بهذا السوء، استرخِ..».

«دخلتُ البيت، كنت عاجزًا تمامًا عن الرؤية. وميض الكشافات الساطع. لم يكن ثمة كهرباء. كان المكان مظلمًا، وأطلقنا النار على الجميع. ثم عادت الكهرباء... وحين عادت الكهرباء... حين عادت الأضواء... رأيت الجنرال ميتًا. بن وليفي ميتان. كل رفاقي أموات. طفلة صغيرة... تنزف. أرنبُ زيفا. دماء. صغيرتنا زيفا... كانت... كانت ميتة. حملتها بين ذراعيَّ، لكنها كانت ميتة. قتلتها ببندقيتي...».

سألتني طفلتي زيفا «بابا، لم أرتكب خطأً، لماذا قتلتني؟»، وأوقعتْ أرنبها على الأرض.

محمد سليمان

البقجتان

مع بزوغ الفجر، امرأةٌ سمراء ريّانة في بواكير الأربعينات من عمرها، اسمها سلمى، كانت تحزم بقجتين من طعام ناجي المفضل وسجائره. حين انتهت من توضيب كل شيء، بدلت ملابسها واستعدت. مشاعر متضاربة شغلتها. لم تدرِ أيجدر بها أن تكون جذلة كما تشعر اللحظة، أم موهنة ومغتمة كما تشعر بين الحين والآخر. ساعات فحسب تفصل بينها وبين رؤية ابنها للمرة الأولى خلال ثلاث سنوات منذ اعتقاله في محاولة فاشلة للتسلل عبر الحدود. وخلال تلك السنوات الثلاث، اعتادت سلمى الجلوس حيث قبَّلها ولدها قبلة الوداع، تنتحب وتشم رائحة كل رسالة من رسائله إليها، تلوم نفسها باكية لتركه يرحل، وكأنَّ كان بيدها فعل شيءٍ لإيقافه عن مسعاه. مع الأيام، ازداد شحوبها مع حرقة لوعتها على ابنها المفقود، وما انفكَّت تبكي عليه بمرارة حتى جفَّ الدمع من عينيها. دقت الساعة الخامسة صباحًا، وحملت سلمى البقجتين وغادرت البيت. ابنها، الذي لم يخضع بعد للمحاكمة، كان في سجن نفحة الصحراوي داخل إسرائيل.

ترجَّلت سلمى من السيارة وهي تقبض بشدة على كل بقجة

في يديها، الهواجس القلقة تحوم في رأسها. انتابها إحساسٌ بالانهيار في تلك اللحظة، لكن لم يتبقَّ سوى حاجزٍ واحد قبل نيل التصريح بالدخول إلى إسرائيل. بعد خضوع بقجتيها المرتبتين للتفتيش وبعثرة أغراضها، اضطرت إلى إعادة ضبهما بسرعة واجتياز الكاشف المعدني. حين عبرت الكاشف المعدني رنَّ طنين، وتجمَّد الدم في عروقها. ضابط أشقر نَمِش يرتدي قبعة طلب منها التأكد إن كانت تحمل قطعًا معدنية أو نقودًا معها. تفحصت سلمى نفسها مليًّا لكن فشلت في العثور على أي وجود لمعدن معها. بابتسامة متكلّفة أمرها الضابط بالمرور عبر الكاشف المعدني مرةً أخرى، ومع عودتها إلى الكاشف شعرت سلمى بقلبها يخفق بشدة، وكانت موقنة أنَّ صوت خفقها يصل إلى مسامع الضابط. أخذت خطوة تجاه الكاشف المعدني وحاولت المشي بثبات عبره، «ززززززز»، الكاشف طنَّ مجددًا. ضابطتان نحيلتان سارتا نحوها على مهل، وفجأة خطر لها: حزام ساعتها هو السبب وراء كل هذه الجلبة. «خلصنا»، قالت لنفسها، تشعر بالغباء والسعادة في الآن نفسه لاجتيازها الكاشف أخيرًا دون طنين. سلمى، وهي تلعن الاحتلال على جعلها تبدو غبية وحمقاء، رأت صورة ابنها ناجي تدنو منها أقرب وأقرب.

***

مضت ثلاث سنوات ونصف منذ توفي أبو ناجي بسرطان البروستاتا، وأُجبِرت سلمى على التعايش مع الحياة اليومية لعائلة

بائسة، هي وابنها ناجي. فناجي صار رب البيت قبل أوانه، والمعيل الوحيد لعائلته.

ناجي كان طويلًا ونحيلًا، شابًّا يافعًا في بواكير العشرينات من عمره. وفي بداية حياته، وجد نفسه يعاني لكي يؤمِّن لنفسه ولأمه لقمة العيش. كان ينهض باكرًا كل يوم، يحمل الشطائر التي أعدتها له أمه، ويعود في وقتٍ متأخر من المساء مع مالٍ قليل. العمل الجديد الذي حصل عليه ناجي في التهريب عبر الأنفاق كان كافيًا لتأمين طعامهما، لإبقائهما على قيد الحياة يومًا أو يومين، لكن على الأغلب كان سيجلب الموت إليهما.

انتاب سلمى الارتباك على مرأى ابنها ناجي يتناول معها وجبة العشاء المتواضعة شارد الذهن. ظلت تحدق إلى وجهه المتجهم وهي تعيد صبَّ الشاي في كأسه، عيناه تنظران شزرًا إلى الفطيرة بين يديه، فكه السفلي يتحرك ببلادة تماثل البلادة التي لاحظتها على بقية جسده.

لكي تكسر الصمت، سألته سلمى، مدركة تمامًا للجواب: «كيف شغلك اليوم يمّه؟ تعَّبك؟» غير أنَّ ناجي بدا غير مكترث لسؤال أمه، فقد حجَّر عينيه على نتف الميرمية المتناثرة، الطافية على سطح كأس الشاي الساخن. مرَّ وقتٌ قبل أن يدرك نظرات أمه العصبية تجاهه من لحظ عينيها الدامعتين.

«إيش مالك؟» سألته مرةً أخرى.

«مفش إشي»، كذب عليها.

ردَّت بحدة وحزم: «متكدبش عليّ. من وقت رجعت عالدار وحالتك مش عاجبتني. شو صار يمّه؟ احكي لي». أخيرًا أخبرها ناجي عمَّا وقع بينه وبين رئيسه أبو شام داخل الحجرة العفنة قرب النفق حيث يعمل.

«بعرف إنه الوضع خطير»، قال ناجي.

أمه ما نبست بكلمة.

«رح أوخذ أربعة آلاف شيكل من شغل يومين بس، ومن هالمصاري أقدر أفتح مشروع صغير وأتحرر». وفي نبرةٍ مقنعة أردف قائلًا: «رح أتسلل، أجيب الطرد، وأرجع».

أخيرًا سألته سلمى: «انت تعرف إيش داخل هالطرد؟»

«صدقيني يمّه ما بعرف».

استيقظ ناجي باكرًا في ذاك الصباح، كانت سلمى تعد له الفطور حين دخل عليها وقد ارتدى ملابسه استعدادًا للذهاب. بدأت تغني في صوتٍ خفيض، غناؤها يتقطَّع بنحيبٍ يوجع القلب. وبينما كانا يتناولان الفطور، تنحنح ناجي ورفع عينيه ناظرًا إلى عيني أمه، قائلًا في نبرةٍ مكروبة: «متزعليش مني يمّه، أنا أعمل هالشي كرمالي وكرمالك». سلمى، التي لم تمد يدها لتناول لقمة، رمقته بنظرة غاضبة بيد أنها حنونة، ثم خفضت وجهها والتزمت الصمت. نهض ناجي وسار نحو أمه: «رح أرجع بعد يومين، أوعدك». كان يقبض

على يدي أمه حين رفعت وجهها ثانيةً. استشعرت سلمى أنها تعيش الآن لحظة وداع، لحظة مصيرٍ محتوم. انحنى ناجي وقبَّل ظاهر يديها، عجزت سلمى عن كبح دموعها وشدَّت قبضتها على يدي ابنها قبل أن تتخلى عنهما، قبل أن تتخلى عنه.

***

أخيرًا وصلت سلمى إلى السجن. دخلت قاعةً كبيرة لم يسبق أن رأت مثيلًا لها، وسرعان ما أدركت أنها ستخضع لتفتيشٍ جديد. المكان كان صاخبًا، أصواتٌ عديدة تصلها من هنا وهناك، كأنما العشرات مشتبكون في شجار في اللحظة نفسها. صورة ابنها بدأت تتلاشى من ذهنها حين وجدت نفسها في صفٍّ من النساء الكهلات ينتظرن تسليم أوراقهن.

بعد مضي وقت بدا دهرًا، وجدت سلمى نفسها وجهًا لوجه مع كاتبة استقبال شقراء، نحيلة وقصيرة، غارقة في كرسيها. ظلت سلمى واقفة دونما حركة إلى أن جلست الكاتبة الشقراء إلى مكتب ضخم صقيل وراحت تتكلم بالاستعجال نفسه الذي تطبع به. رفعت عينيها ونظرت إلى سلمى، ثم مدَّت ذراعها وأومأت بأصابعها الأربع حتى تسلمها الأوراق. سلمتها سلمى الأوراق وتفحصت أصابع الموظفة وهي تطبع على لوحة المفاتيح برقَّة. دفع الشرطي بأوراقها إليها وتحركت سلمى باستعجال لكي تتخلص من وكز المرأة المزعج خلفها.

لم يكن لدى سلمى أي فكرة عمَّا ينبغي لها فعله الآن، ظلَّت تحوم

في المكان حاملةً البقجتين في يديها والأوراق ملتفة أسفل ذراعها. خطر لها أن تستفهم من أحد أفراد الشرطة عند إحدى البوابات، بيد أنها لمحت المرأة التي كانت تكزها تَعْرج خارج القاعة وتجرُّ معها ثلاث شنط كبيرة، فهرعت سلمى للحاق بها.

«أهلين حجّة»، قالت سلمى، تبذل أقصى جهدها لكي تواكب خطاها.

«أهلين»، أجابتها المرأة المسنة بصوتٍ أجش.

كادت سلمى تسألها عن الوجهة المفترض الذهاب إليها حين سمعت صوت المرأة المتوترة يكلمها مرة أخرى: «جايّة تزوري ابنك؟».

«آ»، أجابتها سلمى، مجهدة من محاولتها المشي جانبها، «وانتي؟».

«أحفادي، اثنين»، أجابتها المرأة المسنة على عجل.

«بدنا نشوفهم هلقيت، صح؟»

لكن المرأة المسنة لم تجبها، إذ توقفت لترتاح هنيهة من ثقل الشنط الثلاث قبل معاودتها المشي. سلمى، واقفة تلتقط أنفاسها، ظلت تنتظر إجابتها. بعدها، أجابتها المرأة المسنة: «بعد، في الأول لازم نجتاز التفتيش الأخير». وما إن سمعت كلمة «تفتيش» حتى خاب أملها. ما عادت قادرة على احتمال لوعة الانتظار، أمواجٌ من التوق والاشتياق تغمرها أكثر وأكثر مع كل خطوة واسعة تأخذها خلف المرأة المسنة.

ومرة أخرى، وصلها صوت المرأة القلق: «بعرف انك قلقانة من التفتيش، بس هيك الوضع، وما بإيدناش إشي نعمله، إذا بدنا نشوف أولادنا لازم منفكِّر بالحرج إللي رح نعانيه».

للحظة ظنَّت سلمى أن المرأة المسنة لم تكن تخاطبها، وحين تأكدت أنها المقصودة بالحديث، حاولت تفسير ما قصدته المرأة «بالحرج»، وأجابتها، «آه، آسفة، بس مش فاهمة قصدك».

«التفتيش، عم أحكي عن التفتيش».

سلمى ارتبكت، هل كان عليها الإحساس بالإحراج لدى كل حاجز تفتيش عبرته اليوم؟ فسألت المرأة المسنة وهي فعلًا محرجة من سؤالها: «بس وين المشكلة في التفتيش؟».

فأجابتها المرأة المسنة مصعوقة: «إيش؟ ما بتعرفي؟».

«أعرف إيش؟» ردَّت سلمى مشدوهة، قلبها يخفق ويرف. وبنظرة مشفقة، أخبرت المرأة المسنة سلمى أنَّ في التفتيش الأخير، قبل أن يتسنى لها رؤية ابنها، عليها أن تخضع للتفتيش العاري للتأكد أنها لا تخبئ متفجرات في تجاويف جسدها.

بعد ثلاث سنوات، في عمر الخامسة والأربعين، بدت سلمى أشد شحوبًا وأوهن من ذي قبل. متمددة على فراشها في بقجة من الشالات، حاولت جاهدة استحضار صورة ابنها المتلاشية منذ رأته آخر مرة قبل ست سنوات، العرق يمتزج بقطرات قليلة من دمعها وينساب على خديها. وبينما راحت تعيد في ذهنها تمثيل اللحظات

الأخيرة التي جمعتها بابنها، استحضرت وعده لها بأنه سيعود. دمعةٌ أخرى انسابت على خدها. شعرت الأم المسكينة بقلبها يهوي مرة أخرى حين سمعت الصدى العالي في ذهنها، الصوت الذي ما انفك يخترق أذنيها على مر السنوات الثلاث الأخيرة، الصوت الذي حمل لها خبر موت ابنها.

الدمعة الأخيرة علقت عند شفتيها، كل شفةٍ التفَّت على نفسها، والدمعة هوت.

رفعت العرعير

على قطرة مطر

لا إجماع بين العلماء، حتى الآن، إن كانت قطرات المطر تنشأ في السماء على هيئة بلورات ثلجية أم لا، وما همَّني، فأنا لستُ بعالم.

أبو سامي مزارعٌ فلسطيني من الضفة الغربية. وفي ذاك اليوم الذي تذروه الرياح، كان منشغلًا باقتلاع الأعشاب الضارة من حقله، أو ما تبقى من حقله. ندم على تجاهله الإصغاء إلى توسلات زوجته بألا يخرج، لكن دومًا ما تعامل بشك مع ما تدعوه «عطيّة من الله»، أي قدرتها على استشعار المطر. هو أصلًا لم يسبق أن أصغى إليها في حياته، وإن فعل، فلم يلقِ بالًا لتأويلاتها واستطرادها في شرح أساليبها المختلفة ومهارتها في التنبؤ بالحالة المطرية: هل سيهطل المطر أم لا، وكم سيستغرق هطوله، ومدى غزارته. رغم سماعه التفسير نفسه من زوجته مئات المرات، ليس في وسعه إعادة سرده إلا في صورة مقتطفات: تلمس أم سامي الأرض، تقبض على حفنة صغيرة من الرمل، تهمس إليه، ثم تصغي. وفي حال فشل التواصل الأولي، تشم الحفنة. لكنها كانت تتكلم في صور مجازية، أو على الأقل هذا ما ظنه أبو سامي.

ليس مسموحًا لأبو سامي، وآلاف المزارعين الفلسطينيين

مثله، بنصب خيمة أو بناء حجرة في الجانب الجنوبي من الجدار، مخافة استغلال تلك الخيم والحجرات في حفر الأنفاق إلى الجانب الإسرائيلي. على الأقل، أبو سامي كان أكثر حظًّا من رفاقه المزارعين؛ هو خسر فحسب ثلثي أرضه. عددٌ لا يحصى من أقاربه وأصدقائه ابتلع الجدار الإسرائيلي أراضيهم بالكامل وهو يشق طريقه عبر الضفة الغربية.

وفي هذه اللحظة تحديدًا، اعتبر أبو سامي الجدار مفيدًا، فالعيش تحت الاحتلال علّمه رؤية الأمل المضيء في أحلك الأنفاق. (ليس أنه يحفر هكذا أنفاق لكي يتسلل إلى الجانب الإسرائيلي.) ركض نحو الجدار، التصق بالامتداد الأسمنتي الطويل واحتمى به من المطر الغزير والريح العاصفة، أو على الأقل شبه احتمى.

على الجانب الآخر من الجدار وقف مزارعٌ إسرائيلي تنبأت زوجته هو الآخر بهطول المطر (وحذرته أيضًا من تسلل الفلسطينيين عبر السياج الأمني.) أراد الجري إلى الحجرة الأسمنتية التي بناها قبل أسبوعين، لكن الجدار كان أقرب فهرع إليه. ولو أصغى كلٌّ من أبو سامي والمزارع الإسرائيلي جيدًا، لسمعا قلبيهما يخفقان على الجدار. ولربما سمعا، لكن حسبا الصوتَ هزيمَ رعدٍ بعيد.

قطرة مطر حقيقية، قطرة صغيرة للغاية، كادت تهوي على أبو سامي الخاسر لولا هبَّة ريحٍ مفاجئة دفعتها تجاه الجانب الآخر من الجدار. القطرة هوت على خوذة المزارع الإسرائيلي، وما شعر بها البتة.

بيد أنَّ قطرات أخرى راحت تتسابق على عجل نحو أبو سامي، مفضلةً رأسه المكشوف.

لأبو سامي، بدا محتملًا جدًّا أنَّ قطرات المطر تلك تنشأ في السماء على صورة بلورات ثلجية. لكن من سيكترث حقًّا لآراء أبو سامي؟ فأبو سامي فلسطيني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جيهان الفرّا

رجاءً صوِّب لتقتل

«يا الله! ألوم إسرائيل والا ألوم حالي إني مش قادرة أطبع الواجب»، تذمرت ليلى مكروبةً. «والا مفروض ألوم عمّي إللي نسي يجيب ديزل لمولد الكهربا!» تسارعت خطاها وهي تذرع الغرفة جيئة وذهابًا، هواجس القلق تدبُّ في عقلها. «أنا الهبلة إللي وثقت في جدول الكهربا! كيف متوقعتش هالانقطاع؟ ما أنا بعرف منيح إنه يومين كهربا بدون انقطاع مستحيل تكون طيبة نادرة منهم، يا الله! كيف فاتني إنه إسرائيل رح تدفِّعني الثمن غالي!» إحساسٌ من الإذعان للأمر الواقع والنذير المسبق سيطر على أفكارها، وحكمت على نفسها بأنَّ فشلها هذا مصيرٌ محتوم من صنع يديها. «مش قادرة أصدق كيف استنيت لليلة الامتحان الفصلي حتى أطبع شغلي وما حطتش في بالي إنه الكهربا احتمال تنقطع وتظل مقطوعة، مع إنها مجدولة لترجع اليوم الساعة ثلاث العصر!».

كانت جالسة في الظلمة، أختها الصغرى سلمى، ذات الخمس سنوات، مستلقية على الفرشة إلى جانبها، وسارة التي احتفلت فورًا بعيد ميلادها الثاني عشر استغرقت بسرعة في النوم. وبينما غضبها يتفاقم على ضجيج مولد الجيران المزعج، بالكاد قادرة على سماع

أفكارها، راحت تتصفح واجبها على اللابتوب، عيناها معظم الوقت على مؤشر البطارية المنخفض القريب من حافة الصفر. وها هو ذا، وميض X الأحمر يفرض نفسه.

بخطًى متوترة قطعت ليلى غرفة النوم نحو النافذة واتكأت على حافتها، كتَّفت ساعديها وراحت تحدق إلى الأفق. السماء امتزجت بالأرض وشكَّلت معها، على نحوٍ فاتن وغريب، سطحًا أسود موشًّى بصف من النقاط البيضاء، أشبه بنقشة البولكا التي تحبها ليلى. لطالما أدهشها مرأى تلك المباني على الجانب الآخر من الحدود في المدى البعيد، حيث النوافذ دومًا مضاءة، وكأنها امتدادٌ للسماء المرصعة بالنجوم.

تنهيدةٌ فارقت شفتيها لدى استدارتها وسيرها نحو طاولة الزينة حيث تحتفظ بالشموع في أحد جواريرها. وضعت شمعةً على الطاولة، وتناولت الولاعة من جيبها. الشعلة الرقيقة انبثقت، ومرَّرتها من الولاعة إلى الفتيلة، ووجدت، على نحوٍ غامض، الراحة والرضا في مرأى جمال الشمعة المحترق، إحساسٌ لم تكبر عليه يومًا. كان في وسعها الجلوس لساعات ترقب توهّج الشعلة إلى أن تخبو وتنطفئ، وأحيانًا تلهو بالشمع الذائب بأطراف أناملها.

انعكاسٌ بدأ يلوح على المرآة خلف الشمعة، جبينٌ علَّمت عليه ندبة، عينان غائرتان بنيتان، أنف، شفتان شبه منطبقتين. ابتسمت ولمعت عيناها، وشاهدت انعكاسها يبتسم لها الابتسامة نفسها. هازئةً، رفعت سبابتها في وجه انعكاسها وقالت: «ستسقطين في

الامتحان غدًا، ليلى»، بيد أنَّ انعكاسها لم يرد عليها. ابتسامتها انطفأت، تنهيدةٌ أخرى فارقت شفتيها الجافتين اللتين سرعان ما ترطبتا بدمعةٍ انسابت على وجهها. فورًا مسحتها بيدها وكأنَّ البكاء خطيئة. عليها ألا تبكي، فهي تكره البكاء. لكن كيف لها ألا تبكي؟ فقد مضت سنتان منذ الحرب، وهي... هي صمدت وظلت قوية طوال ذاك الوقت.

ذكرى والدها لا تنفك تدور وتدور في ذهنها مثل عجلة أبدية، مما جعلها تتساءل إن كان ينبغي لها أن تتخلى عن دراستها في كلية الطب أساسًا. ففكرة أنها ملزمة بفعل ما اضطر أولاء الأطباء إلى فعله بأبيها تطاردها: «رح يلعنوني الناس ويلوموني وأنا واقفة عاجزة قدامهم، ما في بإيدي إشي أعمله، ومع هيك أنا كمان المسؤولة عن إنقاذ حياتهم!» كذا تفكَّرت بينها وبين نفسها، تفرك عينيها بأصابعها الباردة، «يمكن لازم أترك كلية الطب، ما بعرفش إذا أنا أصلًا قدها، إذا أنا قوية كفاية لأقدر عليها؟ سنتين مروا علينا من يومها، سنتين ملعونتين».

***

على غير العادة، كانت ليلةً هادئة. أخيرًا استغرقت في النوم مع انبلاج الفجر، محشورة مع أختيها على الأرض في غرفة المعيشة المعتمة، متدثرات بعدد من الملاءات، ولا صوت سوى الصمت يعم المكان. كنَّ قد حاولن بيأس تزجية الوقت الذي ما عدن يدركن ساعاته، يحاولن الفرار من الواقع المجهول وفظاعة الأسبوعين

الماضيين من الأيام المرعبة والليالي المروِّعة، خمسة عشر يومًا من الخوف الرهيب أن تقرِّر إحدى طائرات الأباتشي التي لا تكف عن الطيران أعلى بيتهن، أو إحدى دبابات الميركافا الوحشية المتمركزة خارجًا والمتعطشة إلى الدماء، أن تقصف بيتهن بدل بيت الجيران. خمس عشرة ليلة من الانقطاع شبه الكامل للكهرباء وخطوط الهاتف والطعام. أبوها، الخدِر من هول تهديد الرصاص الذي تسبب في أكثر من ثقب في البيت، الجامد من هول عجزه عن حماية زوجته الحبيبة وأطفاله، كان يتكئ على جدار غرفة المعيشة ويداه في جيبيه، عيناه الرماديتان ترقبان تنفُّس بناته البطيء بينما يخلدن إلى النوم. نظر إلى زوجته المضطجعة إلى جانبهن، خائفة وتحاول جاهدة طمأنة ابنتها الصغرى بحكاية أطفال، عاجزة مثله تمامًا عن فعل أي شيء لإيقاف أولاء الجنود عن مضايقتهن متى وكيفما يحلو لهم. تلك كانت الليلة، وتلك كانت اللحظة، حين اقتحم أربعة جنود إسرائيليين البيت، رفسوا الباب بجزمهم العسكرية حاملين معهم بنادق (M16).

فزعت أمها من هول الصدمة، بإحدى يديها تشبثت بسلمى ذات الثلاث سنوات التي بدأت تصيح، وبيدها الأخرى غطت فمها لكي تكتم صوتها، قلبها تخبَّط، الخوف كبت كل الكلام في حنجرتها وحبس كل الدموع في عينيها. لم يعرف والد ليلى إن كان من الحكمة الاقتراب خطوة من زوجته الحبيبة وأطفاله، والمخاطرة بأي حركة مع وجود مخلوقات لا يمكن التنبؤ بردة فعلها. لربما من

الآمن البقاء ساكنًا. كل ما كان في وسعه فعله الوقوف في مكانه والدعاء بأن يتركهم الجنود في حال سبيلهم. ليلى كانت تدرك أنها حماقة كبرى النظر إلى عيني أي جندي منهم، لكن قلبها كان يفور غضبًا يفوق الاحتمال. أخذت تحملق إلى عيني جندي منهم إلى أن ثبَّت عينيه عليها وصوَّب سلاحه تجاهها. هي، دون أن يطرف لها جفن، لم تشح بوجهها عنه، وهو، بابتسامة تمساحٍ متوحش، أزاح سلاحه عنها وصوَّبه تجاه أبيها. ثبَّت سلاحه عليه لعدة ثوانٍ كانت الأطول والأشد عذابًا في تاريخ العائلة. لم يطلق عليه الرصاص، ليس بعد. بل اقترب منه إلى أن تقلصت المسافة بينهما إلى عشرين سنتيمترًا وقبض على شعر أبو ليلى من الخلف، يغرز أظافره الطويلة في فروة رأسه، وأجبره على الركوع عند قدميه.

في هذه الأثناء، كان بقية الجنود يحومون في الغرفة ويهذرون بالعبرية، أحدهم ينتزع الصور عن الجدران ويعيث الفوضى في المكان، آخر يعبث بالكتب المدرسية ودفاتر الطفلتين. لا شيء بيده إيقافهم عن ترويع الجميع، لا بكاء ليلى وأمها ولا حتى نواح الطفلتين الصغيرتين. ما كان في وسع أبيها رفع عينيه؛ لا خوفًا على حياته بل خوفًا على حياة عائلته. بدأ الجندي يتحدث معه بالعبرية. كان والدها يفهم العبرية إلى حد ما لكن لا يستطيع التكلم بها، فلم يجب. راح الجندي يرفسه على ركبتيه المثنيتين، وبعقب بندقيته يضربه المرة تلو الأخرى في بطنه. الألم كان مهولًا، وتحمَّله والدها بصمت حفاظًا على عائلته. الضربة الأخيرة على صدره كانت

قاضية وقع على إثرها أبو ليلى فورًا يتلوى ويصيح من الألم. الكل وقف يرقب مرعوبًا فوهات السلاح تصوَّب تجاه رأس كلٍّ منهم، وما عادت ليلى تعرف إن كان اتخاذ أي خطوة الآن سيزيد الوضع السيئ سوءًا. هواء غرفة المعيشة زَنِخ بأصداء قهقهات الجنود، وحين توجهوا نحو الباب وقبل مغادرتهم البيت، أراد جنديٌّ منهم إنهاء مهمته على أكمل وجه. صاح «عرب مخابيل»(*)، بصق على الأرض وصوَّب سلاحه إلى الأب الواقع أرضًا... بانغ! أطلق رصاصة.

أم ليلى أطلقت صرختها المكبوتة وزحفت مع ليلى وسارة الصغيرة نحو أبو ليلى الفاقد وعيه. في غمرة العويل والصراخ والحدث المروّع، نسيت أم ليلى ابنتها سلمى المستلقية على الفرشة، وفي جزء من الثانية، سمعن دوي انفجار مدمر هزَّهن حتى النخاع. تلبدت الغرفة بسحب الدخان الأسود الذي هبَّ عليهم من الشبابيك المهشَّمة، والصغيرة سلمى أصيبت.

ليلى وأم ليلى والصغيرة سارة أجبرن على التصرف كمسعفين. وَثَبت ليلى صوب سلمى والتقطتها بين يديها لكي تضعها في حجر أمها، ساقا سلمى تتدليان، تتأرجحان مما تبقى من أنسجة وعضلات وأوتار. الدم يفور منها في منظرٍ لا تحتمله أبشع الكوابيس المرعبة. احتارت أم ليلى إن كان عليها أن تمسك بابنتها أم زوجها.

(*) مخابيل/Mekhabel: مخابيل تعني بالعبرية «مخرّب»، وهو وصف لكل فلسطيني يمارس أي عمل ضد إسرائيل.

صفارات الإسعاف أصبحت على مد السمع، وبلا أي تردد هرعت ليلى تجاه الباب. أمها تصيح عليها، نحيبها يعلو، عاجزة عن التقاط أنفاسها أو حجب ألمها «وين رايحة ليلى ضلّك هووون! ليلى... ليلى.. حبيبتي ما تعمليش فيّ هيك، خلاص بيكفّي بيكفّي ارجعي، مشان الله ارجعي..». صاحت أم ليلى وصاحت، وسارة شاركت أمها في نحيبها.

ليلى، عازمةً على إحضار المساعدة بأسرع وقت، وقفت عند ما تبقى من الباب، تمسح بيد دموعها وبالأخرى تضغط على قلبها المخلوع، ما كانت لتسمح لركبتيها أن تهنا. حاولت اختلاس نظرة إلى الخارج، كانت الأجواء باردة ومظلمة وماطرة. لحظت من بعيد ثلاث دبابات متوقفات، أشبه بأطياف أشباحٍ مروعة. كان في وسعها سماع صافرات سيارة الإسعاف لكن لم ترَ أثَرًا لها بعد. طائرة أباتشي تحلّق أعلى البيت أجبرت ليلى أن تجثو على ركبتيها، وسرعان ما رافقتها طائرات مسيّرة أحالت صوت الليل مرعبًا أكثر. كان على ليلى أن تلم شتات نفسها وتنهض لكي تنقذ والدها وأختها. ثلاث قنابل أخرى هزَّت الأرجاء، إحداها هوت على قطعة الأرض الصغيرة التي تعتاش منها عائلتها، فهزَّت الأرض وقذفت ليلى بوحشيّة إلى داخل بيتها حيث هوت من دون حراك، الدم ينساب من أنفها وأذنيها وعلى وجهها ممتزجًا بدموعها. الخدر تمكَّن من جسدها الهش بأسره، ما شعرت بشيء وما سمعت شيئًا.

***

فتحت ليلى عينيها الغبشتين ووجدت نفسها في غرفة مكتظة بخمسة أسرّة حيث يستلقي آخرون، كلٌّ محاطٌ بعائلته، وقلة من الأطباء يهرعون داخلًا وخارجًا. تلفتت حولها علَّها تجد أحدًا تعرفه، ولمحت سارة نائمة آخر السرير، متشبثة بملاءة المستشفى مثلما تتشبث بدبدوبها حين تخلد إلى النوم. شعرت ليلى بشيء على وجهها، ضمادة، وحاولت تذكر ما جرى. راحت تدمدم، تجبر الكلمات على الخروج من فمها: «بابا... سلمى...». استيقظت سارة على صوت كلمات ليلى وتململ ساقيها، فرفعت رأسها وقالت: «متخافيش ماما معهم، هم مناح». وعادت ليلى للنوم.

تركت سارة يد ليلى ومضت خارج الغرفة، الرواق مكتظٌّ بأناس مستلقين هنا وهناك، بالكاد ثمة حيزٌ لخطوها. البعض نائمٌ على الأرض، وبعضٌ يبكي، وبعضٌ يئن. منظرٌ فاق قدرتها على الاستيعاب. وجدت حيزًا صغيرًا لها في زاوية قرب باب وانكمشت على نفسها هناك، ساقاها مشدودتان إلى صدرها وجبينها راقدٌ على ركبتيها. فقد بكت بما فيه الكفاية وجفَّ الدمع في عينيها، وما عادت تحتمل البقاء مع عائلتها. فما حدث أثقل مما يمكن لقلبها الصغير أن يحتمل، وما كانت لتعرف أصلًا تفسير وقوعه. كل ما تعرفه أنَّ هذا الحدث يعني طائرات الأباتشي، والإف ١٦، والدبابات، والرصاص، والجنود، والدم.

أبو ليلى وسلمى نجوا. سلمى أصغر من أن تدرك أنها قد لا تمشي من جديد. أما أبو ليلى فقد مزقت الرصاصة كليته، وانكسر ضلعٌ من

ضلوعه إثر الضرب المتكرر بعقب البندقية. قطرات دهنية -جزيئات صغيرة جدًّا من الدهون من المنطقة حول الضلع المكسور- تسرَّبت إلى مجرى الدم وتدفقت من خلال قلبه إلى رئتيه. تلك القطرات حفَّزت الجهاز المناعي في الرئتين فامتلأتا بالسوائل وأعاقت قدرتهما على امتصاص الأكسجين، ما أدى إلى نزيفٍ رئوي.

بقيت العائلة في المستشفى ثلاثة أيام، بقي فيها أبو ليلى على جهاز التنفس الاصطناعي إلى أن استطاع الأطباء أخيرًا تدبّر استقرار وضعه. ما كان في وسعهم البقاء في المستشفى وقتًا أطول، فالاعتداء الإسرائيلي لا يزال على أشده، والمستشفى لا تنفك تستقبل مزيدًا ومزيدًا من الجثث والمصابين. والنقص الحاد في الطاقة الاستيعابية أجبر كثيرًا من المصابين على مغادرة المستشفى قبل استكمال العلاج، لكي يتركوا مكانًا للآخرين.

كان الراديو الوسيلة الوحيدة لدى العائلة لمعرفة ما يجري في شمال بيت حانون حيث عاشوا، وبعدما تبين أنَّ احتلال تلك المنطقة لا يزال جاريًا، ما عاد آمنًا لهم العودة. ليس أنَّ المستشفى حيث هم الآن في مأمن، فقد نال نصيبه من القصف، لكن كان نسبيًّا أكثر أمانًا من أي مكان آخر في قطاع غزة المحاصر. اتصلت أم ليلى بشقيقتها منى التي تعيش في وسط مدينة غزة لكي يبقوا معها، وما إن أنهت الاتصال، حتى توجهت إلى الطبيب بقلبٍ مثقَل وموجَع برفقة سارة الصغيرة المتشبثة بيدها، وأخبرته أنهم وجدوا مكانًا يستقرون فيه. أعطاها الدكتور عددًا من أكياس الجلوكوز وأرشدها هي وليلى إلى

كيفية استخدامها، كما حذرهما أيضًا من وقوع عدة تعقيدات قد تهدد حياة أبو ليلى. وأخبرهما بأنَّه سيحتاج إلى العودة لاستكمال علاجه في المستشفى متى استقرت الأمور، ولا أحد يعرف متى ستستقر.

تحت وابل القصف وترهيب الطائرات الإسرائيلية، تمكنت العائلة من الوصول إلى بيت منى. خمسة أيام من الألم والذعر والعذاب مضت، عقبها صباحٌ هادئ جدًّا أثار الذعر فيهم، ففي العادة الهدوء يعني قدوم الأسوأ. لكن هذه المرة كانت نهاية الاعتداء، القصف والقتل توقفا.

مع ذلك، في حياة ليلى وعائلتها، كانت المعاناة الأعظم على وشك أن تبدأ.

لدى عودة العائلة إلى البيت، وجدوا قطعة الأرض أُحيلَت إلى ركام، وحصاد العام كله هلك. ما كان من خيارٍ أمامهم سوى تدبر أمورهم بما لديهم وإصلاح ما يمكن إصلاحه. وعمومًا هذه لم تكن المرة الأولى التي تُقصَف فيها أرض أبو ليلى أو تُجرَف، لكن هذه المرة ما عاد البدء من جديد خيارًا أمام أبو ليلى. فقد تدمرت صحته، وبات يحتاج إلى عملية زراعة كلية في القاهرة لعدم إمكانية إجرائها في غزة، والنزيف الرئوي كذلك لا يمكن علاجه بكفاءة عالية لافتقار المستشفيات في غزة إلى المعدات الضرورية المطلوبة. كانت حالة أبو ليلى فعلًا خطرة، مع ذلك لم تصنَّف حالته بدرجة الخطورة التي يعانيها مئات المصابين غيره، وبالتالي لم يُسمَح له بالسفر خارج غزة لتلقي العلاج.

ليلى كانت مدركة أنَّ ألم أبيها ليس جسديًّا فحسب، كان يتألم من أجل العائلة؛ ففي الوقت الذي أصبحت فيه عائلته بأمس الحاجة إلى وجوده تحوَّل من معيل إلى عبء، وهكذا ظلَّ يرى نفسه. ليلى قضت وقتها ممزقة ما بين الجري بين المستشفيات لاستكمال أوراق أبيها، وبين الدراسة لامتحانات التوجيهي لنيل المنحة التي لطالما حلمت بها. وأم ليلى قضت وقتها ممزقة بين الاعتناء بزوجها وابنتها وبين إدارة المزرعة. سارة، الفتاة الضحوكة فيما مضى، علقت في صور الموت والدمار ومشاعر الخوف والألم والغضب والكراهية، ولم تتلقَّ علاجًا نفسيًّا. لكن، رغم كل ذلك، ظلت سارة تواصل الاعتناء بسلمى الصغيرة واللعب معها، وواظبت على النوم كل ليلة إلى جانب أبيها الذي باتت دموعه طقسه الليلي.

صحة أبو ليلى أخذت تتدهور يومًا بعد يوم. أربعة أشهر من الألم المبرح والأسى كانت قد مضت حين رفعت ليلى سماعة الهاتف وسمعت صوت الطبيب يخبرها بأنَّهم سيرسلون ملف أبيها، ومع نهاية الأسبوع سيعرفون إن كان سيحظى بفرصة السفر لإجراء الجراحة. كان أول خبر جيد تسمعه منذ زمن طويل. لم تصدق ليلى أذنيها، ولا حتى أمها صدقتها: «انتي متأكدة ليلى إنه هيك حكي الطبيب؟ متأكدة منيح؟ طب وإيمتى رح يبعثوا الملف؟ وإيمتى يوصلنا الرد؟» سألتها كل تلك الأسئلة ودموع البهجة تنساب رغمًا عنها على وجهها.

شقَّ عليهما الانتظار حتى نهاية الأسبوع. مرَّت عليهما تلك

الأيام الخمسة بطيئة جدًّا، قلباهما يخفقان على عجل دونما انقطاع، والخواطر حرمت عقليهما النوم. أخيرًا سيسافر لنيل العلاج، وأخيرًا سيعود إلى عمله وتناول طعامه واصطحابهن خارجًا والضحك معهن من جوف قلبه، ولن يقلق طوال الوقت من احتمال موته. أخيرًا سيتسنى لليلى الدراسة دونما قلق متواصل، ولن تضطر سارة إلى سماع أبيها يبكي بصمت أو سماع والديها يتحادثان عن الموت والاحتمالات المستقبلية، وستنال سلمى الصغيرة كل الرعاية والاهتمام من العائلة بأكملها.

أخيرًا حلَّ يوم الخميس، وفي السادسة صباحًا ليلى وأمها كانتا مستيقظتين. أعدتا الفطور للعائلة، بدلتا ملابسهما وفورًا توجهتا إلى المستشفى. لم تستطيعا انتظار المكالمة في البيت، أرادتا الذهاب ورؤية ما يجري بنفسيهما.

وصلتا مكتب الاستقبال وطلبتا رؤية الدكتور محمود. لم يصل بعد، وساعتا الانتظار بدتا دهرًا أطول من الأيام الخمسة. لحظة وصول الدكتور هبَّت أم ليلى من مقعدها ونادت عليه في لهفة «دكتور محمود!» وأجابها دكتور محمود وهو يعدِّل نظارته ويبتلع كلماته «آ... أم ليلى..».

تعابيره وكلماته ما كانت أبدًا مطمئنة، ولدى رؤيتهما وجهه رعدةٌ سرت في جسديْ ليلى وأمها. غصةٌ مؤلمة صامتة قرصت قلبيهما؛ هل يسألانه عن الملف؟ أو تراهما لا تريدان سماع خبر ينغص عليهما ويحطم آمالهما الجميلة التي عاشاها في الأيام الخمسة الماضية، خبر

قد يدمر شذرة الأمل الأخيرة لديهما؟ كل تعبيرٍ في وجهه كان يقول: «متسألونيش عن الملف، متسألونيش عن العلاج!» لم تسألاه. لا ليلى ولا أمها تجرأتا على النبس بكلمة، لكن دكتور محمود قطع الصمت وقال: «شوفي أم ليلى...جوزك حالته خطرة كثير، إذا كنتِ مكاني تبعثي ملفه والا ملف طفل عم يموت وعنده فرصة أحسن يعيش ويكمل حياته؟».

الدموع القليلة التي تحاول جاهدةً الإفلات كبحت أي كلمة أو سؤال لدى أم ليلى. ومضى الدكتور يقول: «وصلنا رضيع هذا الأسبوع يعاني من مرض حاد في الدم، والطفل ممكن يموت قبل ما يتعلم المشي، وبسبب الظروف ما عندنا مجال إلا نبعث مريض واحد».

شهقت أم ليلى مذهولةً من صدمة الخبر وعواقبه، بينما صرخت ليلى بانفعال حاد: «ومين إنت لتقرر مين يعيش ومين يموت؟!» رغم صياحها، واصل دكتور محمود كلامه بثبات: «أنا آسف، ما في بإيدنا إشي نعمله. رح نعمل كل إللي علينا، وإذا صارت أي تطورات جديدة رح أبلغكم بنفسي. آسف لكن لازم أروح، عندي مريض ينتظرني. ديري بالك على حالك أم ليلى وعلى البنات وعلى جوزك. الله معكم».

كلُّ شيء توقف، وما تبقى سوى الانتظار، انتظار الأسوأ هذه المرة. كل شيء بدا تافهًا عديم القيمة، الوقت تافه والألم تافه والأمل تافه والخوف تافه، وحياة الناس أتفهها على الإطلاق.

أرادت ليلى الصراخ من جوف قلبها، لكنها عجزت. يكفي ما تعانيه أمها اللحظة، والآن بات على ليلى أن تتحلى هي بالقوة من أجلها. امرأةٌ واحدة تعوي وتنوح في ردهة الاستقبال منهارة الأعصاب أكثر من كافٍ. ما عساهما تقولان الآن لأبو ليلى؟ ما الذي ستخبران به الرجل الذي قبل وقتٍ قصير كان يعد الخطط لما سيفعل مع عائلته متى استعاد صحته؟ لا شيء. ببساطة لن تخبراه بشيء.

بعدها بثلاثة أشهر، مات أبو ليلى.

رغم الأسى العارم، حاولت ليلى إقناع نفسها وعائلتها أنَّ مع كلِّ ما جرى تظل العائلة «محظوظة» مقارنةً بغيرها. العائلة محظوظة لبقاء جدران البيت قائمة فما اضطررن إلى العيش في خيمة وتحمُّل وحشية البرد القارس ولهيب الصيف. سلمى التي كانت لا تزال طفلة ترتدي الحفاض حين أصابتها شظية قذيفة إسرائيلية كانت محظوظة لبقاء دماغها سالمًا في مكانه، ومحظوظة لحصولها على العلاج المطلوب في غزة، وأنَّ سقف البيت لم ينهر على جسدها وبالتالي لم تُجبَر العائلة على انتشال جثتها المتقطعة من تحت الأنقاض. أم ليلى محظوظة أنها لا تزال تتمتع بصحة جيدة وقادرة على صون عائلتها وإعالتهن. سارة كانت محظوظة أنها لم تتعرض لإصابة جسدية تزيد على اضطرابها النفسي. ليلى كانت محظوظة أنها غابت عن الوعي قبل نقلها إلى المستشفى ولم تشهد مزيدًا من فظائع الجحيم على الأرض تلك الليلة. كانت أيضًا محظوظة لتمكنها من التركيز كفايةً

في دراستها واجتياز الامتحانات بامتياز والفوز بالمنحة التي لطالما حلمت بها. كرب عائلتها ما كان بكربٍ شديد إذا قيس على ميزان مآسي غزة.

***

لم تكره ليلى ذاك الطفل الرضيع الذي أرسلوا ملفه عوض ملف أبيها، هي كرهت إسرائيل لإجبارها طبيبًا على الاختيار، وتمنَّت لهذا الطفل أن ينجو ويكبر ويصبح مقاومًا. «لا، ما رح أتخلى عن كلية الطب، مستحيل أتخلى بعد كل إللي صار»، قالت همسًا لنفسها. جلست ليلى في غرفة نومها، الشمعة تخبو، على وشك الانطفاء، حين سمعت صوت أباتشي إسرائيلية تشق طريقها في السماء. مدَّت بصرها، وفي لحظة ضعف، تحت تأثير ذكريات كل المعاناة التي عاشتها عقب إصابة أبيها، دمدمت بين أسنانها المصطكَّة: «في المرة الجاية خلّص مهمتك. لما تقصف دار، اقصفها كلها واقتل كل إللي فيها. ولما تسدد طلقتك، مشان الله صوّب لتقتل في الحال».

يوسف الجمل

عمر X

الليلة صامتة، والقمر تَوارى خلف سحبٍ صيفية. ابتسامته كشفت عمره اليافع، خطاه تضرب الأرض على مهل تبحث عن طريق. الخبط المكتوم لطائرة الهليكوبتر يدنو أقرب وأقرب، يخترق السكينة في مخيم اللاجئين المكتظ حيث تعيش عائلته منذ عام ١٩٤٨. أصوات دحرجة الدبابات المقتربة تنتهك حرمة صمت الليل، وحكمت عليه ألا ينام بعدها أبدًا. ارتدى زيه الرسمي الكاكي على عجل، انتزع مسدسه ومسح عنه الغبار المتراكم، وعصف خارجًا. وبينما انتظر لحظةً عند عتبة باب بيت عائلته ليتأكد أنَّ لا أحد رآه، عيناه تحومان يمينًا ويسارًا، التقت عيناه أخيرًا بعيني أعز أصدقائه الذي قُتِل قبل ثلاثة أشهر وها هو الآن مخلَّدٌ في بوسترات ملصقة على جدران المخيم؛ دومًا ما وجد الطمأنينة في عينيه العسليتين.

حين ابتعدت الهليكوبتر، عاد الصمت وساد المكان.

بعدها بقليل انضم سعد إليه، ومعًا دخلا بيّارة برتقال. أصرَّ سعد على الدخول أولًا. دخل عمر تاليًا بعدما تأكد سعد من خلو البيّارة من الجنود، واقترح هامسًا: «المكان شكله آمن، خلينا نقرّب على هديك البناية إللي في الوسط، من هناك رح يبين الوضع».

العشب تحت قدميهما ناضر، لا صوت يسمعانه سوى حفيف الأشجار التي يمران بين أغصانها. توقف سعد لكي يتفحص مسدسه، وحذا عمر حذوه. جمدا في مكانيهما للحظة، الصمت الآن بات مسموعًا أكثر من ذي قبل، وكل شيء بات مفهومًا؛ هذا الصمت اصطناعي. لم يكن لدى عمر وسعد أي وقت للتواصل سوى لتبادل نظرات خاطفة، وها هو ذا الرصاص ينهمر عليهما من المبنى. أصيب عمر ووقع أرضًا، وصاح سعد مذهولًا: «انتبه! ازحف على الأرض! ازحف على الأرض!» بينما أزيز الرصاص يتزايد.

لمح عمر حياته بأسرها أمام عينيه. رأى نفسه طفلًا يدلـله أبوه، رأى نفسه تلميذًا يرمي في اعتراض مصروفه القليل، قطع النقود تتناثر على سطح بيتهم الصدئ. رأى نفسه يقود المظاهرات بينما رفاقه الشباب يُقتَلون، رأى نفسه منشدًا ينشد للحرية، وأخيرًا رأى نفسه مقاومًا.

اكتظ الرواق المغبر الضيق، المؤدي إلى جناح الولادة، بالأقارب الآتين بابتسامات عريضة لتهنئة والديه. كان اسمه قد أعلن قبل أشهر من مولده، في اجتماعٍ عائلي وقت كان مخيم اللاجئين تحت الحصار. حينها أعلن أبوه: «يابا، أخوي الكبير سمَّى ابنه البكر على اسمك، إبراهيم، وما يجوز أحمل كنية أخي نفسها، لهيك بدي أسمي ابني عمر، هالإسم يذكرني بالطيبة والحزم». جدُّه كان راضيًا بالاسم حتى إن لم يكن على اسمه كما تقضي العادات، وأمه لم تبدِ أي

مقاومة لحماس زوجها تجاهه. وحين ولد الصبيّ، جدته ولا أحد غيرها حممته، كما تقضي العادات.

«وهبتك لفلسطين يا زينة الرجال، إن وقف جندي إسرائيلي في طريقك ابعد عنه، وإذا أذاك قاوم وخذ حقّك منّه، الله يطول لي بعمرك يا ابني، يا زينة الرجال وبطل الأبطال»، راح أبو عمر يهدهد رضيعه قبل أن ينعس هو أيضًا ويغفو بعد وصوله من رحلة غير مخطط لها إلى الأراضي المحتلة.

كان الحصار قائمًا حين حاولت أمه التسلل مع مولودها أسفل غطاء الليل إلى بيتهما الصفيح في المخيم. خمسة جنود أوقفوا السيارة لتفتيش اعتيادي ثم سمحوا لهم بمواصلة الطريق إلى بوابة الحي المسمَّى «بلوك١»(*) تيمنًا بالسجن البريطاني الذي شيِّد هناك في الأربعينيات. جندي إسرائيلي، والذي لم يبدُ مثل أي من اللاجئين هناك، وقف عند الحاجز يتأمل الأم تحضر طفلًا آخر إلى منطقة معروفة بأطفالها الذين يرشقون الجنود بالحجارة والصخر وكل ما تقع عليه أياديهم، وسألها: «ما هذا الذي تحملينه في حجرك؟» وأجابته أم عمر بالعبرية: «ييلِد». تناول السائق سيجارة وترك صوت فيروز تغني على مسمع الجنود: «سنرجع يومًا إلى حيّنا».

(*) تم تقسيم مساحات المخيمات الفلسطينية «رسميا» بالحروف والأرقام، بلوك A-B-C، أو ١-٢-٣، أما الفلسطينيون فأطلقوا عليها أسماء قراهم التي هجروا منها: مخيم يبنا، مخيم اسدود.. الخ وجميعها أسماء قرى ومدن فلسطينية، وأحيانا أسماء عائلات.

رصاصةٌ ثانية اخترقت جسد عمر.

«كفاية خنقت الولد وانت عم تهري وجهه الزغير بوس، شوفه كيف عم يبكي، مشان الله بطِّل تبوسه هيك»، كذا كانت تعترض أم عمر، فيجيبها أبو عمر دفاعًا عن قبلاته وعناقه: «حبي لهالولد ما له حدود، كل يوم يكبر ويكبر ويكبر، وصدقيني بدّي اضل أفرجي عمر قدّيش بحبّه حتى لما يكبر ويصير رجّال».

في ليلةٍ قمرها بدرٌ مكتمل، في ليلةٍ صامتة كهذه الليلة، اقتحم الجنود غرفة عمر بحثًا عن أطفال رشقوهم بالحجارة، وعكرَّوا تخيلاته بأنَّ القمر بالونٌ أبيض. حضنت أم عمر ابنها لكي تخفيه عن أعين الجنود الحمراء المشتعلة غضبًا وهم يجتاحون كل زاوية من زوايا الغرفة. أم عمر ما تخيلت ابنها مقاومًا قط، وظلت تمقت الأسلحة إلى الآن، بل وأكثر من ذي قبل. اعتادت أن تغني له: «نام يا حبيبي نام»، لكي تهدئه طوال طفولته المفزعة.

في سنوات مرَّت أسرع من الريح، التي غالبًا ما هبَّت برائحة البارود، كبر عمر في بيتٍ صدئ ما انفكَّ يضيق عليه كلما كبرت عائلته وامتدَّت. وأدرك أنَّ الجنود، الذين اعتادوا إخافته في طريقه إلى الحضانة وهو في الخامسة من عمره، لم يكفوا عن اجتياح كل وجه من وجوه حياته، وما تركوا قيد أنملة ما انتهكوها.

صوت عمر المذهل ساعده على الالتقاء بكثير من الناس أثناء أدائه أناشيد المقاومة، من ضمنهم شبابٌ مقاومون، فقرَّر الانضمام إليهم لكي يحمي المخيم من الغارات المتواصلة عليه.

رصاصةٌ ثالثة وأخيرة كسرت الصمت المخيف، وبسهولة بلغت جسد عمر.

«يمَّه عم أحكيك جد، بدي مصاري حتى أشتري مسدس «إيه كيه ٤٧» لأحارب الجنود إللي عم يقتلوا أطفالنا ونسوانا، هاد واجبي إني أحميكم»، قال لأمه بنبرة حازمة.

رغم حب أم عمر لابنها البكر، ما كان بيدها فعل أي شيء لتثنيه عن هذا الطريق. كان مُنَاها أن يجتهد في دراسته ويجتاز امتحانات التوجيهي. وفي محاولة أخيرة لحثه على التركيز في دراسته اقترحت عليه: «اجتهد هالسنة حتى تنجح في التوجيهي، وبعدها أجِّل دخولك الجامعة كم سنة». فردَّ عمر محاولًا طمأنة أمه القلقة: «اطَّمني يمّه، بدي أجيب لك شهادة ترفعي فيها راسك للسما».

وهو ينزف، أنشودة لطالما أحبها وأنشدها خطرت له، «هيّأت لي أمي فراشًا وثيرًا.. من رياش الحمام حشت الوسادة.. صبغت غرفتي بلون المرايا.. وتمنَّت عليّ عهد السعادة.. وقالت هذي عروسك هيّا.. إنها الدر بهجةً وريادة».

كان الوهن قد تمكَّن من جسد عمر، وما عاد قادرًا على تناول موبايله والاتصال بعائلته للمرة الأخيرة. بقي ينزف والرصاصات بقيت تنهمر. أرجح رأسه إلى يمينه، إلى جانبه وجد سعد مستلقيًا، وجهه على الأرض، وقد فارقته الحياة. استجمع ما تبقَّى من قواه ومدَّ يده أعلى جسد سعد، وقبل أن يتسنى له فعل شيء، همدت يده على الأرض.

محمد سليمان

راجعين يا بلادي راجعين

جرَّ أبو إبراهيم قدميه، جسده الضعيف الواهن ينوء بالبقجة التي يحملها على كتفيه. جسده يترنَّح، قدماه تحاولان جاهدتين حمله إلى أقصى مسافة ممكنة، ومع أنهما فشلتا في إبقاء جسده متوازنًا، فإنه لم يقع. لم يكن أبو إبراهيم وحده، بل تبعه طابورٌ طويلٌ من أهله. زوجتاه كانتا برفقته، واثنا عشر ابنًا تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثانية والعشرين. كان أبو إبراهيم يغادر، لكن لم يعرف إلى أين هو ذاهب. مئات الناس حوله، والكل يفعل الشيء نفسه. الكل كان يغادر، ولا أحد منهم يعرف إلى أين هو ذاهب. أبو أحمد كان برفقة زوجته، كلُّ ابنٍ من ابنيه المتزوجين يسير على جانب من جانبيه، ابنان أعزبان وأربعة بنات، يتبعهما طابورٌ لا يقل طولًا عن الطابور خلف أبو إبراهيم. هم أيضًا كانوا يغادرون. أبو ناصر كان هناك، تلحقه عشيرته التي لا تقل عن عشرين شخصًا في طابورٍ واحد. الكل كان يغادر، أجسادهم المرهقة تنوء بثقل المتاع الذي اضطروا إلى حمله. إلى أين؟ لا أحد منهم كان يعرف.

في غمرة الغبار الكثيف، المتصاعد عن الأقدام التي تجرُّ أصحابها جرًّا وتجاهد لإبقائهم مصلوبي الظهر، لا صوت كان في

المدى خلا فوضى أصوات الأحذية تحكُّ الرمال القاسية الحجرية، وبين آنٍ وآخر يتعثَّر أحدها بحجر. جموعٌ وجموعٌ من الناس تحوم، الكل يمشي منحني الظهر تحت عبء الأثقال على أكتافهم وظهورهم. ولأن تلك الجموع لا تعرف إلى أين هي ذاهبة، بقيت تمشي وتمشي. الشيء الوحيد الذي عرفوه أنه يومٌ أسود، أنَّ أحدهم أتى إلى بيته وأجبره على مغادرته، على مغادرة مزرعته وأشجار زيتونه، وإذا قال «لا» صوَّبوا البندقية نحو وجهه لإجباره. وهكذا غادروا جميعًا على أمل العودة. كيف سيعودون؟ لا أحد منهم كان يعرف.

كان ذاك يوم النكبة. ومنذ ذاك، تنقَّلوا مرتين أو ثلاثًا إلى وجهات مختلفة، مجبرين على تحمُّل قول «لا» لأولادهم متى سأل أحدهم: «راجعين؟» صُرَر متاعهم باتت أثقل وأكبر، والطرق أمامهم لا تؤدي بهم إلى قريتهم. كانت الشمس قد أَفَلت لمَّا اجتمع أبو إبراهيم وأبو أحمد وأبو ناصر حول نارٍ صغيرة لمناقشة مستقبلهم الضبابي. عوائلهم جلست بهدوء أسفل السماء الشاسعة المرصعة بالنجوم، الريح تعصف بالأشجار وبالخيام التي نصبوها من أسمالهم. فوضى المشي المتثاقل اختفت ما إن غربت الشمس، وحلَّ محلها صوت الصمت الرهيب، وطقطقة جمرات النار، وصفير الريح متى هبَّت. ومع هبوب الريح، تزيد فرقعة جمرات النار الرَّوْع في النفوس، تقاطعها قهقهة الأطفال الصغار، يتلوَّى الصغير فيهم بين يدي أمه التي تدغدغ إبطيه لكي تجبره على الضحك.

استهلَّ أبو إبراهيم الحديث بتنهيدة عميقة تليق بالمصاب الجلل، تنهيدة قد يختلط الأمر على سامعها فيظنّها نواح فرسٍ عربية، وحدها في حضن الليل، تبكي مُهرَها الذي مات فجأة. وصدقًا كان نواح عربيٍّ علمه أبوه كيف يكون أبيًّا كما الشمس قبل أن يعلمه حتى كتابة اسمه، والآن عزّة نفسه مجروحة.

«بيعين الله يا أبو إبراهيم»، ردَّ أبو ناصر على تنهيدة جاره المكروبة، يرسم هائمًا دوائر في الرمال قبل أن يسود الصمت من جديد.

«الله في عوننا.. الله في عوننا»، جاء صوت أبو أحمد وهو ينقِّل خرز مسبحته ببراعة: «بظنّي العرب، وخصوصي الحكومة المصرية، مش حتسكت على إللي صار، وأكيد بدهم يعملوا إشي حتى يرجعونا على ديارنا».

«حكيك مزبوط»، أومأ نظراؤه موافقين.

وأردف أبو أحمد قائلًا، « وما تنسى إخواننا السعوديين». ولمَّا لحظ إيماءة أبو ناصر اتفاقًا معه، راح يرفع صوته تدريجيًّا: «وعندنا إخوتنا الأردنيين والسوريين والعراقيين والجزائريين وكل إخوتنا العرب، كلهم رح يهبوا لنصرتنا على قتال المتوحشين وطردهم من ديارنا وبلدنا».

«أكيد! أكيد!»، قالها أبو ناصر بعدما كفَّ عن الإيماء، مستجمعًا شجاعته إثر الحميَّة في نبرة جاره، مشاركًا إياه في الخطاب الحماسي: «بدهم يهزموا هالحيوانات شر هزيمة ويطردوهم من أرضنا!».

وفيما كان يلقي أبو ناصر حصته من الخطاب الواثق الرافع للمعنويات، فجأة تبدلت ملامح أبو أحمد وعاد إلى تجهمه، كما لو أنَّه في تلك اللحظات القصيرة بدَّل رأيه حول العرب. أبو ناصر، الذي خاب أمله من صمت أبو أحمد بعد انتظاره أن يقول شيئًا، التزم الصمت هو الآخر.

هنا انتهى الكلام، وساد الصمت مجددًا على جلسة الرجال حول النار المتقدة.

بعد هذا الصمت الوجيز، عاود أبو أحمد الكلام، لكن هذه المرة في نبرةٍ هادئة ومنخفضة ومترددة، عيناه تحدقان إلى الخربشات التي رسمها بغصن صغير في الرمال، ولم يرفعهما لرؤية وجوه الآخرين. «آ، احتمال يهبّوا لنجدتنا، بس إيش عرَّفنا قديش بدهم يوخذوا وقت»، بدا كما لو أنه يحادث نفسه لا رفاقه، «احتمال يوخذ منهم أسبوع أو اثنين، شهر أو شهرين، أو حتى نص سنة بطولها. مين يعرف؟».

«فال الله ولا فالك يا زلمة»، نطق أبو إبراهيم فجأة، عيناه المذهولتان تتسعان في اهتياج: «إيش هالكلام اللي قاعد تحكيه؟ نص سنة! بدنا نضل في هالخيام نص سنة! لا، لا، مَحْناش قاعدين فيها».

لحظتها أراد أبو ناصر وأبو أحمد أن يقولا شيئًا، تبادلا النظرات للحظة في انتظار الآخر يقول ما لديه. كلاهما فتح فمه، كاد ينطق، تردد، توقف، وفي النهاية كلٌّ منهما ظلَّ على صمته. لا

أحد نطق بكلمة، لا أحد كانت لديه الشجاعة ليقول إنه أدرك الواقع المقبل عليهم. لا أحد منهما أراد أن يقول لأبو إبراهيم -أو بالأحرى يذكّره- إنَّ الأمر قد يستغرق زمنًا أطول بقليل من نصف سنة قبل عودتهم إلى بيوتهم وأراضيهم وحقولهم وأشجار زيتونهم.

في غضون ذلك، وبينما كانت أم إبراهيم توازن جرة ماء مكسورة على رأسها بيدها اليمنى، في ثوبها الأسود المطرز بالأحمر القاني، يلحقها طفلها حافي القدمين، هرولت نحو زوجها وقالت: «عايزين أعملكو شاي؟».

«اعمليلنا شاي، ليش لأ»، أجابها أبو إبراهيم الذي انضمَّ إلى جاريه في رسم الدوائر على الرمال.

بقي الرجال الثلاثة صامتين لدى أدائهم هذا النشاط المريح للأعصاب، فقد خفَّف عنهم. وها هي الغصيْنات في قبضة المزارعين الثلاثة غُرسَت بأكملها في الرمال. لا بد أنَّهم وجدوا شيئًا من الطمأنينة في غرس غصينٍ في الرمال. حينذاك فحسب، استشعر أبو إبراهيم اضطرابه المتزايد كلما امتد الصمت بينهم. انتابته الرغبة في كسر هذا الصمت، وراح يرتجل أهزوجة: «راجعين يا بلادي» وانضمَّ إليه أبو أحمد، يكرر أهزوجته بنبرة أعلى. أبو ناصر، مستشعرًا النبرة العاطفية المتصاعدة في الأغنية، صدح بصوته وشارك في الغناء.

«راجعين يا بلادي، راجعين».

الآن، لمَّا راح يغنيها الثلاثة معًا، بدت الأغنية مربكة. فالتناغم بين أصواتهم مفقود إثر إصرار كلٍّ منهم على الغناء وفق إيقاعه، فبدا تشاركهم وكأنَّ كل واحدٍ منهم يقاطع الآخر.

«وبعدين يا جماعة»، قاطعهم أبو إبراهيم غاضبًا: «ناويين تماءوا زي الخرفان؟»

«طيب طيب، خلونا نبلّش من جديد». أجاب أبو أحمد.

«ماشي». قال أبو ناصر.

«لا تنسوا، إيقاع واحد، نغمة وحدة»، ذكَّرهما أبو إبراهيم: «واحد... اثنين... ثلاثة»

راجعين لك يا بلادي، راجعين لك راجعين.

راجعين لقريتنا، راجعين لحاكورتنا.

راجعين يا زيتونة، راجعين يا ليمونة.

بدأوا معًا، وحافظوا على الإيقاع والنغم تحت قيادة أبو إبراهيم، يعلمهم اللحن والكلمات التي يرتجلها أثناء الغناء. لكن ما كادت تمر عدة لحظات حتى عاد أبو إبراهيم يوبِّخ جاريه، ساخطًا على فشلهما في الغناء بتناغم.

«خلّونا نحاول كمان مرة».

واصل الرجال الثلاثة جهودهم في محاولة الغناء بتناغم، لكن في كل محاولة يفشلون في الحفاظ عليه لأكثر من لحظات. حاولوا

الكرَّة تلو الأخرى إلى أن بلغوا محاولتهم الخامسة والستين، وما نجحوا قط في توحيد أصواتهم. فعلًا كان ثغاء الخرفان. لم يطُل الوقت بهم، فقد أصاب أبو ناصر الإرهاق إثر المسافة الطويلة التي قطعها ورؤيته النتيجة العبثية لجهوده الحثيثة والضائعة في مواكبة الرجلين الآخرين، فقرر أن ينام، وبعده بقليل لحقه إلى النوم أبو أحمد وأبو إبراهيم. النار خمدت، وبين حينٍ وآخر يهبُّ نسيمٌ باردٌ عليل على الخيام شبه المنصوبة.

الكل الآن قد أخلد إلى النوم.

في الصباح، كلٌّ من الرجال الثلاثة، أبو إبراهيم وأبو أحمد وأبو ناصر، راح يمشي منحني الظهر، ينوء بثقل الحِمل على كتفيه، يتبعه أبناؤه وبناته وزوجاته، ومئات الناس هنا وهناك. الكلُّ يفعل الشيء نفسه، الكل كان يغادر.

روان ياغي

من تحت الأنقاض

لم أعرف حتى إن كانت عيناي مفتوحتين.

من بعد الفوضى، كل شيء بدا هادئًا جدًّا، وشعرت بالغبار يغطي وجهي. بدا كأنَّ الغبار يسدُّ منخريّ، وحين حاولت التنشُّق عبرهما ازداد الأمر سوءًا، فقررت التنفس عبر شفتيّ. كان في وسعي الإحساس بأنفاسي تصطدم بحجر طابوق. سمعت صيحة خافتة لسيارة إسعاف، ثم ما عدت أسمع شيئًا سوى أنفاسي. إحدى ذراعيّ عالقة في مكانٍ ما أسفل حواف سريري الخشبية، والأخرى بدت عالقة تحت مزيد من الطابوق الثقيل. أصابع قدميّ وساقاي وشعري، كلُّها حُبِسَت وحُكِمَ عليها بعدم الحراك. غمرني ألمٌ شديد وما كنت لأعرف أين مصدره. لم يسبق أن علقت في حيز صغير كهذا، كم بدا عالمي ضيّقًا وحادًّا.

كنت خائفة. انتظرت وانتظرت، ثم عملتُ بنصيحة أمي التي أسدتها لي ذات يوم حول مجابهة الخوف، فحاولتُ استرجاع كل الأحداث السعيدة في حياتي، وعلى قِلَّتها فعلت: العرس الكبير لأخي الأكبر، عودة جدتي من مكة وإحضارها لي دميةً تغني، العيد الماضي حين نلت أكبر عيدية في حياتي، أمي تحضر إلى البيت رضيعًا

جديدًا، رغم أني تساءلت إن كان هذا الحدث يسعدني حقًا، لكني بالتأكيد رأيت البهجة على ملامح والديَّ وهما ينظران إلى ذاك الشيء الصغير.

أنفاسي ترتدُّ رقيقةً إليّ، تحمل رائحة أشياء رمادية عوض النسيم العليل العطر بعبق نباتات حديقتنا، تلمس أنفي وخديَّ كما لو أنها تواسيني وتطمئنني أنَّ كل شيء سيغدو على ما يرام. لكني بعدها بدقيقة بكيت. السماء حالكة خاوية من النجوم، وحينذاك أدركت أنَّ عينيَّ مغمضتان، إذ بدأت أشعر برموشي الدبقة. مفتوحتان أم مغمضتان لا يهم، *مفش فرق*. رحت أبكي وأبكي بلا هوادة، دموعي امتزجت بالغبار على وجهي وأحالته إلى كتل طينية تدبُّ نحو حواف وجنتيّ وتسد قنوات أذنيّ. لا بد أني كنت أنزف، فألمٌ فظيع راح يتضخم في صدري. بدا كما لو أنَّ مؤخر رأسي يشدني إلى الأعماق أكثر وأكثر مع كل صرخةٍ أطلقها، وانتابني إحساسٌ بأنَّ لديَّ ما يكفي من قوة لدفع كل شيء عني. لكن لا شيء تزحزح عن مكانه. كنت في أمسِّ الحاجة إلى النهوض والوقوف على قدميّ والجري إلى حضن أمي. وحينذاك خطر لي أنَّ لا أحد قادمٌ لإنقاذي، فلا حركة تدبُّ في أيٍّ من أنحاء البيت، وصِحتُ أبكي.

أردت أن أساعد نفسي. حاولت الحراك. عضلة واحدة فحسب. إصبع قدم. شعرتُ بشيءٍ حادٍّ ينخس لحمي.

توقفت عن البكاء. انتظرت. نزفت.

وفاء أبو القمبز

بس ربع ساعة

«ماما، بدّي بابا ضروري، اتصلي عليه وخبريه يجي هلقيت البيت، سمعتيني؟» قال إسلام مهتاجًا.

«وليش عمّالك تصرخ؟ استناني دقيقة وأتصل عليه».

«طيّب، طيّب. آسف ماما»، ردَّ إسلام، وفسّر تصرفه لأمه قائلًا: «بدّي أرسم، وبابا دايمًا يساعدني، بابا رسَّام شاطر كثير. المعلّم اليوم طلب من كل واحد في الصف يرسم خريطة قريته إللي إجى منها. وأنا بعرف إنه بلدي هي الأروع فخريطتي كمان بدها تكون الأروع، هيك بابا حكى لي لمَّا دخلت الصف الرابع».

كان إسلام على وشك مغادرة غرفته حين تردَّد للحظة، فشيءٌ على الجدار شتَّت انتباهه. كان يراها تقريبًا كل يوم، لكن إلى الآن لم يفطن إلى ذاك الشيء الغريب فيها. وهذه المرة شعر بأنَّ الحياة ستدبُّ فيها، الأشجار ستتأرجح بعنف، السحب تلوح من بعيد وها هي تخيّم في الزاوية اليمنى العليا. كان جليًّا كما الشمس. أخذ بعض الوقت لكي يقف أمامها، كانت لوحة ساعده أبوه على رسمها، عدا أنَّ هذه اللوحة لا تظهر الشمس فيها. لم يعجبه ذلك، وهرع إلى أمه.

«بابا تأخر..»، هرع إسلام عائدًا إلى اللوحة ليتأملها على الجدار، وراح يصرخ من الغرفة الأخرى، «ماما، ماما... عم أكلمك، سامعتيني؟»

أمه، تتحرك في البيت على نحو اعتيادي، تصرفت كما لو أنه لا يكلمها، كما لو أنه غير موجود أساسًا.

واصل الصياح على أمه آملًا أن تأتي وتتأمل اللوحة معه: «أتذكر لَمَّا كنت عايش هناك في هداك البيت الزغير. كان بيت زغير، وهاي الشجرة القديمة بابا زرعها. آه بابا إللي زرعها. أو يمكن سيدي زرعها. لا أنا إللي زرعت هاي الشجرة».

نظر إسلام إلى أمه وشعر بأنها مرهقة جدًّا، رأى ذلك في عينيها الآخذتين في الصغر والاسوداد. تمنّى لو كان أبوه هنا ليساعدها لكنه يقضي معظم وقته خارج البيت، ومتى كان في البيت بدا كما لو أنَّ لا وقت لديه ليساعد في شؤونه إلا إذا تطَلَّب الأمر حمل شيءٍ ثقيل. لطالما أراد إسلام أن يغدو قويًّا كأبيه، حينها سيساعد أمه فترتاح، وستحظى بوقت لتبادل الحديث معه بدل حديثه مع نفسه طوال الوقت.

الساعة الآن الرابعة، وأبوه لم يأتِ بعد. ذات مرة قالت له أمه إنَّ أباه «مطلوب»، ولم يدرِ ما الذي تعنيه. الشيء الوحيد الذي أدركه من هذه المعلومة أنَّ غياب أبيه عن البيت طويل، ولن يراه إلا قليلًا.

«لازم يجي قبل ما تصير الدنيا ليل»، قال إسلام في نفسه، يحدوه الأمل.

***

«إسلام... إسلام... يلّا فوق من نومك!» صوتٌ ودود وأنفيّ ينادي عليه. أدار رأسه نحو المكان من حيث يأتيه الصوت، ولم يكترث.

«إسلام...إسلام أبوك بده يجي بعد شوي، هالمرة بده يقعد معنا ربع ساعة. أنت تعرف قدّيش أبوك مشغول، فخليك ولد مهذب»، أتاه صوت أمه من الغرفة الأخرى.

«بس ربع ساعة؟ أقدر استناه ربع ساعة».

ابتسمت أمه: «مفش فايدة فيك، بتضلك ولد شقي».

ابتسم هو الآخر: «بس تأخر كثير..». وعاد يحدِّق إلى اللوحة.

«خريطتي بدها تكون أروع خريطة! بابا رح يرسمها إلي، يعني ... أنا رح أساعده شوي، لأنه هاي خريطة بلدي وداري، هاي خريطتي أنا. رح يخليني أختار الألوان (مع إنه في مرة ما خلاني ألوِّن بالأحمر وقال لي أحسن ألوِّن بالأخضر) هوّ أوقات يخليني ألوِّن. وأنا بحب كثير ألوِّن مع بابا لأنّه بابا مشغول طول الوقت ومفش شغلات كثير أعملها معه. وأصلًا بابا وعدني آخر مرة إنه رح يخليني ألوِّن اللوحة كلها!».

«مااااماااا، هيني قلتلك منيش ماخد الخريطة معي عالمدرسة إذا بابا ما إجاش». صاح معترضًا، آملًا ألا يخيِّب أبوه أمله. فقد أراد أن يأخذ الخريطة معه إلى المدرسة ويريها الجميع، أراد أن يتفاخر بها، أن يتباهى بعمله مع أبيه على إتقانها.

***

«إسلام، إسلام... انهض بسرعة، آه، ما أكسلك!» زجر جو، ضاربًا إسلام بوسادتيْ الأريكة، صرير صوته يستفز أعصاب إسلام. «ستتأخر، ستتأخر وتصل في وقت متأخر جدًّا. إذا لم تفِق الآن من نومك سـ...».

«لا أرجوك، بس ربع ساعة، أعرف أنها رسالة الماجستير لكن، رجاءً، امنحني ربع ساعة. لا تصب ماءً عليّ فالجو بارد... آاه... أنت تعرف أني أحب الشاي مع سكر قليل. رجاءً دعني أنام ربع ساعة فقط، أحتاج هذه الربع ساعة».

«في وسعي انتظارك ربع ساعة»، أجابه جو.

بهدوء، مدَّ إسلام يده من أسفل الوسادة نحو الخريطة المؤطرة جانب سريره ولمسها برقّة، أراد أن يتيقن أنها لا تزال موجودة، ثم عاد إلى النوم وهو يردد:

«أخيرًا رجعت على دارك بابا، أخيرًا رجعت».

رفعت العرعير

البيت

وقفا ساكنين، يحاولان استيعاب كل تفصيل صغير في بيتهما. ورغم شك سالم بدايةً في خطة أبيه، ما كان لأحدهما التيقن إن كانت القشعريرة التي تسري في جسديهما مردُّها رؤية بيتهما مجددًا للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات.

البيت قائمٌ على تلة تطل على حقول زيتون وليمون ممتدة غربًا مثل سجادة خضراء منسوجة باليد، مفروشة على مدِّ البصر، وموصولة بسماء الفجر الصافية بغرز من خيوط بُكْرة اليوم المائلة إلى الاحمرار. أخيرًا بيتهما أصبح أمامهما، وأدركا أنَّ هذه الخطوات الأخيرة التي ستقودهما إليه هي الأخطر، بل قد تسلبهما حياتهما. الأمل في العودة كان دافعهما الوحيد وسندهما في الصمود. أمِلَ أبو سالم في العودة إلى بيته، وأَمِل ابنه ألا يتعرضا لإطلاق النار، أو الأسوأ، للأسر. كان أبو سالم يحمل شنطة بنية صغيرة بلون قريب من لون جاكيته، ورغم إصرار ابنه، رفض أن يدعه يحملها عنه.

كلما اقترب من البيت تسارعت خطاه، كما لو أنَّ البيت يشده مغناطيسيًّا إليه. البيت ذو الطابقين لا يزال يحمل على سطحه الخيمة نفسها منذ ثلاث سنوات. نصبها أبو سالم بعيد انتقاله إلى البيت

لكيلا ينسى الأيام التي قضتها عائلته في مخيم قلنديا؛ فقد آمن أنَّ النسيان فضيحة نكراء، لا تقل عارًا عن فضيحة الاستسلام للعدو وأنت لا تزال في جعبتك كثير من الذخيرة. النسيان أمرٌ محال، وهكذا بات الحنين إلى ذاك الزمن -حيث ما كان من سلطةٍ عليه سوى سلطة أبيه أو جده- طقسًا يوميًّا.

بعد مضيّ ثلاث ساعات من المشي والربوض والتواري تمكَّنا أخيرًا من الوصول إلى بيتهما، أصعبها كانت مئات الأمتار الأخيرة. البيت قريبٌ جدًّا، ومع ذلك بعيدٌ كل البعد عنهما. وفي اقترابهما من الجزء غير المكتمل من الجدار، زحفا على الأرض ورقدا ساكنين لدقائق كلما اضطرا إلى تفادي دوريات الجيش العابرة والكلاب الضالة.

أبو سالم كان لاجئًا في الحادية والستين من العمر، يدرِّس الإنجليزية في قرية نعلين في الضفة الغربية. وابنه الأكبر سالم جاء برفقته في رحلة عودتهما إلى البيت الذي صادره الاحتلال قسرًا قبل ثلاث سنوات بالضبط. حياة أبو سالم التي عاشها وكبر فيها تحت الاحتلال علَّمته صعوبة المراس، عناده يزداد مع تقدمه في السن، والتدريس علَّمه الردَّ والجدال. أما سالم، فقد علمه الاحتلال وأبوه ومهنة أبيه في التدريس اللجوءَ إلى الطاعة وتفادي الجدال.

بالنظر إلى الوراء، حَزِن سالم لتركه أباه يذهب من الأساس، لكن لا خيار لديه سوى طاعة أبيه والعمل بكلامه، هذه المرة مثل كل المرات التي سبقتها. ففي نظر سالم مجرد فكرة العودة فكرةٌ

عبثية، بل حتى سريالية، وكثيرًا ما تضايق من كلام أبيه حول العودة إلى بيتهم كما يتحدث الناس الطبيعيون الذين يعيشون في ظروف طبيعية عن العودة إلى بيوتهم بعد العمل أو المدرسة. أصرَّ سالم أنَّ أباه غافلٌ عن واقع الحقائق على الأرض: بكل بساطة ليس في وسعهم العودة، ليس الآن، ليس بهذه الطريقة، ليس تحت التشديد الأمني ومع الجدار العملاق يشق طريقه كما الأفعى في حيواتهم. بالطبع، حرص سالم على ذكر هذه المسببات كلها وتحديدًا بهذه الكلمات، لكن إلى الآن ثَبَت أنَّ أباه على حق: رحلتهما بدت مستحيلة لأنهم تصوَّروها مستحيلة، ما إن يصبحا هناك ستغدو ممكنة. وبالفعل تبيّن أنها ممكنة، لكن سالم رأى الخطر يلوح من كل جانب.

***

«كيف؟» سأل سالم أباه حين فاتحه بعودته إلى البيت ورغبته في مجيئه معه. لكنه اعتاد، بعد كل تلك السنوات، على مساعي أبيه العابثة: محاولاته صد جرافات البلدوزر وهي تمحق أراضي من حقله، صرف أموال كثيرة على القضية التي رفعها لإيقاف مصادرة بيته، بحثه اليائس عن شخص يحمل رسالته الخطية المشحونة بالعواطف إلى العائلة اليهودية التي قد تسكن البيت لعلَّها تليِّن قلوبهم، والآن بات يأخذ رحلة المشي الشاقة أعلى الحقول الجبلية وأسفلها لكي يلقي نظرة أخيرة على بيته. ما انفك يكرر على سالم أنَّ جلَّ ما يريد أن يلقي نظرة أخيرة على البيت الذي شيده بنفسه، والذي قد لا يراه مجددًا بسبب الجدار.

«حادثت أمك في الموضوع، ولا مشكلة لديها ما دمت سأصطحبك معي».

«كيف؟»، كرر سالم سؤاله، هذه المرة يعضُّ على نواجذه.

كان جليًّا على ملامح أبو سالم امتعاضه من مشاركة التفاصيل مع ابنه، لكن ما إن شرع يصف خطته حتى بدا واضحًا أنه تمرَّن على الإجابة مرات عديدة في ذهنه، كما لو كان يعد خطة درسٍ معقَّد.

شرح أبو سالم لابنه كيف أن رحلات المشي الصباحية التي غدا يأخذها مؤخرًا إنما هي للاستدلال على الوقت المناسب للانطلاق، وعلى أفضل الطرق وأقلها خطرًا، وأيضًا لطلب النصح والإرشاد من رعاة الغنم؛ وتوصَّل إلى أنَّ الفجر هو الوقت الأنسب. وعندما انتهى أبوه من كشف خطته، لم يدرِ سالم على وجه اليقين إن لمح ابتسامة مرسومة على وجه أبيه. لكن كان موقنًا، وسيقسم على ذلك، أنَّ عيني أبيه لمعتا، وعينا أبو سالم لا تلمعان إلا إذا عزم بعقله وقلبه على تنفيذ أمرٍ ما.

«بعد منتصف الليل، نتجه أنا وأنت نحو الجزء غير المكتمل من الجدار، وسنصل قبل الفجر. سيكون الظلام مخيمًا وخفر الدوريات إما نُعَّس وإما مرهقون جدًّا، ما يعني أنهم لن يتمتعوا بكامل يقظتهم في الحراسة». الكلمات تصبُّ من فم أبو سالم كما لو كان يسرد حقائق لا لبس فيها، ومع ذلك جاهد ألا تلتقي عيناه بعيني ابنه الفضوليتين المتهكمتين.

«هل ستؤجر قصَّاص أثر؟» سأله سالم.

وانتفض عليه أبوه بنزق: «بعرف منيح كيف أروح عبيتي، مش بحاجة قصاص أثر!»

***

«اقتربنا»، تمتم أبو سالم لدى اقترابهما من بيتهما، كان يتمتمها لنفسه أكثر مما كان يطمئن بها سالم.

«اقتربنا من ماذا، بابا؟ الموت يقف بيننا وبين بيتنا! مئات الأمتار الأخيرة هذه هي الأشد مراقبةً من الجنود. بابا، دعنا نتراجع قبل أن يفوت الأوان». ناشد سالم أباه بعدما استجمع أخيرًا ما يكفي من شجاعة للتعبير عن قلقه لدى إدراكه أنَّ خطورة الوضع تفوق ما توقَّع.

«بدك تروِّح، روِّح. ما همنيش إذا أنا مُتِتْ هون، على الأقل أكون حاولت». قال الأب بنبرة حاسمة، آملًا ألا يتركه سالم ويمضي. وسالم لم يمضِ.

لكن من الواضح أنَّ خطة أبو سالم نجحت، فالمنطقة هادئة جدًّا، وبكل سلاسة عبرا إلى الجانب الآخر من الجدار. وما إن تنفسا الصعداء حتى سمعا صوت جيب عسكري متسارع صوبهما، فاندفعا إلى الربوض على الأرض.

اختبآ لفترة خلف كومة قمامة صغيرة. وقبيل اختفاء الجيب عن مد البصر، أمسك أبو سالم بغصن وجرَّه خلفه وانطلق يعدو بسرعة

نحو الطريق للاستفادة من سحب الغبار التي خلَّفها الجيب، ثم أومأ إلى سالم الذي احتار من تصرف أبيه، لا سيما أنَّ الجيب لا يزال على مسافة معقولة منهما.

«لماذا لم تمسك بغصن؟» سأل أبو سالم ابنَه ما إن لحق به، كلاهما أعصابه مهتاجة.

«ولماذا أنت أمسكت بغصن؟» ردَّ عليه سالم.

فأجابه أبو سالم بنزق: «عليك أن تجر غصنًا خلفك كي تغطي آثار قدميك».

«فلنأمل أن تغطيها سحب الغبار والريح»، أجابه سالم.

اقترابهما من بيتهما وأشجارهما، على بعد أمتار قليلة فحسب، منحهما إحساسًا بالأمان. قضى أبو سالم خمس دقائق يتفحص البيت وأرجاءه، على ملامحه ما يدلُّ على وجود خطبٍ ما. حينذاك كان سالم يراقب أباه حينًا، والبيت حينًا، ويتلفت حينًا للتأكد ألا أحد آخر قريب.

فجأة انفجر أبوه: «لطالما كان الاحتلال وقحًا وأحمق، لكن ما سمعت قط باحتلال غير مراعٍ وطائش مثل هذا. إما أنه يتعمَّد تعذيبنا بفعلته هذه أو ثمة خطبٌ في عقولهم، المرضى الأوغاد!».

نظر سالم إلى أبيه، ولم يستطِع تبيُّن مبعث غضبه المفاجئ: «إيش في؟».

«إيش في؟ مفش إشي! وهون المصيبة!».

سالم، الذي لم يكن في مزاجٍ لتحمُّل نوبة تعصيب أخرى من أبيه، فتح فمه ليقول شيئًا لكن ما نطق بكلمة.

«الأمر الوحيد الذي حال بيني وبين العودة هنا كل تلك السنين هو خوفي ألا أتعرَّف إلى بيتي. لكن انظر، لا دليل على أي محاولة لطمس معالم البيت، البيت هو هو كما غادرناه قبل ثلاث سنوات. هم فحسب يأتون إلى بيتك وحقلك ويطردونك منهما، ويعلنون ملكيتهم عليهما. انظر إلى حقول الزيتون، يدعون المزارعين يكدحون طوال العام، ثم يأتون مدججين بالسلاح نهاية العام ويقطفون -يسرقون!- الزيتون. كما لو أنَّ اعتمادهم على تفوقهم العسكري الكاسح ما عاد كافيًا، لا ليس كافيًا، باتوا يحبون صفعنا وإذلالنا. لسان حالهم يقول: *سلبناك ما تملك، فماذا أنت فاعل؟*» توقَّف أبو سالم لالتقاط أنفاسه وقال: «قسمًا بالله رح أفرجيهم اليوم إيش أنا فاعل، إذا كانوا عم يتمسخروا علينا، اليوم رح نتمسخر عليهم ونمسح بكرامتهم وجبروتهم العسكري الأرض».

لم يخطر على بال سالم للحظة أنَّ هذه كانت نية أبيه. دومًا ما فسَّر أبوه تصرفات الناس وأقوالهم بتأويلات أعمق من الظاهر، مما طوَّر لدى سالم عادة الشك فيما يقصده الناس حقيقةً، لكن هذه المرة تسمَّر في مكانه على وعيد أبيه بأن «يفرجيهم».

«سأخرج بعد ربع ساعة»، قال أبو سالم، وأمر ابنه بالانتظار خارجًا ومراقبة الوضع. ثم حشر نفسه في الفجوة التي خلَّفها الجيش ليلة غارَ على البيت، ودخل.

قضى سالم عشر دقائق مضطربًا، يتآكله قسم أبيه. من ثم، خلافًا لتعليمات أبيه، هو أيضًا حشر نفسه في الفجوة ودخل، أبدًا ما كان ليتخيَّل رؤية ما رآه، ولا حتى في أغرب أحلامه.

رأى عديدًا من الأسلاك والأنابيب الصغيرة، ومؤقِّتًا، وهاتفين محمولين؛ من الواضح أنَّها كانت محتويات الشنطة. وصاح على أبيه مدهوشًا: «بابا ما الذي تفعله؟».

«قنبلة»، أجابه أبوه كمن يجيب سؤال أحدهم عن الوقت.

«هذا ما كنت تحمله في الشنطة طوال الطريق؟ لا أفهم! ما الذي تنوي فعله؟».

«أريد أن أفجِّر البيت. إن كنت لن أستعيده، فلن يحصل عليه أي شخصٍ آخر».

«ستقتلنا بفعلتك هذه! هذا انتحار! تفجِّر البيت؟! دارك؟! ما الذي سيقوله الناس؟ أنك دمرت بيتك بيديك؟» اندفع سالم يطلق الأسئلة على أبيه، السؤال تلو الآخر، غير واثق أيها سيبدِّل رأيه.

«أجل»، قال أبو سالم، ولعلَّها أقسى «أجل» نطقها في حياته.

ما كان سالم ليخضع دون جدال، وحاول جاهدًا إثناء أبيه عن عزمه: «لكن بابا، هذا البيت يظل بيتك مهما يكن الشخص الذي يملكه الآن. صدقني الوضع الحالي مؤقت، وعاجلًا أم آجلًا دارك ستعود إليك».

«اسمعني ابني، لوم الناس يعتمد على القصة التي سنسردها.

أنا أفجِّر بيتي الذي سُلِب مني عنوة، بالقوة، دون رضاي، وما فعلت ذلك إلا حين فشلت كل مساعيّ الأخرى. ولعلّني كنت مخطئًا منذ البداية، لعلَّ كان يجدر بي تفجير البيت يومَ قررت إسرائيل مصادرته. كل تلك المحاكم والقضايا وجلسات الاستماع التي سمح بها الاحتلال ما كانت إلا عبثًا ورسميَّات زائفة. والآن ليس في وسعي ترك داري لهم ليأخذوها، أليس كذلك؟» فسَّر الأب منطقه، دونما أي اكتراث لإقناع ابنه به.

«لكنها دارك! بيتك بابا! كيف يطاوعك قلبك على تفجيره؟» عاود سالم سؤاله مذهولًا.

«سالم، أعرف أنَّ قدرتي في الحكم على الأمور تغبَّشت، أعرف. تعدُّد الخيارات تحت الاحتلال غدا أسوأ بكثير، بكثير جدًّا، من حرماننا منها. فهم يجبروننا على الاختيار بين خيارين جيدين أو بين خيارين سيئين، وفي الحالتين سنعاني ونضحي، ونضطر بعدها إلى عيش كوابيس الخيار الذي أخذناه عوضًا عن الآخر. أصبحنا نمقت الاحتلال لصنيعه هذا أكثر مما نمقته على احتلالنا، وبتنا نمقت عجزنا عن الحصول على خيارات أكثر وعجزنا عن تغيير مصيرنا. قل لي سالم، بدَّك أتحمَّل أشوف المستوطنين اليهود يوخذوا داري مني وأعيش مع هالواقع كل حياتي؟ ما اقدرش، ما اقدرش». توقَّف أبو سالم عن الكلام ليعيد التفكير فيما قال، إذ لم يسبق أن تفكَّر في الصراع على هذا النحو. وعلى الأرجح، ومضات الإلهام التي وجدها في هذه المهمة أدهشته أكثر مما أدهشت ابنه.

لا صوتَ في المدى خلا تغريد طيور الصباح ونباح الكلاب من بعيد. وقف سالم عاجزًا عن اتخاذ قرار، فهو موقنٌ من استحالة تبديل رأي أبيه. فكَّر للحظة أن يجرَّ أباه خارج البيت، لكن عوضًا عن ذلك، جلس قرب أبيه وراح يراقبه يجمع الأجزاء ببراعة في ترتيب معيَّن.

ولآخر مرة، سأل سالم أباه: «أنت متأكد، بابا؟».

«متأكد»، قاطعه أبوه، يحاول جاهدًا السيطرة على يديه المرتعشتين.

«متأكد أنك تعرف ما الذي تفعله؟» كرر سالم السؤال متوقعًا انفجار العبوات أي لحظة.

«عمري ما كنت واثقًا من أمر كما أنا واثق الآن»، ردَّ أبوه، ثم أمره، «الله يرضى عليك اتركني دقايق أخلص إللي في إيدي، واطلع راقب الوضع برَّه».

«طيب، دير بالك»، ثم حثَّه على التعجل، «هلق الشمس تشرق».

«يا حيف! نحن من أصبحنا الآن نخاف النور ونرتعب من الفجر! أرأيت ابني، هذا ما كنت دومًا أقوله لك. سلبوني بيتي، سلبوني تاريخي وجذوري وأرضي. والآن انظر إليّ، أنا أفجِّر داري بيدي. يستحيل أن يستمر الوضع هكذا للأبد، ولن أعتمد على السياسيين الأوغاد». ثم أصرَّ على ابنه: «خلاص اطلع بره زي ما قلتلك».

لا يستهوي سالم النقاش مع أبيه متى تحوَّل إلى الكلام عن السياسة

والسياسيين. فسالم، وإن وافق أحيانًا على تحليلات أبيه وبصيرته، لا تعجبه عادةً تعليقاته على المواضيع السياسية، خصوصًا الآن وهو يجمّع قنبلة. تريَّث ثواني، عاجزًا عن اتخاذ قرار حول خطوته التالية. أخيرًا، تمتم سالم جملةً بدت أشبه بـ«دير بالك»، ثم غادر.

بعد نحو ربع ساعة، حشر أبو سالم نفسه في الفجوة وغادر البيت، وأشار إلى سالم بالحراك. كان يحمل في يده اليسرى هاتفًا محمولًا، أما الشنطة البنية التي باتت فارغة الآن فقد حملها على ظهره. توقف أبو سالم لوهلة لإلقاء نظرة أخيرة على البيت وأرجائه، الأرض الخضراء شاسعة على مدِّ بصره. وفورًا أمسك كلاهما بأغصان زيتون صغيرة وجراها خلفهما. وبحذر، لكن على عجل، عادا من حيت أتيا.

«بابا، لماذا لم تترك الشنطة هناك؟» سأل سالم أباه في نبرة ساذجة، مرتبكًا، بعد عشر دقائق من الهرولة في صمت تحت بواكير شروق الشمس.

«لا أستطيع تركها هناك. إن رآني أحدهم أحملها في طريقي إلى هناك ثم لا يراني أحملها في طريق العودة فقد يثير الأمر شكوكه». انبهر سالم بإجابة أبيه، فوق ما تخيَّل، إذ من الواضح أنَّ أباه تدبَّر مليًّا في الأمر.

«هل القنبلة موقوتة أم تفجَّر عن بعد؟» خطر السؤال على بال سالم متوقعًا سماع صوت الانفجار أي لحظة، «علينا أن نكون أبعد ما يمكن عن البيت».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لا تقلق، سنصل في الوقت».

«إلى أي حد الانفجار كبير؟ هل سنسمعه من هنا؟» سأل سالم أباه في نبرة قلقة. أبو سالم، وقد استشعر القلق في صوت ابنه، قرر أخيرًا أن يفصح بما فعله حقًّا داخل البيت. «لن يكون ثمة انفجار..».

«ماذا؟ لا انفجار! لماذا؟ ألم تكن قنبلة التي زرعتها هناك؟ رد عليّ بابا! حطيت نفسك وحطيتني معك والعيلة كلها في خطر مشان ولا إشي؟»

«لا، لا. زرعت المتفجرات هناك، لكن جمعت الأجزاء دون ربطها بالأسلاك».

«لماذا؟»

«لأنك محق، من الجنون أن تفجر دارك. لكني قررت الإبقاء على القنبلة هناك، أريدهم أن يخافوا، أن يعيشوا في ذعر. عليهم أن يدركوا أنَّنا أقرب إليهم من حبل الوريد، أريدهم أن يستشعروا أنفاسنا دومًا على أعناقهم. أريد للإسرائيليين أن يبدأوا بطرح الأسئلة»، قال أبو سالم وهو يومئ نحو الجدار.

«بابا، لن يسألوا»، علَّق سالم على أبيه، يحاول جاهدًا إخفاء ارتياحه، وفي الوقت نفسه كان معجبًا بعمق تفكيره وسعة حيلته. «كنا سنقتل، أنا وأنت».

«اسمع ابني، أسوأ ما في الاحتلال أنَّه لا يتعامل مع النوايا، لهذا تحديدًا قوى الاحتلال شرٌّ شيطانيّ. لو أمسكوا بي وأنا أحمل معي

تلك القنابل لأطلقوا النار عليّ فورًا، ما كانوا ليسألونا عن نوايانا، وحتى إن سألوا ما كانوا ليصدقونا». ثم استطرد قائلًا: «الاحتلال شرٌّ شيطانيّ، أجل، الاحتلال يسرق ويدمِّر، لكنه أيضًا يعلِّم الناس الكراهية، والأسوأ، يعلمهم عدم الثقة. لهذا ترك القنبلة في البيت هي رسالة: في وسعي تفجير البيت لكن لا أريد تفجيره، لأني أريد لهؤلاء الناس أن يبدأوا في طرح الأسئلة حول أخلاقية موقفهم تجاهنا».

«أنت ابني والأقرب إليّ»، قال أبو سالم قبل أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، وأدرك سالم أنَّ وقفة أبيه إنما في الحقيقة انتظارٌ لتوكيدٍ منه، فسارع إلى منحه إياه في إيماءة متحمسة، يميل برأسه قليلًا إلى اليمين. «أنت ابني والأقرب إليّ، ومع ذلك لم تستطِع تخمين ما أردتُ حقًّا فعله. وربما حكمتَ عليَّ أني مجنون». هذه المرة لم يلتقط أبو سالم أنفاسه في انتظار توكيدٍ من ابنه، مع ذلك هزَّ سالم رأسه. «سيستمر هذا الشك وانعدام الثقة، ولن يتوقفا إلا إذا بدأ الناس يطرحون الأسئلة، ومتى طرحوها ستتوالى الإجابات».

طوال طريق عودتهما، لم يرَ سالم الابتسامة تفارق وجه أبيه، هل لأن أباه وجد الكلمات التي تعبر عن فلسفته في الحياة والمقاومة؟ أو إحساسه بأنَّ اللحظة باتت له اليد العليا على الاحتلال؟ أو لربما لأنه أخيرًا عاد إلى بيته ولو لأمدٍ قصير جدًّا؟ أو لأنه انتقم على طريقته؟

***

في اليوم التالي، خصصت الصحف الإسرائيلية عناوينها الرئيسة لما فعل أبو سالم.

جيش الدفاع الإسرائيلي يحبط هجومًا إرهابيًّا كبيرًا

القدس - فكَّكت قوات الدفاع الإسرائيلي صباح السبت قنبلة موصولة بجهاز تحكم عن بعد عُثِر عليها في بيت في مستوطنة نيلي. لم يبلَّغ عن وقوع إصابات.

وأكدت المصادر العسكرية أنَّ القنبلة كانت ضخمة بما يكفي لنسف البيت بأسره.

تسنيم حمودة

نقرلاند

على مرِّ الوقت أصبح التعامل مع الحالات الخطرة جزءًا من حياتها، والموتُ تجربةً يومية اعتيادية. لا عملها الجاد ولا تمنيها الحثيث ساعداها في شيء، ولا التعلُّق بالحالات ساعدها أيضًا في شيء. هكذا، قررت التخلي عن تعلقها بالأسماء، لكن ما كانت لتتخلى عن الأمل والاجتهاد في عملها. تخلَّت عن الأسماء لأنها تصنع الذكريات، تشكِّل الروابط، ويقينًا ما عادت تريد ذلك، ليس بعد الآن. بيد أنَّها ببساطة عاجزة عن الانفصال عن تلك السحب الصغيرة العابرة، ما كان في وسعها مغادرتهم والانتقال إلى قسمٍ آخر في المستشفى يعالج حالات أقل خطورةً وأعلى أملًا بالنجاة. كل ما تعرفه الآن على وجه اليقين أنها باتت متصلة بالموت بطرق غامضة، وترسَّخ لديها الإيمان بأنَّها ولدت من أجل التعامل معه، من أجل النظر إلى عينيه كل يوم، وهزيمته كل يوم. لكنها في كل مواجهة تفشل فشلًا مريعًا.

في وقتٍ أقرب مما يتوقع أحدهم، وفي سرعةٍ لا يتسنى معها حتى حفظ الأسماء، يجثم الموت في الجناح باسطًا جناحيه يمنةً ويسرة، ويحصد أرواحهم جميعًا. أسبوع، أسبوعان، شهر كحدٍّ

أقصى، وتحلُّ وجوهٌ جديدة محل السابقة، شبيهة بها وبأسماء مختلفة، لكن تتشارك جميعها المصير نفسه.

ثمة سبعة في كل جناح، تناديهم جميعًا إما «يا زغير» أو «يا زغيرة». وفي أثناء جولتها الدورية الليلية في الساعة التاسعة، تتفحَّصهم بالترتيب: «صار موعد إبرتك يا زغير»، وتطلب من الولد أن يمد ذراعه خارجًا، وبالكاد تلمسها. فقد تعلَّمت كيف تلهي نفسها متى حقنت الأطفال. أحيانًا تحدق إلى السقف وأحيانًا تنظر نحو الباب البعيد عن الأسرّة الستة القريبة التي لا تزال في انتظار الفحص الدوري.

كل مرة تصل إلى السرير الأخير تجد الولد نفسه يرحب بها بابتسامة، ولربما هذه الابتسامة أصعب فعلٍ يقوى عليه. «صار موعد إبرتك يا زغير». وفي كل مرة كان يخبئ كتابًا أسفل وسادته، يتلقَّى إبرته، وتتركه لينام. كانت ستتريث لوهلة، مرتبكة، تحاول استراق نظرة إلى الكتاب، والولد يدس الكتاب أكثر تحت الوسادة. ظلَّت تفعل الشيء نفسه على مدار شهرين، وكم آلمها أن يرى الولد الصغير كل هذه الوجوه الجديدة حوله تدخل وتغادر، آلمها تعايشه مع تبدّل أصدقائه ثلاث أربع مرات منذ مجيئه؛ ليس أنَّ لديه خيارًا آخر. ما إن تنتهي من فحصها الدوري معه، حتى تهرع خارج الجناح بعدما أتمَّت مهمتها لليلة.

في الصباح التالي، دخلت الجناح إثر اتصال طارئ يعلمها بنقل «زغير» جديد إلى جناحها، وقالت في نفسها «باتوا ثمانية الآن». وفي

الساعة التاسعة ليلًا، حان وقت الإبرة والتكرار: الأذرع المرضوضة تمتد إليها، الأعين نصف المغمضة تحدق إلى السقف، وسريرٌ أخير قبل إتمام مهمتها.

لدى وصولها إليه كان الكتاب مفتوحًا هذه المرة على صدره، رأسه الأجرد يستند إلى حافة الوسادة، ولا ابتسامة على وجهه. جلست شبه جامدة إلى جانبه ورفعت الكتاب. كان بيتر بان، حكاية الولد الذي لا يكبر أبدًا ويقضي طفولته اللانهائية على جزيرة صغيرة في نفرلاند حيث يعيش الأولاد المنسيون.

أعادت الكتاب إلى يديه الصغيرتين الباردتين، متمنية أن يكون قد أنهى قراءة الحكاية، وتمتمت: «تصبح على خير يا زغـ...يا بيتر بان».

إلهام حلّس

ضاع في لحظة

ولا مرة شَعَر بروحي تثب من صدري كلما سمعتُ صوته، بخفق دقات قلبي يعلو كما الدقّ الصاخب على الدربكة. رأسي يمتلئ بأفكار متناقضة كلما خطرت إلّي صورته، يأسرني كل تفصيلٍ من رجوليته، ظرافته وحدة ذكائه؛ رجلٌ فاتن يفلسف كل شيءٍ يقوله ويسمعه. ودومًا، ما إن أنهي مكالمتنا على الجوّال، حتى أهتف في نفسي: «قديش أنا سعيدة! هاد هو الرجّال إللي طول عمري أحلم فيه». ما كنت لأطلب أكثر من هذا، خلا أنَّه لم يخطر لي البتة أن أسأله عن مكان إقامته، ولماذا أسأل؟ فدومًا ما افترضت -أو بالحقيقة تبرمجت- أنَّ كل من ألتقيه في مدينتي هو غزاوي.

«آه يا بنت...» بتُّ أعرف مع الوقت أنَّ استهلاله هذا يسبق مشاركته إياي أي تفصيل صادم عن نفسه. «يا إيمان، لو بس تعرفي أنا وين عايش، ما كنتيش تحبي بهبل كل شي يخصني».

ما انفكَّ حسام يقلق روحي ويدفعني إلى الجنون بتكراره تلك الكلمات المزعجة. كان ثمة خطبٌ فيما يقوله ولم أدركه حينذاك لأني لم أكن بعد ناضجة، أو ربما لأني كنت لا أزال بريئة.

«وإيش يهمني انت وين عايش؟ أنت من غزة مش هيك؟ هالشي يكفيني حتى أظلني متأملة».

مع سذاجتي البالغة حينذاك، لم أفكّر في التعمُّق في معرفة التفاصيل.

«شوف حسام، كل إللي يهمني في الرجّال عقله ولسانه: عقل كبير يخليه يقدّرني، ولسان حلو وفصيح حتى يخبّرني إنه يقدّرني».

«الصراحة أشك في كلامك. شو بدها المَرَة بعقل الرجّال ولسانه متى تجوزوا؟ نسيتي إنه أنا محامي، وأساس مهنتي الحكي والتلاعب بالحقائق؟» قال لها ساخرًا.

«طيب، خلينا هلقيت من هالحكي... أنا ما يهمنيش أنت وين عايش وخلاص». نظرتُ إلى ساعتي التي أنبأتني بأنَّ الوقت الآن الرابعة وخمس وعشرون دقيقة عصرًا «يا الله! صار لازم أطلع من المكتبة!» أنهيت المكالمة واندفعت خارجًا.

«على المينا الله يخليك»، قلت لسائق التاكسي على عجل.

قاد سيارّته ثم توقف بعد عدة أمتار لكي ينقل بعض طالبات الجامعة المتجهات إلى شارع النصر.

«لا تعصبي، رح أسوق بسرعة وأوصلهن على شارع النصر، وبعدها آخذك وين ما بدك»، صاح السائق المسن في وجهي.

«بس النصر مش على طريقي! طب ليه أخذتني من الأساس؟»

سألته مغتاظة. وبعدها، لكي أوقف الجدال، أردفت بيأس: «طيب طيب. خلاص سوق».

في الطريق، بقيت أدعو ألا يكون أبي في البيت متى وصلت، وبقيت أتأمل خارج النافذة أتفكَّر في عذرٍ يبرر تأخري. فكرت كم أنا مهملة في تكرار الفعلة ذاتها كل يوم، أقضي ساعتين أو ثلاثًا في المكتبة المركزية أبحث عن غادة السمان وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وشعراء وكتّاب عرب آخرين أغرمت أخيرًا بهم. لم أتوقع البتة وصولي إلى هذه الدرجة: إما أفوت محاضراتي، وإما إذا حضرتها أجلس وحدي في الصف الخلفي وأعزل نفسي عن العالم المحيط بي بين صفحات جبران خليل جبران وخليل مطران وميخائيل نعيمة وغيرهم. تلك كانت خطيئتي الكبرى، إلا أنها أيضًا أثمن صنيعٍ منحني إياه رجل في حياتي. فحديث حسام عن هؤلاء الكتاب أثار غيرتي ودفعني إلى رحلة بحثٍ عنهم وقراءة مزيد من نصوصهم. فقد أغرمت بكل شيء يحبه.

أفقْتُ فجأة من أفكاري العميقة ووجدتني في منطقة نائية لم يسبق أن ذهبت إليها قط.

مرعوبةً صحت على السائق: «إيش هالمكان؟ أنت قلت لي إنك رح توخذ البنات على شارع النصر، صحيح؟ طب هلقيت أنا وين؟»

«آسف والله بس كان لازم أسوق أبعد شوي لأن البنزين قرَّب يخلص والمحطة هيها هون، دقيقة وراجع». وبينما همَّ بمغادرة

السيارة قال: «بدك أشغل لك أغاني؟ عندي أغاني لمصطفى كامل، أغانيه حلوة. تحبي أغيّر الأغنية؟ قولي لي شو تحبي لمصطفى كامل؟».

بقيت صامتة ولم أنبس بحرف خشية أن يتمادى. قلقة ومرعوبة من البقاء في السيارة، بقيت أنظر خارجًا أتحين الفرصة متى انشغل، وبسرعة جريت خارج التاكسي، ووجدتني أمشي في شوارع لم يسبق أن مشيت عليها قط.

«يا ويلي! الساعة قربت تصير خمسة! وين ألاقي تاكسي في هالشوارع الضيقة؟» كدت أبكي وأنا أتساءل كيف تهت في هذه المساحة الصغيرة.

واصلت المشي غربًا، ولفتت انتباهي مجموعة أولاد من المدرسة يتعاركون. لم أستطِع منع نفسي من التوقف وسؤالهم:

«يا اولاد، إيش اسم هالمكان؟».

وصاح عليٌّ الفتى الريّان: «مش عارفة إنه هاد معسكر الشاطئ؟».

«طيب.. طيب، مالك معصب؟»

«لأنه هاد الكلب» وأشار صائحًا إلى ولدٍ آخر: «سرق نصّي! نص شيكل!»

«هاد نصّي، إمّي عطتني إياه»، أجاب الولد الأصغر حجمًا.

ابتسمت لدى سماعي لهجة الولدين، ففي بيتنا نقول «ماما»، دائمًا «ماما».

«خذ هَيْ شيكل كاملة»، قلت للولد الغاضب: «بس بطلوا عراك». حاولت تقليد لهجتهما لكني فشلت.

«ههه! شفت جزاة إللي بيسرق؟ هَيْ شيكل بدل النص!» قال الولد وهو يغيظ صديقه، يضحك بأعلى صوته، غير مصدق حصوله على شيكل كامل.

دومًا ما سمعت بالحياة الشاقة التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون في مخيم الشاطئ، لكن لم يسبق أن منحت ولو ساعةً من وقتي لكي أزور الأماكن التي يعيشون فيها. هذا المخيم لا يبعد كثيرًا عن منطقة الميناء، لكني تبرمجتُ على الاعتقاد أنَّ تلك الأماكن، المخيمات، بعيدة جدًّا عنا.

كل هذه الأفكار تدافعت في عقلي وأنا أمضي أعمق وأعمق في شوارع المخيم الضيقة غير المبلطة، لا سيارات تاكسي هناك تقلني وتعيدني إلى البيت. صفوفٌ من أشباه بيوت بائسة تمتد على جانبي الطرق، لا يتجاوز أكبرها مساحة مئة متر مربع. بدت أشبه بالعلب، علبٍ لم تتشكَّل على نحوٍ جميل، علبٍ غير مطلية، علبٍ تكاد تتداعى. أغلب نوافذها مكسورة مما يسمح للهيب صيف غزة بالتوهج داخلًا، ولا يمنع برد الشتاء ومطره من اقتحام البيت وإزعاج أهله. جدول ماء يشقُّ الأزقة كما الأناكوندا إلى نصفين، الرائحة الزنخة خانقة.

بعدها بقليل رأيت ذاك المنظر البائس للمجاري، يكاد مساره يدخل أحد البيوت. معظم الأسقف مشيدة من قطع هزيلة من

الخشب والمعادن تسمح للماء باختراقها. لو حدث وتباعَدَ بيتان متجاوران عن بعضهما البعض بمتر ونصف، فالجيران في نعمة ولن يسمع أحدهم شخير جاره في الليل. تساءلت إلى أي مدى يحظى أهل تلك البيوت بخصوصية، ثم أدركت أنَّ الخصوصية لا بد آخر همهم بعدما حرموا من أساسيات الحياة الكريمة كبشر، وبدت لي رفاهيةً لا يملك أولاء الناس كلفتها. لولا تلك السجاجيد والبطاطين المعلقة خلف الأبواب أو أمامها لرأيت كل ما في داخل تلك البيوت بمجرد المشي بمحاذاتها.

أثناء مواصلتي المشي صادفت رجلين مسنين يجلسان تحت شجرة سدر عتيقة وضخمة، تقف وحدها بين بيتين. كانا جالسين على كراسٍ خشبية صغيرة. أردت طلب مساعدتهما لإرشادي إلى الطريق، لكني قررت الاستماع إلى محادثتهما، فخففت من سرعة خطاي قدر ما أستطيع.

«والله يا زلمة إنه عنقود عنب واحد من قريتنا *يبنا* أحسن مِيت مرة من عشرة كيلو من هالعنب»، قال أحد الرجلين وهو يتناول حبات من العنب الأسود.

«والله إنه معك حق، الله يرحم حالنا ويرجعنا على ديارنا قبل ما نموت».

«يا زلمة شوف لحيتك البيضا!».

«الله سبحانه قادر على كل شيء، وان شاء الله رح أشوف

قريتي. وحتى إذا مت قبل ما أشوفها، رح أطلب من ربنا يعطيني من عنبها في الجنة».

تلاشى صوتاهما مع مضيّي قدمًا في طريقي نحو المنطقة الغربية من غزة.

ما إن بلغت الطريق الساحلي حيث تعيش عائلتي حتى صدمت، إذ أدركت إلى أي حد الحي الذي أسكنه قريبٌ من مخيم الشاطئ. لأول مرة لا أشعر بمزيدٍ من الأمان لدى عودتي ورؤيتي الوجوه المألوفة والمباني والمتاجر المألوفة، فقد أدركت حينها الفرق الحقيقي بينهم وبيننا. توقفت لكي أتأمل البيوت والمباني التي اعتدت المرور عليها كل يوم دون إلقائي نظرة حقيقية عليها. بيوتٌ من طابقين، من ثلاثة طوابق، من أربعة طوابق، كلها مشيدة بجدران رخامية، والزجاج يغطي أغلب واجهاتها الأمامية. الشوارع في حيّنا عريضة، عريضة جدًّا. الظل الساقط من سبع أو ثمانية مبانٍ شاهقة متى مالت الشمس نحو البحر -البرج الواحد منها بخمسة عشر طابقًا- يبتلع تلك الغرف السحيقة في المخيم.

لم تكن عظمة تلك المباني ما استحوذ على انتباهي، بل التباين المتطرف الذي رأيته اللحظة؛ روَّعتني مأساة الفصل الشامل بين المكان النظيف المشيد بإتقان وبين المخيم الذي بالكاد يبعد عنه مئة متر. والآن أرى عشرات الرجال المهندمين والنساء المتأنقات في طريقهم نحو فندق الديرة حيث يقام زفاف مع بوفيه مفتوح مقابل أربعة أو خمسة آلاف دولار، مبلغ كافٍ لبناء غرفة جديدة في بيت

عائلة لاجئة. يا ترى كيف تشكَّل هذا الصدع الرهيب في عقدين من الزمن، بينما قبله عشنا كلنا سواسية تحت الظروف نفسها؟

منظر الشفق البهيّ ينبئ بقرب أذان المغرب في دقائق، وتنفست الصعداء حين لم أرَ سيارة أبي مركونة خارج البيت. اندفعت داخلًا وصعدت الدرج على رؤوس أصابعي، متوترة وأتلفت حولي إثر أي صوت أسمعه.

«ليه تخليني أعصّب عليكي كل يوم على العملة السودا نفسها؟ والله إنه دمك بارد، هاد إذا كان عندك دم! متى تكبري وتصيري عاقلة؟» انفجرت ماما وراحت تصيح عليّ بمحاضراتها المعهودة. «أبوك مش في البيت، لكن تخيلي، تخيلي بس، لو شافك تدخلي الدار الساعة خمسة ونص!» وواصلت الصراخ في نبرتها العالية الحادة: «هيْ آخر مرة ترجعي فيها البيت متأخرة، المرة الجاية رح أخبّر أبوكي، وانتي عارفة أبوكي إيش يقدر يعمل.».

حبيبتي ماما دائمًا توبخني بهذه الطريقة، وفي كل مرة تهددني بإبلاغ أبي عني، لكنها ما فعلتها قط، في ظرف ساعة تنسى الأمر برمته فقط لأني ساعدتها في غسل الصحون أو في مهمة منزلية أخرى. دومًا كنت أسألها إذا كل الأمهات في العالم يتشاركن جينة الأمومة نفسها التي تنسيهن الأفعال السيئة التي يرتكبها أطفالهن، وإجابتها دومًا كانت: «ما رح تعرفي إلا لما تصيري أم».

حبست نفسي في غرفتي، وجلست أستعيد كل المشاهد التي رأيتها. كنتُ في حاجة ماسة إلى الاتصال بحسام لحظتها.

«معقول يكون...؟» لم أجرؤ على مواصلة تخيُّل الفكرة، لذا اتصلت على رقمه لكي يطمئن قلبي. وبينما كان هاتفه يرن، قلت في نفسي إنه لو كان فعلًا من سكّان المخيم، بالتأكيد سأعذره على عدم إخباري بمكان سكنه.

«أبوكي هراكي ضرب؟» سألني حسام ساخرًا.

«تعرف منيح لو بابا هراني ضرب ما كنتش رح أقدر أحكيك. ماما.. مثل عادتها.. أنقذتني».

«ماما؟ طالبة جامعة وبعدك تقولي *ماما*؟» عاد يسخر مني ثم قال: «قوليها *إمّي*».

وفي لحظة اتضح كل شيء. هذه المرة بدا صوته شبيهًا بأصوات الناس الذين التقيتهم فورًا: «يا الله! كيف ما انتبهت؟ طريقتك في الحكي تشبه لهجة الناس العايشة في المخيم».

«إيش قصدك؟ أخيرًا قوقل عطاك معلومة جديدة عن مكان سكني في بحثك اليومي عن هويتي؟».

«انت لاجئ، ولهيك خبيت هالسر عني. مش عيب حسام إنك تكون لاجئ، بس خبرني الحقيقة وأنا مستعدة أتقبّل الواقع إيش ما كان».

«والله؟ مستعدة؟ يعني إللي عم تقوليه إنه جلالتك تنازلت تنازل عظيم بقبولك إني لاجئ؟ يا الغزاوية!».

«أنا أصلًا قبلتك بكل تفصيل فيك، أنا اللي بدي إياه إنه ما تتخبّاش، وتحب حالك مثل ما انت».

أخذ نفسًا عميقًا وقال: «صحيح ستنا، أنا لاجئ. أحلف لك بكل ذرة تراب في هالمخيم وبكل شجرة فيه، أحلف لك بسما المخيم وهواه إني لاجئ. أنا عايش في مخيم النصيرات».

«آ درست عنه في مادة الجغرافيا، هاد هو المخيم القريب من خان يونس ودير البلح؟» سألته ببراءة، وقطعت عليه خطبته المؤثرة.

«انتي عن جد عم تحكي؟ شكلك في حياتك ما زرتيش هالمخيم، إحنا موجودين حد مدينة الزهراء، خان يونس بعيدة كثير عنّا».

بدا عالمًا بكل مكان موجود في قطاع غزة، وترددت كثيرًا في إخباره بأني قبل ساعة فحسب تهت في مخيم الشاطئ الذي لا يبعد سوى مئات الأمتار عن بيتي. فكيف له إذن أن يتوقع من فتاة مثلي لم تغادر يومًا محيطها أن تعرف بالضبط موقع مخيم النصيرات.

حاولت الحفاظ على هدوئي قدر استطاعتي، مع ذلك مجرّد تخيل المكان كان عذابًا في حد ذاته. دفقٌ لا نهائي من الأسئلة خطر لي، هل سيُحكَم عليَّ بلعنة العيش في مكانٍ مشابه متى تزوجنا؟ هل مخيم النصيرات شبيه بالمخيم الذي تهت فيه مصادفة؟

سارعت نحو حاسوبي وكتبت: «مخيم النصيرات» في غوغل إيرث. ظهرت بضع صور بينت لي أنَّ مخيم النصيرات في حالٍ أفضل بكثير من مخيم الشاطئ، ثم قلت في نفسي: «عن جد أنا هبلة.. هو

عمره ما جاب سيرة الجواز، فإيش إللي يخليني أفكّر إنه بده يصير جوزي؟».

تجرأت وسألت أمي إذا كان أبي سيوافق على تقدّم شاب من المخيم لخطبتي، وهمستْ: «أكيد عم تحلمي! أبوك رح يسأل عن البلدة الأصلية إللي إجى منها، ورح يصر إنه يكون غزاوي».

بعدما غمرني اليأس، عدت إلى غرفتي وأنا ألعن التقاليد الظالمة التي أُجبِرنا على العيش بها.

***

وهأنذا، بعد أربع سنوات، زوجة لاجئٍ آخر، وما زلت أستغرق في ذكرياتي عن حسام. فهو لم يكف عن كونه جزءًا أساسيًّا من نضوجي، من تكريس دخولي الواقع بعدما كنت حبيسة عالم الأحلام.

قبل شهر، فتحت حساب البريد الإلكتروني الذي كنت أتواصل به مع حسام قبل أعوام، ووجدت في انتظاري رسالةً غير مقروءة منه، بعثها إليّ قبلها بشهرين، وانفجرت باكيةً ما إن رأيت اسمه.

عزيزتي إيمان،

بعد أربع سنوات من زواجك، من خسارتي إياك لرجل آخر أكرهه من أعماق قلبي وإن كنت لا أعرف عنه شيئًا، ما استطعت أبدًا نسيانك، ولا استطعت مسامحة نفسي. لم أتوقع أبدًا أنَّ أربع سنوات ستكون كافية لكي يؤسس رجلٌ عنيد نفسه.

إيمان، حين قررتُ إنهاء علاقتنا، ادَّعيت أني فعلت ذلك لكي أحميك مني ومن أبيك ومن عالم المخيمات القاسي، لكني كنت كاذبًا. كنت خجلًا جدًّا وجبانًا، لم أتحلَّ بالشجاعة الكافية لطلب يدك من أبيك. فرغم القليل الذي أملكه كنت متعجرفًا، وما كنت لأحتمل الرفض. الآن فحسب أدرك أنك مغامرة تستحق المخاطرة بكل شيء.

لو لم أكن رجلًا أحمق عزيزتي إيمان لاستجمعت الشجاعة لطرق باب أبيك، الشجاعة لكي أقول له: «طالب إيد بنتك». ظننت أنَّ غزاويًّا يقود مرسيدس بخمسين ألف دولار سيطردني من بيته فورًا إن تجرأت وطلبت يد ابنته، وما كنت لأطيق أبدًا عيش تلك اللحظة. يا لي من أحمق. يا لي من أحمق.

حسام

تسنيم حمودة

هذا رغيفي

«رغيف الخبز الغالي إللي حامله بين إيديّة يا أصحاب وراه حكاية بطولية»، أعلن الصبي الصغير الواقف على كرسي خشبي صغير، وواصل متباهيًا: «وعدتكم اني رح أجيبه، وهيني جبته».

أصحابه، الذين اجتمعوا حوله من كل زاوية وزقاق وحي فقير من أحياء المدينة، أصاخوا السمع إلى رفيقهم الضئيل وهو يتباهى فخورًا باستعادته رغيف الخبز الموعود بعد تلك الأيام الطويلة التي قضوها يرقبون الخبز على عربات البائعين تجول المدينة، تاركةً إياهم دون شيء خلا شذاه المثير. كان الشذى نفسه الذي شمَّه آباؤهم وأجدادهم لسنوات وما حصلوا عليه.

تابع الصبي الصغير حكايته: «كان رجَّال كبيبير وختيار، أضخم رجَّال شفته في حياتي، وحاط على راسه قطعة قماش غريبة مخططة بالأسود والأبيض...».

«كوفية. هيك سمعتهم يسموها»، قاطعه أحد رفاقه. وأدنى الصبي الصغير رأسه إلى كتفي صاحبه وهمس: «إشش، مش لازم يعرفوا». جمهوره الصغير كان مفتونًا برغيف الخبز ولم يلحظ هذا الحديث المختلس بين الرفيقين.

عدَّل الصبي الكيباه على رأسه ومضى يسرد حكايته. «ضليتني أراقبه ليل نهار، ليل نهار، أشوفه بعيني يفرد الخبز على العرباية الخشب الصغيرة وكأنه خبز عادي. آااه يا أصحابي قديش وجعني قلبي وأنا أشوف هالإشي يصير لخبزنا. بس ضليتني صابر ووقفت ثابت مثل اللوح، ولمَّا إجت اللحظة، مشيت ناحيته شوي شوي، لقطت الرغيف وضليتني راكض، وصراخ الختيار يلاحقني».

«الختيار لاحقك؟» صوتٌ من الحشد سأله.

«في الأول ما تحرَّكش، يمكن لأنه ما توقعني أعمل هيك».

لعلَّ القصة ما كانت لتبدو مثيرة لأصحابه لو سرد عليهم بقيتها: كيف أنه ليس بعدَّاءٍ سريع كما خيِّل إليه، كيف كاد يُلقَى القبض عليه وتوسلاته إلى الشرطي أن يرحمه. لم يخبرهم عن إصرار الشرطي، رغم التماس الختيار، أن يساوم الطرفان على الرغيف. الشرطة منحته كسرة من الرغيف وأعادت بقيته إلى الختيار. ومع ذلك، شُدِه أصحابه حين رأوه يحمل الرغيف ويدنيه إلى فمه المبتهج ويزدرد قطعة كبيرة منه.

«وبعدين، إيش صار؟» سأله أحدهم.

«شفقت على الختيار بعد ما انقطع نفسه، أكيد كره إنه ولد صغير مثلي يهزمه»، وزقزق ضاحكًا، صوته يكاد يغص بانتصاره الكبير لا بلقمة الرغيف المسروقة.

«شفقت عليه؟ يعني بدّك ترجّع له إياه؟» سؤالٌ فضولي ارتفع من بين الحشد.

«لأ، رجعت تسللت وأخدت البقية»، قال الصبي الصغير وهو يزدرد آخر كسرة من رغيف الختيار.

شهد عوض اللّه

ذات فجر

كانت أحلك ليالي الشتاء وأشدها بردًا، الظلمة الكئيبة تغطي شوارع غزة الضيقة وأهلها النيام بدثارها الطويل الأسود.

في تلك الليلة كل الأصوات سكنت، كأنما في صمتٍ وقورٍ تعاطفًا مع غزة في الذكرى الحزينة الثانية للحرب الإسرائيلية، التي ما تركت قلبًا وروحًا إلا وخلَّفت فيه جرحًا عميقًا. كنت نائمة، أو بالأحرى أدَّعي النوم، إلى أن حرقت دمعةٌ مالحة دافئة طريقها أعلى وجنتي، ببطء وسلاسة، وختمت رحلتها في سقوطٍ مرتعش من حافة أذني، لتغرق في صمت على وسادتي البيضاء الباردة. تلك القطرة الوحيدة تبعها فيضانٌ جارف من الدموع، كل دمعة تأسى على فقدها العظيم. الدموع خنقتني. نهضتُ يائسة من الفراش علّي أهرب من تلك الوسادة الرطبة المالحة، وإن كنت واثقة تمام الثقة بأنَّ لن يكون في وسعي أبدًا الفرار من تلك الذكريات السوداوية التي باتت الآن تحتل أغلب ذاكرتي وحياتي.

ما إن نهضت حتى وقعت عيناي على ورقة بيضاء منكمشة وقلم حبرٍ أسود، كانا على طاولة مكتبي عسليّ اللون المزدحم بالأغراض. المكتب على يسار سريري، جلست إليه، أمسكت بالورقة في يميني

والقلم في يساري. «هذه فرصتك الآن لكي تتحدي حزنك، إن فشلتِ، كما المعتاد، ستجبرين على معايشة مزيد من الألم والليالي المؤرقة»، تلك كانت الكلمات التي ينطقها كلٌّ من عقلي المشوَّش وقلبي الموجع منذ خسرت قدراتي في التعبير عن نفسي من خلال الكلمات، تلك الوسيلة التي كانت نصيري كلما تسنت لي فرصة الإمساك بورقة وقلم، ودومًا نلتُ عليها المديح والثناء. وهذه الليلة، قررت تلبية نداء روحي. قلبي وعقلي هادئان، يدعوانني في طمأنينة إلى كتابة رسالة إلى الطفل البريء الذي فقدته تلك الليلة.

الوهج البرتقالي المنبعث من إنارة الشارع أضفى وقارًا على قداسة الظلمة تلك الليلة، وانصهر معها في لونٍ ناريّ غير مألوف خطف أنفاسي بغتة، انسلَّ من خلال النافذة الغربية المفتوحة وانعكس على طاولة المكتب حيث كنت جالسة بلا حراك. ذاك الوهج أنار روحي وأشعل رغبتي في التقاط ورقة جديدة أكتب عليها رسالةً كاملة أعترف فيها بخطئي القاتل وأعلن توبتي النصوحة لكي أتخلص من عذاب هذا الندم. وأخيرًا، وضعت قلمي على الورقة وبدأت أدنسها بخطوط سوداء متشابكة تشكَّلت منها حروف رسالتي.

ابني الحبيب،

أريدك أن تقرأ مليًّا كل كلمة أكتبها هنا، لأنَّ ما عاد في وسعي الاحتفاظ بتلك القصة في قلبي. أعدك هذه المرة أني سأحاول إكمالها، ولن أمزقها. فأنا في حاجة إلى أن تفهم ما حصل، في حاجة

إلى أن أشرح لك لأنك كنت نائمًا حين متّ، حين ذبحت. كل ذكرى تعذبني وتذكرني بتلك الليلة الملعونة.

كانت ليلةً باردة، هل في وسعك تذكرها؟

مضت ثوانٍ ولم أحصل على إجابة، فواصلت الكتابة بإذعان.

أنا موقنة أنك تتذكرها، فقد كانت ليلة باردة حقًّا. كنت نائمًا إلى جانبي، أنفاسك الدافئة تمس وجهي وعنقي، قلبك يخفق في دقات متناغمة رقيقة اعتَدْتُها. كانت الهدهدة الرقيقة التي استحال عليّ النوم من دون الإحساس بها وأنا أتأمل قسمات وجهك المثالية التي خلقك الله عليها. فقدتُ تلك البراءة حين فقدتك تلك الليلة. أنت تشك فيما أقول، أليس كذلك؟ لكنها الحقيقة المطلقة، طفلي.

انتظرت مرةً أخرى، لكن لم أنَل شيئًا سوى بقايا كلماتي المخنوقة، تلك الكلمات التي لم أقلها قط. وواصلت.

نحن -أنت وأنا، وأمي وأبي وإخوتي وأخواتي- كنا جميعًا نائمين في غرفة الطعام في بيتنا. ظننا أنها الغرفة الآمنة، لكن للأسف لم تكن. قبلها بعدة ليالٍ، اقترح بابا أن نغادر جميعنا غرف النوم وننام معًا في غرفة الطعام، إذ خشي أن تتهشَّم نوافذ غرفنا إثر قصف القنابل الذي هيمن على ليالي غزة وأيامها.

الريح الغربية واصلت هبوبها الرقيق عبر النافذة خلفي. باتت عادة لديَّ أن أنام والنافذة مفتوحة، لكي أخلص نفسي من رائحة الموت وصمت القبور الذي ما انفك يذكرني بوحدتي. رجفةٌ هزَّت

أوصالي وأنا أستدعي ذكريات تلك الليلة وأنتظر بجنون أيّ ردٍّ من ابني. صيّرتني الريحُ الغربية تمثالًا رخاميًّا في ظلمة صقيع الشتاء القارس، ولأمدٍ قصير شعرت بأنها تطهّرني، تبسط عليَّ جناحيَّ البراءة، لكن محاولاتها ضاعت عبثًا، وبقيت مجروحة.

السماء تبرق وتمطر، قطرات كريستالية صغيرة من المطر تسللت مع الريح إلى الغرفة وبرفقٍ ترتطم بي قبل أن تسيل على عنقي العاري. عاودتني الرجفة. ابتسامة صغيرة أفلتت من شفتيّ حين بدأ الهواء المرتعش يعبق برائحة التراب الموحل.

الجو ماطر. قبل تلك الليلة بأيام كانت الأجواء صامتة خلا صوت المطر المزعج. وكم كانت صورتك ظريفة حين رسمتك جالسًا تحت المطر. في الواقع، يومها لم تكن خارج البيت تحت المطر. يومها كنت جالسًا أجرد الرأس وبردانًا بشفتين حمراوين كما الفراولة وبملامح طفولية أشبه بهريرة تتسوَّل الحب، تزفر أنفاسك على الشباك المتجمد خالقًا عالمك من البخار لكي تخربش عليه بإصبعك الصغير. كنت تضحك من كل قلبك وأنت ترسم عالمًا جديدًا من البخار وتهدمه الكَرَّة تلو الكرّة. لحظتها كنت أنا أيضًا أستمتع بصوت المطر نفسه وعبق التراب نفسه، أرسمك بأصغر تفاصيل ضحكتك المزقزقة كلما هوت قطرات مطر رقيقة على رأسك الأجرد.

كنت تنزعج مني كلما ناديتك بابتسامة تحريضية «يا أقرع»، أحيانًا كنت تبكي فيتقطع قلبي عليك، وأحيانًا كنت تضحك

ضحكتك الفاتنة. لا أدري لماذا، لكني أحببت مناداتك «يا أقرع». أتبكي أم تضحك الآن، ابني؟ هل مناداتي إياك «يا أقرع» وقد كبرتَ عامًا يسعدك أم يغضبك؟ ليتني أعرف.

في تلك الصورة، كان ثمة قطرات مطر على رأسك، وأخرى ترتجف على رموشك. كنت جالسًا على العشب الرطب، تضحك بعينين سوداوين لامعتين. أحببت تلك الصورة بقدر حبي المطر، فقدتها في الليلة نفسها التي فقدت فيها عينيك البراقتين وابتسامتك الحلوة...

الدمعتان الحبيستان على حافة عينيّ تحررتا.

تلك الليلة في الساعة ٤:٥٠ صباحًا أيقظني منبهي على الصوت الهادئ لأغنية تراثية يطلب فيها المنشد من أمه ألا تحزن عليه بعد شهادته لأنه سيكون في الجنة. لطالما أحببت تلك الأغنية، لكن ليس بعد ما حدث لاحقًا تلك الليلة، بعدها بتُّ أتقزز منها. أطفأت المنبه لكيلا أزعجك والنيام الآخرين في الغرفة، ونهضت لكي أصلي ركعتين قبل صلاة الفجر. كنتَ قد استغرقتَ ليلتها بسرعة في النوم، والآخرون كانوا مستغرقين في نومٍ عميق بعد معركة طويلة مع الأرق إثر طنين عشرات الطائرات الحربية التي ما انفكت تحوم في سماء غزة لأسبوعين. الظلمة كانت قد بسطت سلطتها، فأشعلت مصباحي لأتفادى الدوس على إخوتي الرجال النائمين على الأرض. تجاوزتهم دونما جلبة، توضأت استعدادًا للصلاة ودخلت غرفتي، قلبي يغمره توقٌ جارف يذكرني بالليالي

والأيام الطويلة التي قضيتها فيها أسرد القصص عن الماضي الذي ذاب وأبشّر بالمستقبل الساطع الذي ينتظرنا. المستقبل تفسَّخ تلك الليلة والأمل انحلَّت خيوطه. أنت وحدك كنتَ أملي، مستقبلك أنت منح حياتي معنًى.

بدأت أصلي وأدعو الله أن يحفظ عائلتي وبيتي من كل سوء، وقبل أن أختم دعائي بلحظة، هزَّ انفجارٌ هائل البناية، ثقبَ أذنيَّ ورمى بي أمتارًا بعيدًا عن سجادة صلاتي، الانفجار توازى مع الدوي المرعب لتحطم الزجاج داخل بيتنا وخارجه. جريت مرعوبةً نحو غرفة الطعام، الكل كان قد نهض ممسكًا بمصباحه ويجري مذعورًا في أرجاء الغرفة للاطمئنان على البقية. لم يصب أحدهم بأكثر من خدوش بسيطة. مرت ثوانٍ وعاد الهدوء، قداسة الظلمة وسكونها سيطرا على المشهد. أما أنت، فقد بقيتَ نائمًا، ولا بد أن أعترف أني ابتسمت حين وجدتك نائمًا دونما اكتراث. أمي ظلت قلقة وطلبت من أخي أن يصحبها للاطمئنان على عائلة خالي التي تسكن في الشقة المجاورة لنا. خالي فتح بابه في اللحظة نفسها التي فتح بها أخي وأمي بابنا، وقال: «لا تقلقوا كلنا بخير، لكن إيش هالانفجار؟ يستهدفوا ميـ..» وقبل أن يتم سؤاله انفجارٌ أكبر ضرب السلالم بين الشقتين.

البناية بأكملها ارتجَّت، غبارٌ أبيض عمَّ المكان، ووابلٌ من حصى الحطام اندفع بعنف نحو شقتنا، أبوابنا انخلعت، الكل للحظة وقف مرتجفًا، وأنت ما زلت نائمًا. للحظات نسيتك. أمي شرعت تصيح:

«انطقوا الشهادة وانزلوا! اطلعوا هلقيت من الدار! الصواريخ تستهدفنا!».

وضعت قلمي جانبًا في محاولة يائسة لإيقاف طوفان الذكريات المؤلمة الذي بدأ ينجرف نحو عقلي المجهد. لم أستطِع. لا بد لابني أن يعرف كل تفصيل لكي يسامحني.

كلمات أمي ظلت عالقة في أذني: «انطقوا الشهادة وانزلوا»، عدا أني لم أنزل فورًا. توجهت نحو غرفة الطعام لكي أحملك، لكن في طريقي إليك مررت على غرفتي لكي ألقي نظرة أخيرة وأرسم آخر صورة لها في ذهني. رأيت كتبي المبعثرة في انتظار نهاية تلك الحرب الشنيعة، ترجوني لكي أمسك بها من جديد كما اعتدت منذ التحاقي بالجامعة قبل عامين بعد استشهاد أبيك. رأيت أرففي المحتشدة بالكتب، خزانتي، سجادة صلاتي، وحتى نظارتي الحمراء، كلها مبعثرة هنا وهناك. صوت أمي يتردد صداه بقوة: «انطقوا الشهادة وانزلوا». لم أكن واعية بما يجري، كنت قد غادرت غرفتي متجهة نحوك في غرفة الطعام حين رأيتُ أبناء خالي الصغار يدخلون شقتنا وهم يبكون بدل النزول إلى الأسفل. كانت الظلمة حالكة، وصياح بكائهم عاليًا. سألت أحدهم: «شو بعدكم تعملوا هان؟ ليش ما نزلتوا؟» وأجابني في صوتٍ مرتعش: «مش قادرين نشوف، معنَاش ضو». وانتابني قلقٌ شديد أن يدخل أحدهم غرفة أخرى وننساه في الظلمة، فقلت لهم: «يلّا يا اولاد، الحقوني»، وخرجت بهم بسرعة.

أحدهم قال: «مش قادر أمشي، الحجارة توجع رجليّ بدي جزمتي، مشان الله بدي جزمتي».

«معنَّاش وقت حبيبي، رح نجيبه بعدين». كنت موقنة أننا أبدًا لن نسترجع حذاءه.

بعد ثوانٍ من خروجنا، صاروخٌ ثالث ضرب الطابق الثالث، حيث كنا.

«أنا كنت هون ماما، وانتي تركتيني. ضليتني لحالي ماما أبكي وأصرخ».

صوت ابني يخترق أذنيّ. رجفةٌ سرت في أوصالي وألقيت القلم من يدي، مصدومةً من رؤيتي إياه أمامي، جالسًا في ردائه الأبيض، برأسه الأجرد، بعينيه البراقتين، ينظر مليًّا إلى عينيّ السوداوين الدامعتين، يقول لي مبتسمًا: «أنا لحالي في البيت ماما». لم أستطِع التعامل مع الصدمة وبقيت صامتة لبرهة، أحدق إلى صورة ابني الغبشة.

غضب الطبيعة اشتد، هدير الرعد يدوِّي عاليًا، الرياح الغربية تعصف بقوة، صاعقة برقٍ أضاءت الغرفة، وبدا طفلي مثل شبح أبيض ساطع بعينين مشتعلتين. ما كان في وسعي النطق بكلمة، صوت ابني يخفت ويخفت، يكرر عليّ الجملة نفسها: *«كنت لحالي، ماما. كنت لحالي، ماما...»*. ثم تلاشى.

جلستُ جامدة تمامًا عن الحراك وما قلت شيئًا إلى أن هبَّ نسيمٌ على جسدي أعاد الحياة إلى وعيي. مترددة، أمسكت قلمي مجددًا، مصممة على المواصلة حتى النهاية، وكتبت.

بقينا نحو ثلاث دقائق في بيت جارنا، ننتظر الصاروخ الأخير ينهي قصة بيتنا، أذان الفجر ينادي «الله أكبر، الله أكبر..». يقطع علينا أشقَّ لحظات انتظارنا. انفجار قذيفة إف ١٦ المهول بدَّد صوت الأذان وصمَّ آذاننا. جسدي المكروب وهن، أهمس في أنفاسي: «كله راح... كله راح». بعدها بثوانٍ غادرت بيت جارنا ورأيت بيتنا يشتعل كما البركان. لا شيء سوى النيران. ولم يخطر على بالي شيء. ما قلت شيئًا وما فعلت شيئًا سوى التحديق بقلبٍ مخلوع إلى ذكريات حياتي تحترق أمام ناظري، وحينها، فجأة، لمعت صورتك في بالي. هرعت كما المجانين إلى البناية المحترقة، أنادي على اسمك وأبكيك بحرقة، لكن أبي قبض على ذراعي بقوة مانعًا إياي من الدخول. كان موقنًا أنك مت، لا أحد ينجو من تلك النيران المضطرمة، فما بالك بخمسة عشر كيلو من الجسد الطريّ. صرخوا ينادون على عربة الإطفاء والإسعاف، المشهد المروع كان موجعًا يفوق الاحتمال، وغبت عن الوعي.

في تلك الليلة فقدتك. تذكرتك مرة أخرى حين استيقظت في المستشفى، وتذكرت أني تركتك وحدك هناك. أدركت أني سأبقى وحدي بعد استشهادك واستشهاد أبيك. انت لحالك وأنا لحالي، تضل لحالك وأضل أنا لحالي، مت لحالك وأنا رح أموت لحالي. في

تلك الليلة اشتقت إلى أنفاسك الدافئة، إلى هدهدة دقات قلبك، إلى ابتسامتك الفاتنة. في تلك الليلة فقدت ابني.

قلمي وقع من يدي بهدوء، سيل دموعي يحتبس في عينيّ، رأسي المثقل ضرب الطاولة وانتحبت عليك موجوعة القلب. لساني ما كفَّ عن ترداد كلمة «لحالي» مبدِّدًا صمت تلك الليلة. لم أسمع شيئًا سوى صوت أمي تهمس: «قلبي موجوع عليها، لهسّة حزنانة عليه، لهسّة تكتب له كل ليلة، بس إللي بيموت ما بيرجعش».

هي تهمس وأنا أنوح: «أنا وأنت عشنا سوا، ولحالك مُتِتْ».

رفعت العرعير

الشيخ والحجر

«.. وأريدك أن تدفنه معي، هذه وصيتي لك. احتفظت به دهورًا وما تركته قط يغيب عن عينيّ ولا يغادر جيبي. تتذكَّر عمّك صادق، الله يرحمه، الذي مات وأنت في الخامسة؟» كفَّ أبو يوسف عن الكلام لثانية كي يلتقط أنفاسه. لم يرد البتة أن يمنح ابنه يوسف أي فرصة للإجابة عن سؤاله، فقد علَّمته الحياة شذرتين من الحكمة: أطفاله لن يفهموا أبدًا مبعث شغفه بالأشياء، وإن فهموا فآراؤهم ستنمُّ على الأرجح عن سطحية تفكيرهم.

وعلى أي حال، قاطعه يوسف قائلًا: «بالكاد أتذكره».

«أحضره معه من القدس. ظنَّ أني مجنون وسخيف لإصراري على إحضاره حجرًا أو حفنة رمل من القدس. لكني أبدًا ما كنت سخيفًا ويستحيل أن أمزح بشأن أي أمرٍ يخص القدس». حين لاحظ سرحان ابنه، وكزه بمرفقه. وقاطعه يوسف مجددًا: «كيف تفعلها، بابا؟».

«أفعل ماذا؟».

«تسرد قصة بهذا الحماس والشغف»، قال يوسف، نصف مازح ونصف جاد.

«حين أخبرك أن تدفنه معي، فأنا أعني تمامًا أن تدفنه معي. احرص على دسّه في يدي، أنا موقن أنّي سأقبض عليه. لكن إن لم يحصل، اربطه بقبضتي»، قال الشيخ المسن متجاهلًا ابنه، إما لأنه لم يلحظ التهكم في نبرته أو ربما لأنه لم يرد أن يلحظها.

وأجابه يوسف: «بابا.. أنت ما زلت شابًّا، لماذا تريد الموت في عز شبابك؟».

«واحرص أن يعرف الجميع بالأمر، فهو ليس بسر، ولا ينبغي أن يبقى سرًّا. أعرف أنك ستخجل من إبلاغ الآخرين بشأن الحجر لظنّك أني مجنون. لكن حتى عمك، أَعْنَد رجل مشى على وجه الأرض، اقتنع أخيرًا وأحضره إليّ، ربما لأنه أراد التخلص من إلحاحي أو ربما خشي أن أترك البيت وأشد رحالي في رحلةٍ شاقة إلى القدس فقط لكي أحضر حجرًا. ما همَّني السبب، المهم أنه أحضره إليّ، من القدس، حجرٌ من القدس. وعلى خلاف كل أولئك الناس الذين تراهم كل يوم، أنا خيرٌ منهم جميعًا لأني أمتلك في يدي جزءًا من القدس»، أجاب الشيخ المسن، نبرة صوته تعلو كلما نطق «القدس».

«بابا، لو كل واحد يحب القدس أخذ منها حجرًا أو صخرة أو حفنة رمل لن تتبقى قدسٌ لنا، كانت ستنفد. صورةٌ لها كانت ستوفر عليك كل العناء والإحراج الذي تسبب بها ذاك الشيء..».

«ليس شيئًا»، قاطعه الشيخ المسن في ردة فعلٍ آلية.

«أي شيء تعني؟» استفهم يوسف.

«أعني الحجر. الحجر ليس شيئًا. هو حجر، حجر من القد..».، أجاب أبو يوسف وقد بدأ صبره ينفد.

«طيب، طيب، بابا، طيب، هو حجر»، ثم جأر: «الحجر!».

«كيف للصورة أن تشبه الحجر الذي تشبَّع بمطر القدس وحرّها وبردها وترابها ورائحتها؟ هذا الحجر هو القدس، هو القدس». أجاب الشيخ المسن، هذه المرة يشدد على كل كلمة ينطقها، ويلتقط أنفاسًا قصيرة بينها.

«كيف؟» سأل يوسف، الذي سمع الإجابة نفسها مئات المرات.

«لم أنسَ القدس يومًا واحدًا منذ حظيت بهذا الحجر منذ ثلاثة عشر عامًا وشهرين. حين أهداني إياه عمك، كنتُ..».

«هل ما زلت تريد زيارة أختي الأسبوع القادم، بابا؟» قاطعه يوسف عمدًا في محاولة منه لتغيير الموضوع.

«أجل!» ردَّ بحدة، ثم واصل: «لو بيدي لحلفت بالله العظيم أنَّ هذا الحجر هو من يوقظني أحيانًا لأداء صلاة الفجر».

«أكيد هو الذي يوقظك بابا، إذا نمت على جنبك حيث الحجر في جيبك أكيد سيوقظك». ردَّ يوسف على أبيه بجواب مفحم ومتهكم.

«أنت لا تفهمني، وحياة الله لا تفهمني. لا أعني ذلك، ما أعنيه».

في محاولة أخرى لقطع استطراد الشيخ المسن في الشرح، سأل يوسف: «ممكن أمسكه، بابا؟».

«هه.». ردَّ أبوه مستغربًا من اهتمام ابنه المفاجئ بالحجر، ووجد صعوبةً في التخلي عنه.

«بابا، ممكن أمسكه؟».

«طيب، بس دير بالك»، أجاب أبوه مترددًا.

«طيب»، قال يوسف، ومدَّ يده متعجلًا للإمساك بالحجر.

«دير بالك!» صاح الشيخ المسن.

«لا! هيك الموضوع زاد عن حده كثير بابا! بجد صار محرج ومزعج... الحجر! الحجر! الحجـ..».

«إخرس!» صاح أبوه وقد احمرَّ وجهه، وبسرعة انتشل الحجر من يد ابنه.

«دعني إذن أخبرك، أحمد ابن أخوك أخبرني منذ زمن طويل أنَّ عمي صادق كذب عليك»، أجاب يوسف وقد علا صوته هذه المرة على صوت أبيه.

«إيش تقصد *كذب عليك*؟» سأل الشيخ المسن بنبرةٍ آمرة، آملًا أنَّ ابنه قال ما قال رغبةً في مضايقته.

«عمي صادق أبلغ أبناءه قبل أن يموت بأن يخبروك الحقيقة عن الحجر، أنه ببساطة ليس من القدس، *الحجر مزَيَّف*».

«إيش قصدك إنـ... إيش قصدك إنه مش من القدس؟ إذا صادق خبَّر ولاده هالإشي، ليه ما حدا خبَّرني؟».

«لأنهم يعرفونك جيدًا، بابا، وخافوا عليك أن يقتلك هذا الخبر! عمي صادق قال إنه شعر بالغباء لانحنائه والتقاطه حجرًا من القدس، لذا أحضر إليك حجرًا وجده أمام باب بيته، *الحجر مزّيف بابا*». فسَّر يوسف لأبيه والندم يغمره لإفشاء السر الذي صارع سنوات لكي يحتفظ به.

«بطّل تكذب عليّ! بطّل تحكي مزيّف، *الحجر مش مزيف*! الله يلعنك!» صاح أبوه بمرارة، إذ ما سبق له أن لعن في حياته.

أجاب يوسف بحسم: «أنا لا أكذب، بابا».

«الله يحرقه في جهنم الحمرا! من الغباء أن ينحني في القدس لالتقاط حجر؟!» دمدم أبو يوسف في فورة غضبٍ عارم لم يسبق أن اعترته من قبل. هو في حياته ما شتم أخاه قط.

«هوّن عليك بابا»، غمغم يوسف في صوتٍ واهن، كان يعرف جيدًا ما يفعله أبوه في نوبات غضبه.

«أهوّن عليّ؟» ردد أبو يوسف صدى كلمات ابنه: «خليه يحترق في جهنم... هو إللي.. إللي عطاني هالحجر... هاته!... هاته!...».

وضع أبو يوسف يده اليسرى على صدره، يحاول جاهدًا التقاط أنفاسه، وقع أرضًا، عيناه مفتوحتان على أشدهما، تحدقان إلى الأعلى، يده اليمنى تقبض على الحجر.

«بابا! بااابااا! بابا خليك معي! بابا خليك معي! باااباااا!»

آية رباح

لا شيء يبرِّر ندوبنا

أردت أن أكون وحدي وأفرَّ من كل شيء. حلمي أن أكون مثل زهرةٍ متفتحة يكسوها المعنى السحري للدفء والحياة. اشتقت إلى ابني سلام وإلى ابنتي حياة، ولا أدري لماذا اخترت هذين الاسمين لهما. ربما كانت طريقتي في تحدي طبيعة العالم الذي ولدا فيه.

***

اعتدت سماع صراخ أمي من المطبخ، وسماع صيحات أشقائي المرحة تتردد أصداؤها في كل مكان.

بعدها كل شيءٍ تبدَّد؛ أمي، أشقائي. بيتنا اختنق بروائح مروعة. الشمس الساطعة بجناحيها الملائكيين الشفافين حضنت البيت، بعدها ما عدت أرى شيئًا خلا السلام الحالك. أجل، يمكن للسلام أن يكون حالكًا.

ما زلت أرى وجه أمي الشاحب جليًّا كما البدر. لطالما قالت لي: «انتي أنانية»، وما عرفت يومًا السبب الذي جعلها تراني على هذا النحو. لكن من بعد الحادث خطر لي تفسيرٌ مقنع: أنا الناجي الوحيد من عائلتي، أردت الحياة أن تكون لي أنا لا لأحد غيري.

والآن بات لزامًا عليّ قضاء ما تبقى من حياتي أمحو وصمة العار المحفورة بكلمات أمي على جبيني.

صيحات أشقائي لا تزال تدوّي كما الرعد في كل مكان أذهب إليه، أجسادهم المتقطعة تنبثق فجأة في أحلامي كما البرق الساطع. دفنوا تحت وابل خرساني من أنقاض بيتنا القديم، دفنوا هم ومخاوفهم ويأسهم، ولربما حتى مع أملٍ لن يتحقق الآن في هذا العالم القاسي. لا أحد يعرف ما آخر خاطرٍ مرَّ على أذهانهم، ومع رحيلهم كل ما في وسعي فعله تخيُّل إن كان ذاك الخاطر مظلمًا أم مبهجًا.

حقل القمح خلف بيتنا لا يزال يسطع بتلك الذكريات المرهقة العتيقة، لم يتغير شيء سوى نظرتي إليه.

«هَيْ أرض المعارك»، قلت لحياة وأنا أشير إلى الحقل لدى عودتي إلى بيتنا القديم لأول مرة. فأنا لأمدٍ طويل عجزت عن مواجهة الحقيقة الفظيعة، حقيقة كوني الناجي الوحيد من مجزرة مروعة.

كانت الساعة الواحدة صباحًا، خيوط الهواء السائبة تلفني كما الأشباح. سألتُ أمي: «إن وقع أمرٌ سيئ لنا، ما عساني أن أفعل؟».

«اهربي، حبيبتي».

«أهرب إلى أين؟».

«إلى الله، إلى الجنة عند ربنا حبيبتي».

ابتسمتْ.

بدا كأنَّ أمي تستعير كلماتها من كتابٍ مقدس. هي التي فرَّت إلى الله لا أنا. فرَّت إليه مع ريح الشتاء، مثل أوراق الخريف المتساقطة.

كلما قطفت أمي اللافندر من ساحة البيت الخلفية، بدت مثل وليٍّ صالح يكتنفه ظلُّ عرش الله. ولأني كنت خائفة منهم -من محتلي أرضنا- كانت دومًا تذكّرني: «كلما ماتت الأخلاق في روح بني آدم، سيرتكب مزيدًا من الجرائم». ظننتني نسيت كلامها، لكن كلما وقعت أحداثٌ في حياتي، لا سيما السيئة منها، فورًا، وعلى نحوٍ غريب، أستحضر من الماضي تلك النصيحة، أو تلك الحكمة، أو ذاك النذير.

حين أيقظوني في المستشفى، لم أكن في حاجة إلى أي دليل لأستشعر التغيّر الذي أصابني. التفتُّ نحو الممرضة وسألتها: «هل أنت حقيقية؟».

«لا تقلقي، أنت في المستشفى. لا بأس، لم تتعرضي لإصابات بالغة».

أغلب الأوقات، في المستشفيات، يخبروننا بما نعرفه أصلًا أو بما نخشاه. كان في وسعي رؤية زيّها الأبيض، وكنت لا أزال أتذكر كيف وضعوني في سيارة الإسعاف دون تغطية وجهي كما فعلوا مع عائلتي. تمنيت لو كان في وسعي إخبارها أني أعرف، لكني التزمت الصمت. أردت إجابة أبسط فحسب، إجابة تخبرني بأنَّ كل ما جرى

ليس سوى حلم وكل شيء سيغدو على ما يرام، كذبة مثالية خيرٌ من إبلاغي الواقع بمنتهى القسوة.

حاولتُ الابتسام للممرضة، لكني عجزت، شعرت كما لو ثمة قناعٌ على وجهي.

«وجهي؟»

«جرح سطحي، لا تقلقي، سيشفى مع الوقت».

رغم إجابتها المطمئنة، لكني لم أرد منها أن تفسر لي أي شيء، فكل شيء بدا تافهًا وقتها. لا شيء يهم: لا وجهي ولا مستقبلي، ولا حتى الحرب التي نجوت منها وعلَّمتني معنى الفقد. في الواقع، لم أرد لجرحي أن يلتئم، كنت راضية بهذا الخزي الملموس الذي سيذكرني دومًا بمن فقدوا حياتهم لكي ينجو آخرون. هذه المرة لا مفرَّ من عاري، ولا أريد مفرًّا منه. الناس في الخارج لا بد يحاولون الآن لمَّ شتاتهم من الحرب، وتصوَّرتُ غزة في خيالي كما لو أنها استحالت مستشفًى شاسعًا كلٌّ من فيه يعاني.

حتى في هذه اللحظة، لا أزال ممتنة للريح التي حملت روحي أعلى الغابات والجبال والسحب، الريح التي حملت يدي برقة وساعدتها على التحرك نحو وجهي ومنحتها الجرأة على لمس الندبة الدامية. كانت الندبة مدفونة تحت ركامٍ من القروح، وقلت في نفسي: «قد تبدو الأمور مطمئنة ما دمنا لا نفكر فيها، لكن ما إن نفكر فيها حتى تستحضر أقسى الذكريات».

وهكذا أصبحتُ الفتاة ذات الندبة.

***

المشهد خلف ابني سلام بدا مثاليًّا كما لوحةٍ عتيقة، لكن ابتسامته الساخرة أخلَّت بالتناسق. أبدًا ما ابتسم وأنا واقفة أمامه، ولطالما أذهلني ذلك. لمستُ بحنوٍّ الندبة الحارقة على خدي الأيسر، فقد كان ينظر إليّ كما لو كان يهاجمني بصمت، من خلفه تمتد حقولٌ شاسعة من الذرة الخضراء مثل رياض الجنّة. أردته أن يبتسم، أردت الربط بينه طفلًا وبين مثالية المشهد، لكن ما كان ليصغي إليَّ. عيناه المشفقتان مسمّرتان على المأساة المحفورة على وجنتي.

«معلِش ابني، بدي إياك تضحك للكاميرا».

«مش قادر، مبحبش الكاميرات، ومبحبش الصور».

غادرت غرفته، إذ لم أرد مضايقة ابني الوحيد.

***

ذات مرة سألتني أستاذة التاريخ بغتةً: «هل في رأيك يعيد التاريخ نفسه؟».

الطقس حار وكنت أتعرَّق، بالكاد أستطيع التنفس، فهذا السؤال مسَّني في الصميم. كنت محطَّمة، أقف وأنا أغطي وجنتي -اعتدت فعل ذلك كلما وجدت نفسي مرْكَز الاهتمام- ثم بكيت. بكيت بحرقة حدًّا ما عدت أشعر بالحر الحانق، كما لو أنني في فقاعة لا أسمع فيها شيئًا سوى ذكرياتي المدفونة. الكل في الفصل،

من ضمنهم أنا، دُهِش من ردة فعلي. بعد وهلة طلبت مني أستاذة التاريخ الجلوس، وأخيرًا تكلمتُ: «في نهاية المطاف كل البشر... كلنا.. سنتحول إلى تراب. في رأيي التاريخ لا يعيد نفسه، لكن إذا عدنا إلى الماضي، حين نفكّر فيه، ستسيطر ذكرياتنا على رؤيتنا حاضرنا ومستقبلنا». كنت مدركة للنفاق الذي تضمنته إجابتي، فالذي شغل بالي لحظتها ندبة أمي على كتفها الأيمن.

أستاذة التاريخ لم تقبل إجابتي، فهي تؤمن بعالمٍ منظَّم جدًّا حتى إن عنى ذلك تكرار الألم الذي سيعيشه المرء فينا المرّة تلو الأخرى. ولا بد أن أعترف هنا، أنَّ مع مرور الزمن بتُّ أتفق مع أستاذتي، التاريخ فعلًا يعيد نفسه على الدوام، ليس بالضرورة على الشاكلة نفسها، لكن في إنزاله التشوه ذاته علينا.

***

بينما كان الموت يحصد أرواح عائلتي، الواحد تلو الآخر، وقف أعلى جسدي وأعفاني. لم أرغب في العبور. كان شهر أغسطس وأردت لجسدي أن ينصهر على مسام الرمال. لكن لماذا أعفاني؟ لماذا لم يعتبرني الموت مجرمًا مشبوهًا ويلقي بي في السجن؟ لماذا اختطف حياة وتركني أعيش؟

لم تمت حياة في زمن الحرب، لكن ما كان أيضًا زمن السلم. قذيفةٌ قتلت عائلتي، ومرضٌ فتَّاك سلبني حياة. فالمرض، كما الرصاصة، اخترق جسدها. لم يتسنَّ لي توديعها، وقفتُ مشدوهة، أتساءل لمَ تأخذ الأمور كلها هذا المجرى. وفي كل مرة أواجه فيها

معضلةً ألوم ندبتي، فهي أشبه باللعنة. ندبتي أجبرتني على الزواج برجل مبتور اليد، وعذَّبتْ طفليّ كلما نظرا إليها. فلا أحد يحب المشوه سوى خالقه.

مرض ابنتي كان إعلان حرب، إذ حتى قبل إصابتها بالمرض كانت ترى الموت في كل مكان.

اعتادت أن تقول: «الشجرة عم تتحرك، الشجرة عم تقتل، قديش بكره الشجر».

أعرف أنها كانت تقصد الجنود الذين تراهم في الأخبار وكيف يستخدمون زيهم العسكري للتمويه والاختفاء بين الشجر، لكنني لم أرد لابنتي أن تكره الطبيعة. مع ذلك عاندتني وظلَّت مصرة أنَّ رؤياها حقيقية: «صدقيني أنا شفتها تقتل، ماما، شفتها بعيني».

كل هذا حدث في ماضٍ بعيد، فابنتي الحلوة الصغيرة استحالت رمادًا مشتعلًا في أعماق قلبي. ولا أعرف كيف أفسر رؤيتي وجهها على الدوام في اللافندر، حتى بعد سنوات على موتها. أضحت تذكيرًا بأمي التي أحبَّت زهور اللافندر. للأسف أمي وابنتي اجتمعتا الآن في إطار الفقد نفسه، كلتاهما على المسافة نفسها بعيدًا عني.

لم أعرف أنَّ اللافندر إشارة، أنَّ اللافندر كان إشارة.

***

بعد مغادرتي غرفة سلام ذهبت إلى محل بائع الورد لكي أشتري

زهور لافندر، لكني يومها لم أشترِ اللافندر، بل شجرة صغيرة. حين وضعتها إلى جانب مكتب سلام همست إلى ابنتي، موقنة تمام اليقين أنها معي وتسمعني: «شفتي حياة، الشجرة متتحركش».

***

البيت. فجأة انبثقت هذه الكلمة في عقلي كما اللهب. شعرت بأني باهتة، أسرفت في شرب الماء إلى أن اتحَّدتُ مع ظلي على نحوٍ مريع، وظلي ازداد حزنه وامتد طوله إلى أن بات أطول وأشدَّ حزنًا مني. ظلّي أبدًا لا يختفي، حتى في غمرة الضوء الساطع. بيتنا تأثر على نحو طفيف بقذيفة موجهة إلى سيارة عبرت شارعنا. الشبابيك فحسب تهشَّمت، وهذا كان كافيًا للتاريخ حتى يعيد نفسه ويخلّف ندبةً على جسد سلام.

***

حين غادرنا أنا وسلام المستشفى، استأجرنا دارًا جديدة، وبذلنا أقصى جهدنا لتحسين الوضع الجديد على أمل أن تتحسن الأمور مع الوقت. كانت الدار شاحبة مثل رجلٍ ميت، ضيقة كما القبر. كنت على وشك رفع المرايا عن الجدران حين صرخ سلام: «خليها، لا تنزليهاش».

حين اقترب من المرآة في الردهة، وقف ثابتًا كما النخلة. لم يهوِ. ندبته كانت مقبولة أكثر من ندبتي. أحضرت شجرة صغيرة إلى دارنا الجديدة، وهناك رأيت روح طفلتي المضطربة، وهمست كما اعتدت

أن أفعل منذ موتها: «شفتي يمّه، ثابتة متتحركش. متخافيش، القتل وقَّف».

***

«عيد ميلاد سعيد يا سلام! طفّي الشمع وتمنَّ إللي بدك إياه!» الكل صاح في صوتٍ مكثّف غير مألوف، التقطت فقط ذاك الصوت الخافت المتلاشي لابني. حوَّلت بصري في أرجاء الغرفة، تعثرتُ بكل الوجوه فيها إلى أن وقعت عيناي أخيرًا على وجهه. كان واقفًا كما الطير المذعور، يلوّح بجناحٍ ويخفي بالآخر ندبته. كلانا طفونا أعلى الفوضى، نشكل عالمنا المنفصل على هيئة فقاعة من نور. نظرت عميقًا إلى عينيّ ابني، أنا وإياه فحسب عرفنا أمنيته الخفية. بعد ثوانٍ، تحررتُ من الفقاعة وصحت: «تمنيتها إلك».

***

في تلك الليلة حلمتُ بحياة تمسك المرآة من أجلي، ووجهي لا ندبة عليه. كان حلمًا ضبابيًّا، وعندما استيقظت كل شيء كان معتمًا خلا القمر الذي بدا مثل رغيف مشرق من الأمل، وللحظة تخيلته سيهوي. انزعجت كثيرًا ليلتها. ظننتني نسيت ذاك الحلم لكنني للأسف لم أنسَ. فمن طبيعة الأشياء أن تحضر متى وجدت الجزء المفقود منها.

«صدقني كل الناس عندها ندوب، والله». أخبرتُ سلام في ليلة مقمرة.

«وكلهم انصابوا فيها وقت الحرب، ماما؟».

«آ حبيبي، كل واحد فينا في هالدنيا عايش حرب داخله».

ظلَّ يرسم لوحات عديدة لأناس مع ندوب، بعضها على القلب وبعضها على الرأس. «مين هاد؟» سألته.

«أبوي، قلتي لي إيده مبتورة».

***

كنت قد سألت زوجي: «كيف خسرت إيدك؟».

«خسرتها وخلاص. كنت ولد صغير وألعب كثير مع أصحابي، ومرة انحشرت إيدي في فتحة بوابة، وورا البوابة كلاب جيعانة، وإيش يعرّفني وقتها إنه في كلاب جيعانة، مبعرفش. أنا كان بدي افتحها وخلاص، ووقتها ما سمعت نباح كلب واحد. شفتي قديش أنا متعوس! نهشوا إيدي وتركوها لحمة معفنة، ومن رعبتي تركتها وجريت».

لطالما أحببت أسلوبه الدرامي في السرد، مبالغته في الحديث عن أي شيء، وضحكت، فلا أحد يفقد يده بتلك الطريقة. لكنني أدركت لحظتها أنني فعلًا لم أكترث لمعرفة الحقيقة.

***

مررت على قبر سلام دون أن أنطق بكلمة. كان شهر أغسطس والشمس أشرقت تعانق الكون بين جناحيها، لفتني منظر زهور

اللافندر تنمو جليلةً على قبره. مات برصاصة طائشة اخترقت صدره.

يفاجئني أحيانًا أني ما زلت مؤمنة بعد كل الذي جرى، بل كل ما أريد أن يغفر لي ربي. ففي أحيان عديدة تتملكني فكرة أني أنا من تسبب في كل هذا الأسى لأحبائي. يقولون إنَّ النار تلتهم كل شيء أمامها وتدمره من أجل بقائها، وأرى تلك النار فيّ كلما نظرت إلى المرآة، لكن لا أريد تصديق ذلك.

سلام تُرِك هنا، زهرةً حمراء في عز ريعانها مرمية في صحراء. انحنيت وضممت صدره المثقوب إلى صدري، ندبتي تعانق ندبته. أتذكر كيف توقفت فجأة حين رأيت فيه قمرًا هاويًا. هذه ليست حربًا أخرى، فالحرب الأولى التي سلبتني عائلتي قبل سنوات عديدة ما توقفت قط. يقولون إنَّ الحرب مهما طالت فلا بد أن تنتهي، لكنها في الحقيقة أبدًا لا تنتهي. الحروب أبدًا لا تنتهي.

***

«إيش بدك بهالصورة؟ كبيرة وبشعة ومعتمة، صورة مَرَة لاجئة، مبعرفش ليش مصرة تخليها». كان يشير إلى صورة معلقة إلى جانب الباب الأمامي في البيت الكئيب كما لو كانت صورة مقدسة. صور تلك المشاهد كانت كل ما نملك في ذاك البيت، فلا كاميرات لدينا ولا حقول، لا شيء سوى الضوء المعتم.

«هَيْ صورة من النكبة، ابني. واجبنا نتذكر الناس إللي عاشوا وجعها، وواجبنا ندعي ربنا إنه الأجيال الجاية تقدر كمان تتذكر وجعنا».

***

«ما الموجود هناك خلف السماء؟» سألتُ أمي.

«الجنة».

«وكيف شكلها؟».

«مثل أحلام الصغار».

كنت خائفة من الاعتراف لأمي أني نادرًا ما أحلم، كانت ستظن أني فتاة غريبة الأطوار. فقد عشتُ طفولةً مشتتة، لكن هأنذا ألمُّ قطع الأحجية وأركّبها.

لسببٍ ما، دومًا تصورت الجنة مثل حقلنا الأخضر، مدثَّرة بالشمس الذهبية والسماء الزرقاء.

***

«إيش يعني مجزرة، ماما؟» سألني سلام حين أخبرته لأول مرة عمّا وقع لعائلتي.

«مبعرفش، يمكن إللي نجوا منها عمرهم ما رح يفهموها، إللي نزفوا فيها بس هم إللي يقدروا يجاوبوك». كانت هذه إجابتي الدرامية التي منحته إياها.

«بس انتي نزفتِ، ماما».

«كل إللي أقدر أقلّك إياه إنه مفش شي يبررها، ما يبررهاش أنبل وأقدس غاية في العالم، ولا حتى السلام نفسه، فهمتني؟».

«فهمتك ماما، ولا شي في العالم يبرر ندوبنا».

لا أعرف لماذا لمحتُ الموت لحظتها في عيني ابني. لاحقًا هبَّت السحب الغائمة وهاجمت القمر، ومن يومها ما عاد قمرٌ يُرَى في سماء الجنة.

***

أعادوني الآن إلى البيت. لا أزال أسمع صدى أطفالي أينما جُلْت. الحقول تمجُّ رائحةَ الدم والعفن، كما لو أنَّ مئة ثورٍ سُفِك ورُمِي فيها. لكن ما كانوا ثيرانًا، كانت أجساد بشرية. الحرب هي من أعادني مرة أخرى إلى هذا البيت الخاوي من كل شيء خلا الذكريات البائسة.

لا أحمل معي شيئًا سوى شنط من النجوم البراقة، والنجوم ثقيلة لكنها عديمة الفائدة لأنها ليست معلَّقة في السماء الشاسعة. في كل مكان أعلّق صورةً لنا نحن الثلاثة، فلديّ كثير من تلك الصور، وكنت أتعمّد فيها الالتفات إلى زاوية ثابتة. لا صور لسلام ولي وحدنا.

جثوت أمام إحدى الصور الكبيرة حيث بدونا جميعًا سعداء ومجروحي القلب في الوقت نفسه. ويا لها من صورة مخادعة!

لم يعجبهم الاسم الذي أطلقته على ابنتي، فانتشلوها مني لكي ترتبط في وجداني بضدِّ الحياة. انتابتهم الغيرة من اسم ابني فاختطفوه مني لكي تمضي مساعي السلام، السلام الحقيقي.

***

«هيَّك عم تبتسم».

«آ ماما، أنا منيح».

المرة الأولى التي ابتسم فيها سلام بصدق كانت وهو يموت بين ذراعيّ، لا مشهد جميل خلفه، لا مزيد من التوسلات لكي يعطيني ابتسامة تكمل المشهد المثالي، ولا كاميرات. لا شيء سوى ابتسامة متلاشية.

***

الشجرة تواصل نموها، تطول وتطول، أوراقها تساقطت مثل وجوه الشيطان. اشتقت إلى ابني وابنتي، وحين ذهبت إلى بائع الورد يومها، طلبت زهور لافندر.

«كم زهرة، ستنا؟».

«كثير، عطني زهور كثير... بدي اياك تجيب لي منها كل يوم على داري»، أخبرته وأنا أحاول تغطية ندبتي، وللحظة شعرت بها كما لو أنها تصغر. توشك على التلاشي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إذا كان لا بد أن أموت

(If I must die)

في عام ٢٠١٤، ختم رفعت العرعير مقاله «غزة تقاوم بالكتابة: رواية فلسطين» (Gaza Writes Back: Narrating Palestine) بقصيدة «إذا كان لا بدَّ أن أموت»، المقال الذي يتناول فيه رفعت تجربة تحرير هذا المجموعة ونُشِر في دورية (Biography) التابعة لمنصة البحث الأكاديمي (Project Muse) بالتعاون مع جامعة هاواي.

يوجّه رفعت القصيدة إلى ابنته شيماء، التي كانت تبلغ من العمر خمس سنوات في أثناء عملية الرصاص المصبوب، وإحدى عشر سنة حين نشر الكتاب، والتي ألهمته هذا المشروع. شيماء استشهدت في تاريخ الرابع والعشرين من أبريل ٢٠٢٤، بعد إنجابها طفلها محمد، أول حفيدٍ لرفعت. محمد استشهد مع أمه وأبيه ولم يتجاوز عمره الأسابيع.

نشر رفعت القصيدة في حسابه على «أكس» في الأول من نوفمبر عام ٢٠٢٣، وثبَّتها. في غضون الساعات الأولى من خبر استشهاده انتشرت قصيدته في العالم بأسره بعدما تداولها مئات الآلاف،

وترجمها الروائي سنان أنطون ونشرها في حسابه على «أكس» في اليوم التالي لاستشهاد رفعت العرعير، وهي الترجمة التي نشاركك إياها في هذه المجموعة.

إذا كان لا بد أن أموت

رفعت العرعير

إذا كان لا بد أن أموت
فلا بد أن تعيش أنت
لتروي حكايتي
لتبيع أشيائي
وتشتري قطعة قماش
وخيوطًا
(فلتكن بيضاء وبذيل طويل)
كي يبصر طفل في مكان ما من غزّة
وهو يحدّق في السماء
منتظرًا أباه الذي رحل فجأة
دون أن يودع أحدًا
ولا حتى لحمه

أو ذاته

يبصر الطائرة الورقيّة

طائرتي الورقية التي صنعتَها أنت

تحلّق في الأعالي

ويظنّ للحظة أن هناك ملاكًا

يعيد الحب

إذا كان لا بد أن أموت

فليأتِ موتي بالأمل

فليصبح حكاية.

نبذة عن كُتَّاب قصص

غزة تقاوم بالكتابة

بعد اغتيال رفعت العرعير في ديسمبر ٢٠٢٣، قررت دار النشر (Just World Books) إعداد طبعة جديدة من المجموعة في ذكراه، تتضمن نبذة محدَّثة عن الكُتَّاب. في فبراير ٢٠٢٤، تمكَّنت الدار بالتعاون مع د. يوسف الجمل، صديق رفعت وطالب سابق لديه وأحد كُتَّاب هذه المجموعة، من التواصل مع ثمانية كتّاب فقط من أصل خمسة عشر كاتبًا. الكاتبتان نور البورنو ود. آية رباح كانتا في غزة لدى إرسالهما النبذة المحدَّثة.

ارتأينا الالتزام بعرض النبذ كما جاءت في الطبعة الأولى من عام ٢٠١٣، وتضمين النبذتين الأولى والمحدَّثة للكتّاب الثمانية، مع تحديد العام لكل منهما. طبيعة النبذة هنا، سواء في عام ٢٠١٣ أو عام ٢٠٢٤، تختلف عن المعهود، هي في ذاتها امتدادٌ قصصي وسردي لهذه المجموعة، هي حكاية الأستاذ رفعت العرعير الذي آمن في طلبته، في شباب غزة وفلسطين، وآمن في قوَّة الكتابة.

وفاء أبو القمبز (٢٠١٣)

وفاء أبو القمبز كاتبة في الثانية والعشرين من عمرها، طالبة في تخصص اللغة الإنجليزية في الجامعة الإسلامية في غزة. هي شابة فلسطينية غزاوية فخورة، ومنذ كانت طفلة اعتادت سماع كثير من القصص عن معاناة الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي، وقصص عن تهجُّم الجنود الإسرائيليين على البيوت وقتل الأطفال والنساء، وعمل الاحتلال ليل نهار على تقويض وتدمير كل ما له صلة بالهوية الفلسطينية. وفاء عايشت حربين على قطاع غزة: **الرصاص المصبوب** و**عمود السحاب**، وتقول: «هاتان الحربان تركتا فيَّ أثرًا بالغًا، لن أنسى ما حييت مرأى الأطفال وهم يُقتَلون بلا رحمة».

تربَّت وفاء ونشأت على قيم الصمود الفلسطينية المنطلقة من التشبُّث بالذاكرة ومقاومة الظلم، ومن هذه النشأة بدأت تفكّر بدورها في الدفاع عن وطنها، وكيف لها أن تعبِّر عن إحباطها وغضبها من الاحتلال، وفي الوقت نفسه تعبّر عن حبها لبلدها، فاختارت الكتابة. حين كانت في الحادية عشرة من عمرها بدأت وفاء تكتب قصصًا قصيرة بسيطة عن فلسطين، وأخيرًا تلقّت التشجيع على الكتابة باللغة الإنجليزية.

بعد هذه التجربة، تعتزم وفاء مواصلة الكتابة باللغة الإنجليزية.

رفعت العرعير (٢٠١٣)

ناجٍ من عملية **الرصاص المصبوب**، وأكاديميٌّ يدرِّس في الجامعة الإسلامية في غزة. نال درجة الماجستير في الأدب المقارن من كلية لندن الجامعية، ويعمل حاليًّا على استكمال رسالة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي في ماليزيا. منذ عام ٢٠٠٧، يدرّس رفعت العرعير فصولًا في الأدب العالمي والأدب المقارن والكتابة الإبداعية.

ينصبُّ اهتمام رفعت العرعير حاليًّا على كتّاب فلسطين الواعدين، ويعمل عن قرب مع عديد منهم على تطوير مهارات الكتابة الإبداعية والمهارات النقدية لديهم. رفعت هو أيضًا محرّر *غزة تقاوم بالكتابة*.

يقول رفعت العرعير:

في البداية وقعت فلسطين تحت الاحتلال المجازي، أي بالكلمات والقصص والقصائد. لهذا علينا أن نقاوم بالكتابة، أن نستغل كل جهودنا وأقلامنا في الترويج لقضيتنا، وأيضًا في تثقيف أنفسنا وكل من يشاركنا في هذا العالم عن حقيقتها. فأن نسرد حكايتنا فعلُ مقاومة، مقاومة للنسيان والاحتلال، والمقاومة تعني أن تصدر ضجيجًا، كما قال مالكوم إكس: «إن أردت شيئًا من العالم، فدعه يسمع ضجيجك».

جيهان الفرَّا (٢٠١٣)

جيهان الفرَّا مدوِّنة في الرابعة والعشرين من عمرها وناشطة في منصات التواصل الاجتماعي من قطاع غزة. تناصر جيهان القضية الفلسطينية وتحمل على عاتقها تثقيف جمهور منصات التواصل الاجتماعي والوسائط الإعلامية الأخرى عن واقع الحياة في غزة، وذلك بالتعاون مع منظمات محلية ودولية.

جيهان كانت عضوًا في مجلس الشباب الاستشاري في برنامج (Mercy Corps) حيث انضمت لأول مرة إلى فريق تدوين (Beyond Our Borders). حاليًّا تدير جيهان مدونتها الخاصة، وهي أحد مؤسسي المنتدى الثقافي «ديوان غزة» (Diwan Ghazza). كانت أيضًا عضوًا في شبكة «بيان» (Palestenian Youth Advocacy Network) في بيت الحكمة في غزة، حيث شغلت أيضًا منصب عضوٍ في بروتوكول استقبال المبعوثين. أغلب عمل جيهان مع المنظمات المحلية والدولية تضمَّن التدرُّب على اللغة الإنجليزية والترجمة من اللغتين الإنجليزية والعربية.

تسرد جيهان قصة فلسطين، القصة التي انبثقت من عالم الخيام والموسومة بليالي الجوع والظلمة الحالكة والخوف. تسرد قصص الأطفال، تسرد قصة فلسطين التي تعيش على أمل نيلها حق تقرير

المصير، ونجت من عقود طويلة من البؤس والكرب والدموع وتمكنت، رغم كل ذلك، من نسج قصص من الضحك الصادح والابتسام من القلب. تسرد قصة دورة الألم التي لا تنفك تتكرر يومًا بعد يوم، لكن تقف في مواجهتها قلوبٌ قوية وطيبة. تسرد قصة قلم لا ينفد حبره أبدًا. تسرد قصة ما تصنعه طائرات إف ١٦ النفاثة والأباتشي ودبابات الميركافا والبنادق الآلية. تسرد قصة الحجارة الممتدة على تلال الأرض، وقصة غريزة النجاة الاستثنائية رغم اليأس والظلم اللامتناهي. تسرد قصة المكان الذي اعتاد أن يكون وطنًا، وفي ظرف عقود قليلة بات وطنًا لآخرين، وبات الفلسطيني هو الغريب المنفيّ عليها.

تقول جيهان الفرا:

بصفتي شابة فلسطينية يافعة، وغزاوية تحديدًا، أشعر بواجب تمثيل الحياة الفلسطينية بمآسيها من جهة، وببهجتها من جهة أخرى. وعلى ضوء عدم الاستقرار المتصاعد للوضع في فلسطين، لا سيما تحت حصار غزة، فقد صارت مسؤولية واجبة عليّ أن أعبّر عما يجري بالكلمات وأعكس واقع حياتنا اليومية، في ظل فشل الإعلام الغربي في تأدية واجبه ومسؤولياته.

جيهان الفرَّا (٢٠٢٤)

في ذكرى رفعت العرعير

قبل أن يصبح معلمي ومرشدي بوقتٍ طويل، كان رفعت مجرد شابٍّ مرح التقيته على الحدود في أثناء محاولته السفر إلى لندن لدراسة الماجستير.

كان عام ٢٠٠٦، كنت طالبة يافعة وجرى اختياري للدراسة في ثانوية أمريكية ضمن برنامج تبادل طلابي. هكذا، ضمن مجموعة من طلاب الثانوية الآخرين من غزة الذين قُبِلوا في البرنامج، شددتُ الرحال إلى معبر رفح سيئ السمعة، كلّي أملٌ في السفر إلى الولايات المتحدة للمرة الأولى. وهذا الشاب الغريب كان رفقتنا، يحاول هو الآخر مغادرة غزة.

بينما انتظرنا خارج بوابة المعبر، وجدنا وقتًا طويلًا لتبادل الحديث والمزاح. كان يعاركنا مازحًا حول قبعات البيسبول التي نعتمرها، الآتية إلينا برعاية وزارة الخارجية الأمريكية والشيء الوحيد الذي يقينا حرارة الشمس الحارقة. وفي غمرة ضحكنا ونكاتنا ولهونا، أدركت في رفعت حسَّه الساخر. كان متهكمًا بامتياز!

مضت علينا ساعات ونحن ننتظر، في النهاية أخبرونا بأن نعود أدراجنا ونعيد المحاولة في اليوم التالي... وفي اليوم الذي يليه... وفي

اليوم الذي يليه... وفي اليوم الذي يليه... وبدأ شعورٌ يساورني بأنَّ خروجنا من غزة ليس سوى مهمة مستحيلة. لكن في نهاية كل يوم، كان رفعت يبتسم ويقول: «أشوفكم بكرة يا ولاد». رابطٌ تشكَّل بيننا في مسعانا الحثيث والصامد نحو التحرُّر.

تكرَّرت عودتنا إلى الحدود حدًّا توقفنا فيه عن تبادل الوداع الحميم مع عوائلنا. صحت باكية في أول مرة غادرت فيها بيتي وعائلتي إلى معبر رفح: فأنا كنت سأغادرهم لعامٍ كامل، وحدي. في اليوم الثاني، ودعتهم بلا دموع. بعدها، في كل مرة، كنت أضحك وأقول: «أشوفكم الليلة!».

كنا عالقين في فخٍ من اليأس والقبول، في إحساسٍ أشبه باليقين بأننا أبدًا لن نغادر غزة، أننا سنعود إلى بيوتنا كل ليلة بعد كل محاولة. ومع ذلك، كان ثمة أمل راسخ لا يتزحزح بأننا، بطريقة أو بأخرى، سننجح طالما استمروا يعيدوننا إلى الحدود مرة تلو الأخرى. كنا عالقين ما بين الأمل واليأس، ما بين المتضادين، لكن لطالما كان الأمل واليأس متمازجين ومجدولَيْن في نسيج حياتنا وتجاربنا كفلسطينيين في غزة.

في غزة، الواقعة اليوم تحت وابلٍ من القنابل الإسرائيلية، يعيش الغزيون عالقين في وحلٍ من الأمل واليأس. فقد تقبلوا الموت في إحساسٍ شبه يقيني بأنهم القتيل التالي، لكن مع كل يومٍ يمضي، وفي أعماق هذا الوحل، يتوارى قبسٌ من الأمل الحيّ، العصيّ على الموت، بأنهم سينجون.

في عام ٢٠٠٦، رفعت وأنا نجحنا في مغادرة غزة، لكن لم يكن النجاح نصيب كل من رافقنا في هذه الرحلة. واليوم، في غزة، لن ينجو الجميع، لكن ما علمني إياه رفعت على مر السنين أنَّ قصصهم وذكرياتهم ستعيش إلى الأبد. وتقع المسؤولية علينا في إحياء تلك القصص والذكريات من خلال سردها، حتى نبقيهم وآمالهم على قيد الحياة.

هذه المرة، رفعت لم ينجح في مغادرة غزة، لكن وصيته ستظل إلى الأبد حكايةً تُروَى. حتى في أشد الساعات الحالكة ظلمةً، ستظل تلك الحكاية تحمل لنا الأمل دومًا.

سارة علي (٢٠١٣)

سارة علي فلسطينية ولدت في الكويت عام ١٩٩١، مقيمة في غزة، ونشأت في مدينة غزة. في عام ٢٠٠٩، التحقت بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية في غزة وتخرجت عام ٢٠١٣ بدرجة بكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها. تعمل سارة حاليًّا كمعلمة لغة إنجليزية ومدربة. تبدي سارة اهتمامًا بالغًا بمجالات عدة، من ضمنها: الأدب والنقد الأدبي واللغويات والفن والطبيعة والسياسة والدين ودراسات الأديان، وينصبُّ تركيز سارة خصوصًا على الأدب ما بعد الكولونيالي، وعلى العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، وتمثيل الذات والآخر. كما تثير اهتمامها قضايا الهوية والتشكيك في الذات.

بدأت سارة الكتابة باللغة العربية في عمرٍ مبكر، ولم تبدأ الكتابة باللغة الإنجليزية إلا بعد الاعتداء الإسرائيلي على غزة عام ٢٠٠٨. وبما إنَّ سارة درست تخصّص الأدب الإنجليزي فهي واعية بقوة الكتابة ومؤمنة بها. وهي تؤمن أيضًا بأنَّ مقاومة الاحتلال تجري على جبهات متعددة، والصحافة والإعلام ليسا أقلَّها ضرورةً.

وترى سارة أنَّ المدونين والكتّاب اليافعين في فلسطين، وفي المناطق المحتلة الأخرى، يجب أن ينالوا فرصتهم في التعبير عن

أنفسهم وإبداء آرائهم التي لطالما تعرَّضت للإسكات أو التجاهل. وفي رأي سارة، فإن من واجب الكاتب الفلسطيني تحدي الصور النمطية المكرَّسة التي شاعت عن الفلسطينيين وقضيتهم، والعمل على تغييرها. وتناصر سارة المقاومة الفلسطينية في كل صورها، وتؤيد إرساء دولة واحدة لكامل شعبها بصرف النظر عن العرق والدين.

تقول سارة علي:

الكتابة وسيلةٌ للتعبير عن الذات، وفي الوقت نفسه وسيلة لنشر الكلمة وكشف الحقيقة عن الظلم الذي تعرض له الشعب الفلسطيني.

سارة علي (٢٠٢٤)

في عام ٢٠١٣، بعد تخرجي في قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة الإسلامية في غزة، عملت مساعِدَة تدريس هناك لعامٍ كامل قبل مواصلة دراسة الماجستير في جامعة درهام في المملكة المتحدة (٢٠١٤–٢٠١٥). بعدها عدت إلى غزة وعملت محاضِرةً في الأدب الإنجليزي في الجامعة الإسلامية لأربع سنوات. وفي نهاية عام ٢٠١٩، بدأت دراسة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي في جامعة كامبريدج.

ولا يمكنني أن أتذكر في أي مرحلة من تلك المراحل في تعليمي ومهنتي، منذ عام ٢٠١٣، أو حتى منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري حين التقيت رفعت لأول مرة، لم يكن فيها لحكمته وإرشاده ودعمه الهائل تأثيرٌ بالغٌ فيَّ. على مر عشر سنواتٍ تقريبًا، كان رفعت يدير منتدى عن اللغة الإنجليزية والأدب عنوانه: «عينٌ على فلسطين» (Eye on Palestine) قبل إغلاقه في ٢٠١٠. كان منتدًى إبداعيًّا وتفاعليًّا ساعد الشباب الفلسطيني اليافع في غزة على التواصل مع العالم الخارجي قبل رواج منصات التواصل الاجتماعي. كتبنا قصصًا وناقشنا الشعر والتمسنا البهجة في تعلُّم حيثيات قواعد اللغة الإنجليزية وفوارقها الدقيقة. وبعض تلك النصوص التي عرضها

المنتدى كانت ستصبح لاحقًا مبعث إلهام قصصٍ في المجموعة القصصية: *«غزة تقاوم بالكتابة»*.

سعدتُ كثيرًا بالعمل مع رفعت في *غزة تقاوم بالكتابة*، وشرَّفني وجودي في كلمة الشكر التي كتبها في ختام المجموعة. فقد كنت حينها حديثة التخرُّج ومع ذلك عملت في هذا المشروع منذ يومه الأول: اقترحت النصوص وقرأتها، وعملت مع رفعت والكتّاب على منح قصص المجموعة شكلها وأسلوبها. فرفعت لم يكن قارئًا ومحرِّرًا مذهلًا فحسب، بل كان متواضعًا بما يفوق التصوُّر، وشهدتُ هذا التواضع في تعاونه مع الطلبة وتقبّله لاقتراحاتهم بمنتهى الجديَّة، ما بثَّ فينا جميعًا ثقةً واحترامًا بالغيْن له.

بعدها بعامين تقريبًا، تسنت لنا فرصة العمل معًا من جديد، هذه المرة في الجامعة الإسلامية في غزة، ندرّس الأدب الإنجليزي في كلية الآداب. تلك كانت أعوامًا من البصيرة والتفكُّر العميق والبهجة اللانهائية، عملت فيها عن قرب مع رفعت وبدأت أتعرُّف إليه بصفته زميلًا، إذ أحيانًا كنّا ندرِّس المواد الجامعية نفسها (الأدب المقارن، العصر الرومانسي، الأدب الفكتوري). ووجدت جانبًا مذهلًا في شخصية رفعت كزميل عمل. فعدا البهجة الخالصة المنبعثة من حسه المرح، ومشاركة الوجبات الخفيفة، والنكت التافهة (وكلما ازدادت تفاهتها ضحكنا عليها أكثر)، كان رفعت صديقًا كريمًا وزميلًا أكرم، دومًا يشاركني المصادر وتوصيات الكتب. ولا أعرف أحدًا يفكك قصيدة وينسجها من جديد إلى كلٍّ

مكتمل كما فعل رفعت. كان في وسعك الاستماع إليه يتلو الشعر ويفسّر الشعر ويتنفس الشعر لساعات وساعات وما كنت لتشعر بالوقت يمضي! شغف رفعت وإخلاصه في العمل وتفانيه في تعليم طلبته صيّر تجربتي في التدريس تستحق العناء أكثر مما كنت أتخيّل. نظّمنا الندوات معًا، وكتبنا الامتحانات معًا، واستضفنا متحدثين معًا، وأعدنا تصميم خطط التدريس في القسم معًا، وعملنا على تنظيم فعاليات سنوية لقسم اللغة الإنجليزية معًا. معرفة رفعت الألمعية وإرشاده الذكيّ وفكره الثاقب كلها تحدَّت الحصار الفكري الإسرائيلي المفروض على الطلبة الفلسطينيين في غزة، فرفعت ساعد في خلق بيئة حاضنة للعقول الفضولية وشجَّع المواهب على الانبثاق من براعمها.

قرار الالتحاق بالدكتوراه لم يكن سهلًا عليَّ. حينها لم يكتفِ رفعت بتشجيعي على تقديم طلب الالتحاق، بل دعمني في كل خطوة على الطريق، كتب رسالة التوصية إلى جامعة كامبريدج، وأرشدني طوال العملية. وفي أحلك ساعات عملي على الرسالة وانهياراتي العصبية، لم يتوانَ عن إمدادي بنصائح في الكتابة بمنتهى الصبر والعناية مما ألهمني على المواصلة. آخر النقاشات التي تبادلناها، حتى في شدة بطش جرائم الإبادة التي ترتكبها إسرائيل في غزة، دارت حول المواد التي كان يرى أنَّ في إمكاننا تشارك تدريسها في الجامعة الإسلامية ما إن أنهي رسالتي وأعود. حين توفي أبي في غزة، في ديسمبر عام ٢٠٢٢، عجزت عن العودة إلى عائلتي بسبب

الحصار الإسرائيلي-المصري. رفعت حضر جنازة أبي ومراسم العزاء منذ اليوم الأول. لم أرَ مثيلًا لطيبته وحنانه وقلبه الكبير.

إنه لمن القسوة أن أكتب عن موتِ صديقٍ عزيز، لكن إن تعلمنا شيئًا من إرث رفعت فهو أنه لن يقبل منا بتاتًا الاستغراق في أحزاننا بينما لدينا قصةٌ نرويها. من أجل قصة رفعت، من أجل الحكاية التي تحمل لنا الأمل، نواصل الكتابة والحياة.

يوسف الجمل (٢٠١٣)

يوسف الجمل شاب في الرابعة والعشرين من عمره، وخريج الجامعة الإسلامية في غزة. يعمل حاليًّا على تحضير رسالة الماجستير في جامعة مالايا في ماليزيا، وترجم خلال العامين السابقين مئات المقالات والدراسات والتقارير عن فلسطين الصادرة عن منصات الإعلام الغربي.

يوسف أيضًا مدوّن كرَّس قلمه لإعلاء صوت السردية الفلسطينية في الغرب من خلال الترجمة، وشارك أخيرًا في ترجمة كتاب (The Prisoners Diaries) الذي يجمع اثنين وعشرين تجربة لسجناء فلسطينيين في السجون الإسرائيلية. يؤمن يوسف بالإعلام البديل وسيلةً للوصول إلى الجماهير الكبيرة حول العالم، لا سيما في ظل انحياز الإعلام الغربي ضد الفلسطينيين ونصرته الاحتلال الذي يضطهدهم.

بدأ يوسف الكتابة في عمر الحادية عشرة، في وقت بلغ فيه الحصار على غزة أشدّه. النص الأول الذي كتبه خلال الحصار نُشِر، ونال التشجيع من معلميه وزملائه في الفصل. الكتابة، من منظور يوسف، فعل وجود.

يقول يوسف الجمل:

في عالم اليوم أصبحت الكلمات أقوى من آلة الحرب وأحدُّ من السيف. أن تكتب يعني أن تسرد قصة، والقصص خالدة، تعيش الآن وإلى الأبد. أن أكتب يعني أن أستعيد سلطتي على قصتي. أن أكتب يعني أن أُبقي الذاكرة حيّة لكي لا ننسى، لكي لا تتلاشى التفاصيل على مر الزمن.

أفضّل الكتابة عن تجربتي الشخصية تحت الاحتلال، لأنَّ هذه القصص هي التي يتسنى للقارئ الآخر التماهي معها. وأولويتي في المرحلة المقبلة هي استعادة الفلسطيني السردية الفلسطينية، كما يقول تشينوا أتشيبي: «إلى أن يحظى الأسد بمؤرخه، سيظل التاريخ يمجّد الصيّاد».

يوسف الجمل (٢٠٢٤)

رفعت غيّر حياتنا

رفعت كان الشخص الذي علمني وآخرين حبَّ الكتابة وسرد القصص، ومع ذلك يصعب عليّ الكتابة عنه. لم أتصوّر أني أنا من سيصبح لزامًا عليه سرد قصة رفعت كما طلب منّا في قصيدته: «إن كان لا بد أن أموت» (If I Must Die) لكي يحمل لنا موته أملًا ويصير حكاية. رفعت كان رجلًا محبًّا يبث البهجة فيمن حوله، ولطالما بعث في حياتنا الضحك والطاقة الإيجابية بسرعة بديهته وذكائه وقدرته على تطويع اللغة وتشكيلها كما يريد.

في عام ٢٠١٣، كنت على الرحلة نفسها إلى ماليزيا مع رفعت لكي ننهي دراساتنا العليا، وحين أدرك أنِّي لم أرتب بعد مكانًا للإقامة، دعاني إلى المكوث معه. نمت في غرفة المعيشة لديه ثلاثة أسابيع، وانفطر قلبي وأنا أحمل حقائبي إلى محل إقامتي الجديد. فقد كان أكثر من مجرد أستاذ، كان مرشدنا ومعلمنا.

وكان أيضًا يتمتع بحس من الدعابة الخشنة. فبعد مغادرتي بيته بأيام، وتناولي العشاء في بيت صديق، اتصلَّ بيَ ليخبرني بأني نكّار للجميل لأني لم أمدح الطعام الذي أعده لي طوال الأسابيع الثلاثة من إقامتي لديه، وأنه «سيحرقني» عقابًا على نكراني، وطلب

مني المجيء إليه وتقديم الاعتذار إليه وإلى رفيقيه في السكن حسام ومحمد. (قُتِل محمد في قصفٍ إسرائيلي بعد أيام من مقتل رفعت). يومها أحضرت معي بطيخة وتصالحنا. بعدها تقاربنا وبتُّ أمضي نهايات الأسبوع لديه طوال العامين اللذين قضيتهما في ماليزيا.

اعتاد محمد أن يقول لي إنّي أتصرف مثل رفعت، فرفعت لا يطيق الخطأ المطبعي أو الاستخدام الخاطئ لعلامة ترقيم. وكم تملكني الفخر حينها لكوني أصبحت أحد أصدقاء رفعت المقربين بعدما كنت طالبًا أحضر حصصه في غزة. معًا أطلقنا الترجمة الملاوية *لغزة تقاوم بالكتابة*، ومعًا تحدثنا في الفعاليات والمحاضرات وسافرنا إلى مدن أخرى في ماليزيا. ذات مرة، بعد انتهائنا من محاضرة، تقدَّم رجلٌ واشترى خمسين نسخة من *غزة تقاوم بالكتابة* بعدما سمع رفعت يتكلَّم! وفي تلك الرحلات أدركت أنَّ رفعت أعظم رجلٍ التقيته في حياتي.

كان رفعت إنسانًا كونيًّا في معرفته ونهجه في التدريس وفي علاقاته، معروفًا لدى كثيرٍ من شباب غزة إذ درَّب المئات منهم على الكتابة الإبداعية وسرد القصص. وكان لي شرف مساعدته في إعداد بعض تلك الورش.

كان معروفًا أيضًا لدى كثيرين خارج غزة من خلال نشاطه السياسي في منصة «إكس» وفي المقابلات العديدة التي أجراها من غزة، وقد اختار البقاء قريبًا من حي الشجاعية شمال غزة لكي يحكي قصص أهلها. وبينما جرائم الإبادة تأخذ مجراها، اعتاد رفعت

المشي ٢٥ ألف خطوة كل يوم لكي يتصل بالإنترنت. ظلَّ مخلصًا لمبادئه وإيمانه، ولم يفاجئني هذا الصمود، فهو استلهم هذا الصمود من أناسٍ مثل مالكوم إكس - كما أخبر لجنة التقييم في مقابلته مع برنامج فولبرايت للمنح. (كان قد فاز بالمنحة لدراسة الدكتوراه في الولايات المتحدة، لكن إسرائيل رفضت منحه إذن الخروج من غزة لهذا الغرض. لاحقًا سيفوز بمنحة دراسة الدكتوراه في جامعة مالايا).

في عام ٢٠١٤، نظّمت دار النشر (Just World Books) ولجنة (American Friends Service) جولة ندوات ضمَّت رفعت وزميلتي روان ياغي وأنا، وأخذتنا تلك الجولة إلى أكثر من اثنتي عشرة مدينة في أرجاء الولايات المتحدة. حينها أخبرني رفعت بالتقائه أميركيين يهود: رؤيته أول مرة يهوديًّا لا يصوّب بندقيته عليه، كانت «لحظة مالكوم أكس» التي عاشها.

في محاضرات تلك الجولة تمكَّن رفعت من التأثير في كثيرٍ من الناس، بعضهم إلى حدّ البكاء. فقد آمن في قوة السرد القصصي، وغرس في كل طالب وطالبة لديه الإيمان أنَّ لديه قصةً تستحق أن تُروَى. مكّن كثيرين ومنحهم القوة، وفقط أخيرًا بدأ هو في سرد قصته.

أستاذ رفعت كان نابضًا بالحياة، دومًا يحمل كتابًا تحت ذراعه ودومًا يجري نحو ورشة عمل أخرى، نحو محاضرة، نحو مغامرة. وفي كل مكانٍ ذهب إليه ترك بصمته: في واشنطن العاصمة ترك

مقعدًا ذا ذراعين لدى هيلينا كوبان يحمل اسمه، وفي ميلاكا في ماليزيا حيث رأى قطتين متماثلتين فأسماهما فورًا ومن وحي اللحظة «كوبي - بيست» (نسخ ولصق). هكذا كان رفعت على الدوام، يترك أثره في المكان الذي تطؤه قدماه. عرَّف الولايات المتحدة إلى حيّه الحبيب الشجاعية، وأطلق على شيكاغو لقب «حيّ الشجاعية الأمريكي» وعلى نيويورك «حي الزيتون الأمريكي»، لأن التنافس بين الحيّيْن الفلسطينيين يشابه التنافس بين المدينتين الأمريكيتين.

سلَّط رفعت الضوء على أهمية مقاومة العزل الفكري المفروض على الفلسطينيين في غزة، وطالب بزيادة عدد الطلبة المبعوثين من غزة إلى الخارج للتعلُّم والسفر ثم العودة إليها - كما فعل هو نفسه بعدما أنهى الدكتوراه في ٢٠١٧. رفعت امتلك قدرةً فريدة على مسّ قلوب كثيرين حوله! أنا نفسي ما كنت لأكون هنا في إسطنبول اليوم لولا دعم رفعت لي خلال دراستي الماجستير وبعدها الدكتوراه. حين نلت أخيرًا شهادة الدكتوراه اتصلت به وكم كان سعيدًا بهذا الخبر، ولم يرفض طلبي حين دعوته لإلقاء محاضرة على الشباب هنا والتحدث معهم.

رفعت غيّر حياتي وحياة كثيرين من طلبته نحو الأفضل. كان الحكّاء في غزة لكنه أيضًا كان الأخ الأكبر الذي لا ينفك يطمئن علينا حتى بعد مغادرتنا غزة بأعوام، ويزور عوائلنا للاطمئنان عليهم في غربتنا عنهم. دومًا وجدناه إلى جانبنا ومن أجلنا، ودومًا وجدته غزة إلى جانبها ومن أجلها.

حين زرت بيلينجهام في أمريكا، في أكتوبر ٢٠٢٣، طلب مني البحث عن فأرة كمبيوتر تركها في بيت صديقٍ هناك، قائلًا إنّي لا بد سأجد ألف فأرٍ يجولون هناك. حتى في يومه الأخير على هذه الأرض، حين انهمرت القنابل على غزة مثل وابلٍ من المطر، لم يتخلَّ عن حسه المرح وإنسانيته. واظب على إطعام القطط، وواظب على سرد قصص الناس، وأطلق المزحة تلو الأخرى حدًّا سأله فيه متابعوه على «إكس» كيف لا يزال يحتفظ بحس الدعابة في غمرة جرائم الإبادة.

رفعت، سأظلُّ أبد الدهر ممتنًّا لتقاطع طرقنا، ولا فخر يفوق فخري حين أقول إني طالبٌ من طلبتك. البذرة التي غرستها ستتضاعف، وستظلُّ تعود إلينا رفعت، ستظل تعود.

نور السوسي (٢٠١٣)

في غضون خمس وعشرين عامًا، نجت نور السوسي من فقدان وطن، ومن حربين، ومن حياتها. نالت نور درجة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها من الجامعة الإسلامية في غزة. ومنذ كانت طفلة أبدت شغفًا كبيرًا بالقراءة والكتابة، حيث أصبحت الكتابة جزءًا من طبيعتها، أشبه لديها بضرورة التنفس. حصص التعبير كانت المفضلة لديها ولا شيء يسعدها أكثر من نظرة الإعجاب في عيني معلميها بعد قراءة نصٍّ أو قصة من كتابتها.

فازت نور في مسابقة على الإنترنت بقصة قصيرة كتبتها بداية مسارها في الكتابة، ما حثَّ كثيرين على تشجيعها لتأسيس مدونتها الخاصة.

حياة نور في فلسطين، تحديدًا في غزة، هي مصدر إلهامها، إذ تعبّر جلُّ نصوصها عن تجربة الفلسطيني في حياته اليومية. وكونها فلسطينية غزاوية علَّمها أنَّ المقاومة لا تنحصر في السلاح فحسب، بل أيضًا للكلمات أن تكون شكلًا من أشكال المقاومة. نور الآن معلمة لغة إنجليزية، تحاول تعليم طلبتها قوة الكلمة.

تقول نور السوسي:

في الانتفاضة الثانية التي اندلعت في سبتمبر ٢٠٠٠، بدأت أعي كيف أنَّ حياتنا كفلسطينيين صراعٌ من أجل الوجود. وفي صراعٍ كهذا، لا شيء بيدي سوى قلمي، وهكذا بدأت أكتب قصصًا قصيرة عن الشهداء الذين كانوا في مثل عمري.

شهد عوض الله (٢٠١٣)

شهد عوض الله تبلغ الرابعة والعشرين من عمرها، خريجة الجامعة الإسلامية في غزة بدرجة بكالوريوس في تخصص اللغة الإنجليزية، وتعمل حاليًّا معلمة لغة إنجليزية في إحدى مدارس الأونروا في غزة. منذ بدأت القراءة في سن السابعة تكوَّن لديها شغف جارف تجاه القصة، وفي عمر الثامنة عشرة بدأت رحلتها في الكتابة حين كانت طالبة في المرحلة الثانوية. وجدت شهد في الكتابة متنفسًا تقضي به وقت فراغها وطريقةً للاسترخاء.

تكتب شهد عن الناس الذين تكشف ابتساماتهم ودموعهم كثيرًا عن حياتهم والظروف التي يعيشونها. وبما إنها تعيش في فلسطين، في وطنٍ تحت الاحتلال، فقد تأثر أسلوبها في الكتابة ومواضيع نصوصها بهذا الواقع.

تقول شهد عوض الله:

التعبير عن تجاربي وقصص الآخرين -كشف ما أعانيه في قصصٍ لا يُظهِرها الآخر على حقيقتها بأنها جرائم يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي وأسَّس لها- ساعدني على معرفة المزيد، والتمتع بقوة أكبر ووعيٍ أعمق بقضيتي وأنا أنقل هذه الصور والوقائع إلى العالم بأسره من خلال كتابة القصة القصيرة.

نور البورنو (٢٠١٣)

تبلغ نور البورنو العشرين من عمرها، وتدرس حاليًّا في قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة الإسلامية في غزة. نور مدمنة على الكتابة والأفلام والقراءة، وتتمنى أن تصبح يومًا معلمة لغة إنجليزية. بدأت نور كتابة الشعر باللغة الإنجليزية في مرحلة الثانوية، فالشعر هو الأكسجين الذي تتنفسه، ومتنفّسها الوحيد.

تقول نور البورنو:

يتمثَّل الفرق بين أناي القديمة والجديدة في مصدر الإلهام، فقد اعتدت البحث عن الإلهام لدى أصدقائي وعائلتي، لكني أجده الآن في الطبيعة. وبدأت أؤمن أنَّك إن كنت تتمتع بالقدرة على الكتابة، فمن واجبك النهوض والكتابة والمساعدة على تغيير هذا العالم إلى عالمٍ أفضل، وهذا ما أفعله أو على الأقل ما أحاول فعله.

أتمنى أن يأتي يومٌ يصبح فيه هذا العالم آمنًا للأجيال القادمة، ويمنحهم مكانًا أفضل. أؤمن بأنَّ في وسعي دعم قضيتي المنكوءة بالحروب والمعاناة من خلال الكتابة. لهذا قررت في نفسي إن تأثَّر قارئٌ واحد فحسب بقصة كتبتها فهذا فعلٌ عظيم.

نور البورنو (٢٠٢٤)

إلى الصانع الأمهر

النرجس البريّ في انتظار قدومك

تتساءل، «متى هو آتٍ؟»

الكلمات تصطف في صفين متناظريْن

تتساءل بعد غياب:

«متى يحين موعد محاضرته؟»

مقبض باب القاعة (N)

رقم أربع مئة واثنين

يحنُّ إلى عنفوان دخولك القويّ.

ثمة شيءٌ فيك يميزك عن كلِّ مَن حولك.

تصرِّح قائلًا، «لا أحد يدخل بعدي،»

لكن أحيانًا تغفر لمن تأخر واستحقَّ المغفرة.

حلمٌ راودك: بالإبداع والانضباط

الكلُّ بوسعه أن يكتب قصيدة

الكلُّ بوسعه أن يصير حكَّاء.

بعدها تلقي السماء ضوأها على السبورة

وتسأل ما إن تلاحظ غيابك:

«لِمَ ليس اليوم؟ أينه أستاذ رفعت؟»

اعذر زلة لساني –

كنتَ حينها قد أصبحتَ الدكتور رفعت.

التقينا في ٢٠٠٨ – كنتَ شابًّا يافعًا

مفعمًا بالشغف والحماس.

ثم التقينا في ٢٠١٢، ولا شيء تغير

حين أصبحت أستاذي الجامعيّ.

ثمة شيءٌ في هالتك يشعشع في أرجاء القاعة

وأجزم أنَّ ذاك الشيء هو حبُّك للأدب.

اقرأ – اقرأ – اقرأ

شعارك، اليومي، الخالد.

تكرِّر علينا الاقتباس «إياك تقتبس»

لكي تعلمنا التفكير بأنفسنا.

لطالما كنت هكذا

مرحًا وساخرًا - وفي أحيان كثيرة متهكمًا.

هاملت يسأل أمه «رفعت؟ هل رأيتِ رفعت؟»

تتلعثم. فهاملت التوّ فقد والده،

فكيف له الآن أن يخسر صديقه العزيز على قلبه؟

«حزنك سيطول بنيّ،

حدادك سيطول،

والأسود سيصبغ عباءتك لأعوام وأعوام بلونه الليليّ الحالك».

«لا عباءتي الحالكة وحدها يا أماه، ولا المألوف من ثياب السواد الحزين، ولا التنهدات العاصفة من ضيقِ النفس، لا، ولا النهر السخيّ من العين ولا غضون الغمّ في المحيّا، بكل ما للحزن من أشكال وحالات ومظاهر، بكافية للدلالة على حقيقتي».

في ليلةٍ مخيفة - ينعق فيها البوم صارخًا

ضربةٌ جوية تقصف ملاذ رفعت.

وتحت الأنقاض التي لطالما كتب عنها،

ترقد بقاياه.

ذاكرته.

قصائده.

طلبته.

صفوفه.

شخصياته.

بيولف حاول إنقاذه –

لكن بيولف هو الآخر مات.

رفعت قُتِل – مع ذلك:

أطفاله سيعيشون ويسردون قصصه.

طلبته سيواصلون المضيّ في رحلته.

قصائده ستجد طريقها إلى القلوب.

كتبه ستظل تتنفس إرثه.

وتذكَّر عزيزي رفعت كلماتي هذه:

ما دام في الناس رمقٌ وفي العيون بصر

هذا القصيد سيحيا، وينفخ فيك الحياة.

الوداع

* إلى الصانع الأمهر (To the Better Craftsman): هي عبارة الإهداء التي كتبها تي. إس. إليوت في ديوانه «الأرض اليباب» إلى عزرا باوند.

سميحة علوان (٢٠١٣)

سميحة علوان في الخامسة والعشرين من عمرها، حاصلة على ماجستير في الدراسات الثقافية من جامعة درهام في المملكة المتحدة، وخريجة قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة الإسلامية في غزة. أطلقت سميحة مدونتها قبل أعوام، بعد نهاية الحرب على غزة المعروفة بعملية **الرصاص المصبوب** (٢٠٠٨-٢٠٠٩). وقوعها في شَرَك مواجهة الموت، في ظروف قاهرة، عَكَس إلى أي مدى هي حبيسة صراعٍ وطني تعرضت فيه الهوية الفلسطينية الفردية والجمعية إلى التشييء والتنميط. تكتب سميحة لأنَّ لا مفرَّ من الرد كتابةً على خطاب تجريد الفلسطيني من إنسانيته ووجوده، والرد كتابةً على سردية الضحية التي تُخضِع الفلسطيني لتأويلات لما يجدر أن تبدو عليه حياته وكيف يجب أن تُعرَض على الآخر. هي واجهت الاثنين بصوتها هي، بصوتها الفلسطيني.

ترى سميحة أنَّ كل تجربة معاشة هي تجربة تستحق التوثيق، وكل من تلك القصص «المرويّة الآن» -سواء انبثقت من تجربة حقيقية، أو تمثّل تجارب الآخرين، أو التجارب المودعة في ذاكرة الفلسطيني بمجرد كونه فلسطينيًّا مثل النزوح والعودة- تستحق السرد وتستحق مكانها في الذاكرة، فالذاكرة في ذاتها هي الشيء

الوحيد المتبقي لدى الفلسطيني في إدراك الوطن والهوية. الكلمة والفضاء الافتراضي اللذين جعلا من الوطن والهوية مقروءين ومتاحين كانا ولا يزالان «السلاح الناعم» في يد الفلسطيني.

تقول سميحة علوان:

الخطاب بضمير المتكلم «أنا»، أي عن ذاتي، وتأملي في تجربتي الفردية، شكَّل السبب الرئيسي الذي من أجله أطلقت مدونتي. نطقت بصوتي على صفحات الفضاء الافتراضي حيث وجدتْ شذرات من الوطن والهوية مساحةً موحِّدة، وحيث لا تحدُّ صوتي معايير كتابة السيرة الذاتية بصفتها تصنيفًا أدبيًّا كلاسيكيًّا. بل في الواقع، تحرَّر صوتي على يد ضمير المتكلم «أنا» في سرد التجربة الحقيقية المعاشة في المساحات المتشظية تحت الاحتلال.

سميحة علوان (٢٠٢٤)

حين دخلت أول مرة إلى صف شكسبير الذي يدرِّسه، بعد تشجيع من صديقة في سنة التخرُّج، رحَّب بي أستاذ رفعت ولم يمانع حضور متطفلة من السنة الأولى. من بعدها، على مرِّ دراستي في تخصص الأدب الإنجليزي، لم أفوِّت أي مادة يدرّسها، بل أحيانًا كنت أحضر المادة نفسها مرتين. بالنسبة إلينا نحن، الشغوفين شغفًا جمًّا بالأدب، ثمة شيء في حماسة الأستاذ رفعت تجاه الأدب علِق معنا ولم نفقده أبدًا.

كان سيتلو علينا مناجاة شيلوك «ألسنا إذا وخزتمونا ننزف دمًا، وإذا دغدغتمونا نضحك، وإذا سقيتمونا السم نموت»، وهو يقطع قاعة المحاضرة جيئة وذهابًا، نبرة صوته مزيجٌ من التوكيد والعاطفة، عيناه تجولان في القاعة بحثًا عمن يحمل دلالات الفضول ويشاركه شغفه لجماليات الأدب.

الصف الذي كان يحاضر فيه حول الشعراء الميتافيزيقيين والصور المجازية في شعر جون دون كان امتدادًا لفكره المتقد المبهج. وفي أثناء محاضرته حول الكيفية التي عبَّر بها الميتافيزيقيون عن منطقهم الفكري من خلال الشعر، كان يؤكد عليَّ قائلًا: «المهم يا سميحة *كيف* نقول ما نقول لا *ما الذي* نقول».

احتفى أستاذ رفعت بكل انتصارٍ صغير حققناه على القوالب، وبكل فخر كان يهنئني قائلًا: «هل تعمَّدتِ ترك هذه المسافة الصغيرة للدلالة على الصمت؟ رائع سميحة»، فأطير من الفرح.

افتتان أستاذ رفعت بالأدب الإنجليزي، بشخصيات مثل شكسبير، وبليك، وتي. إس. إليوت، لم يكن افتتانًا ساذجًا بلا نقد وتمحيص. فخلال دراستنا الأدب الإنجليزي المكرَّس، حرص أستاذ رفعت على إمدادنا بنسخ من سيرة مالكوم إكس ومقدمة سارتر لكتاب فرانز فانون «مُعذَّبو الأرض»، وعلَّمنا البحث عن النصوص الثانوية والأفكار المتداخلة في هذا الأدب المكرَّس غربيًّا. كنا نقضي ساعات نتفكَّر في الطرائق التي جرى تصويرنا بها في الأدب المكرَّس، وساعات أطول في التخلُّص من خوفنا من تحدّي هذا الأدب ومساءلته وضعضعة سلطته.

أستاذ رفعت قدَّمنا أيضًا إلى منظومة واسعة من الأدب الفلسطيني المركون على الهامش بفعل البرنامج التقليدي والاعتيادي لقسم اللغة الإنجليزية. وعلى رفِّ مكتبه وجدنا مكتبةً عامة نستعير منها، كما أتاح للطلبة استعارة أيًّا من الكتب التي جمعها من خلال دراسته الماجستير في بريطانيا. اعتدنا اختيار كتبٍ للاستعارة كل أسبوع، وإن كان متواجدًا في مكتبه قضينا الوقت في نقاش ممتد وشامل حولها، أشبه بنادٍ سريّ للكتاب.

أستاذ رفعت أبصر فيض المواهب في المجتمع الغزي، وحثَّنا وعلَّمنا أن نثور على صورة الضحية المذلّة ونتحدَّى التمثيل

التبسيطي السطحي لقصصنا كشبابٍ فلسطيني يصارع حياةً تحت الاحتلال. واعتاد قبل تأسيسه مجموعة الكتابة «لسنا أرقامًا» أن يقيم ورش كتابة مجانية للشباب الفلسطيني.

ورغم براعته في الخطاب السياسي، وإتقانه الحديث ببلاغة وشمولية عن الاستعمار الاستيطاني والتطهير العرقي والحصار غير القانوني وغير الإنساني والانتهاك اليومي لحقوق الإنسان التي يختبرها الفلسطينيون، انصبَّ شغفه على القصص المدفونة تحت الأنقاض، الأصوات المُصْمَتة (رغم علوّها ووضوحها) خلف جدران الحصار ودويّ القنابل. أصغى بمنتهى الانتباه إلى تلك القصص وأتاح حيزًا لها، وما انفكّ يؤكد علينا المرة تلو الأخرى أنَّ تلك القصص مهمة.

الأستاذ رفعت كان رجلًا رؤيويًّا وروحًا ما وهنت يومًا من العطاء. لم يكن فحسب أكاديميًّا ألمعيًّا لدى طلبته، بل كان أكثر من ذلك بكثير.

أحيانًا، لدى رؤيتي قصيدته الأخيرة تُقتَبس في كل مكان، أتألم، لأنَّ هذه القصيدة بالكاد تلمس سطح ما يعنيه لنا الأستاذ رفعت، بالكاد تُرِي العالم الرجل الذي كان. في وسعي تصوُّر مدى فخره لو جرى هذا الاحتفاء به وهو حيّ، وأعرف يقينًا أنه كان سيواصل عمله وإصغاءه إلينا بمنتهى التواضع على عادته.

أستاذ رفعت، نحن آسفون على تقصيرنا تجاهك، فكل الرثاء الذي قلناه وشاركناه لا يفي ألمنا على فقدك، عدا أنَّنا إلى الآن لم نُمنَح

الفرصة للحزن على فقدنا، على الفقد العظيم الذي تعيشه غزة تحت جرائم الإبادة غير الإنسانية التي لا تزال تنصبُّ علينا.

لروحك القويّة السلام.

تخرجت سميحة علوان في الجامعة الإسلامية في غزة عام ٢٠١٠، وأصبحت مساعدة تدريس فيها لمدة عام. هي الآن محاضرة في الأدب الإنجليزي والكتابة الإبداعية في جامعة مردوخ في غرب أستراليا، وتحمل دكتوراه في اللغة الإنجليزية والأدب المقارن. بحثت رسالتها في الصوت الجندري في سرديات المدوِّنات الفلسطينيات، وانصبَّ اهتمامها تحديدًا على السرديات التي انبثقت عام ٢٠١٠ حين بدأت هي مدونتها عن حياتها في غزة تحت الحصار الإسرائيلي، وتطوَّر اهتمامها إلى التعاون مع مركز حقوق الإنسان الفلسطيني في توثيق شهادات النساء حول الاعتداءات الإسرائيلية في قطاع غزة. وتأمل سميحة علوان من خلال عملها البحثي الأكاديمي في استحضار مزيد من قصص النساء من كل محيط غزة إلى مركزها. سميحة كانت طالبة لدى رفعت، وزميلة عمل، وصديقة.

حنان حبشي (٢٠١٣)

ولدت حنان حبشي في غزة عام ١٩٩٠. درست الأدب الإنجليزي في الجامعة الإسلامية في غزة، وتعمل حاليًّا كمترجمة ومدربة في اللغة الإنجليزية. تهوى حنان الموسيقا، ولها اهتمامات في اللغات والأدب والفولكلور بكل أطيافه. تؤمن حنان بأنَّ الشباب الفلسطيني قادر على الدفاع عن قضيته العادلة ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي على كل الجبهات، وتؤمن بالقوّة البناءة الكامنة في الكلمة المنطوقة والمكتوبة.

بدأت حنان ممارسة الكتابة مع تدوين يومياتها منذ اليوم الرابع من عملية **الرصاص المصبوب** (٢٠٠٨)، على صورة تدوينة عن الموت، والتي بدت أشبه بصرخة يائسة في شارعٍ خاوٍ. مع كتابتها قصتها القصيرة الأولى «نون نحيا» (L for Life) اختبرت حنان تجربتها الأولى مع الكتابة كأداة تمكين واستعادة للقوة. ووصلت لاحقًا إلى يقين بأنَّ فلسطين -بأرضها وشعبها وذكرياتها- ينبغي ألا تُحشَر في المنظور الضيق لـ«صراع بين اثنين».

ترى حنان أنَّ «الكتابة عن فلسطين» هي مسؤولية الفلسطيني ولا أحد غيره. وإذا سرد الشعب الفلسطيني، الذي يعيش استلاب الوطن منه، قصصَ أرضه، فيكون قد أخذ الخطوة الأولى في طريقه

إلى حقه في تحقيق المصير. غسان كنفاني هو مثال حنان الأعلى في الكتابة، ولربما يعجز مفكرون مثل كنفاني عن تحرير فلسطين، لكنهم بالتأكيد «يدقون جدران الخزان».

تقول حنان حبشي:

لأنَّ كثيرًا من الناس حول العالم يظنون أنَّ من حقهم الحديث نيابةً عن الفلسطيني، يعاني الفلسطينيون من صورتين نمطيتين متضادتين ومتساويتين في إثارة الاشمئزاز وإلحاق الظلم بقضية عادلة: الفلسطيني بصفته ضحية عاجزة مستحقة دومًا للشفقة، والثانية بصفته همجيًّا متعطشًا إلى الدماء. والفلسطيني ليس أيًّا من هاتين الصورتين.

تسنيم حمودة (٢٠١٣)

تسنيم حمودة طالبة فلسطينية في التاسعة عشرة من عمرها تعيش في مدينة غزة. يُعزَى شغفها باللغة الإنجليزية إلى والدتها التي هي أيضًا معلمة لغة إنجليزية. بفضل تفاني والدتها وتكريسها جهودها في مساعدة أطفالها على بذل أقصى جهودهم ودعمهم في تحقيق أهدافهم، وجدت تسنيم نفسها سريعًا على طريقها الصحيح نحو تطوير مهارات اللغة الإنجليزية. اقتباسها المفضل: «المستقبل ينتمي إلى من يستعد له الآن» لمالكوم إكس هو إجابتها لمن يسألها عن شعارها في الحياة. هي مؤمنة به، وعزمت عقلًا وقلبًا على اتباع خطة تحتل فيها حياتها الأكاديمية وتخصص اللغة الإنجليزية الأولوية الأولى.

حين كانت في الرابعة عشرة التحقت تسنيم بدورة تعليمية متقدمة في مهارات اللغة الإنجليزية، وغيرت هذه التجربة حياتها على نحوٍ جذري. مع وجود معلم كفؤ ومحاطة بالفرص، بدأت الكتابة باللغة الإنجليزية. بعدها اندلعت الحرب الأولى على غزة، ومثلها مثل حال كثيرين من الغزيين، استغرق الأمر وقتًا لكي تتمكن تسنيم من لم شتات نفسها والمواصلة، لا سيما بعد تجربة مؤلمة كادت تفقد فيه أبويها وبيتها بفعل قذيفة إسرائيلية.

تسنيم التي ازداد إصرارها بعد المحنة، أصرَّت أن يكون لها وجودٌ ملموس في مجتمعها، فإن علمتها الحرب درسًا فهذا الدرس هو أن ترى مجتمعها ككتلة موحدة هي جزءٌ أساسي لا يتجزأ منه. كبرت تسنيم وكبرت معها أحلامها، وآخر مساعيها التي أخذتها إلى الآن نحو التعلُّم تمثَّلت في سفرها إلى الولايات المتحدة في العشرين من يونيو عام ٢٠١٣ ضمن برنامج تطوير المهارات القيادية. في غضون إقامتها هناك على مر ستة أسابيع تعرفت إلى أساليب جديدة في الكتابة، واقتربت خطوة من تحقيق أهدافها المستقبلية.

تقول تسنيم حمودة:

لم أدرك إلا بعد التحاقي بالدورة المتقدمة (في مهارات اللغة الإنجليزية) أنَّ التمكن من الإنجليزية أكثر من مجرد تخصص مستقبليّ، بل أصبح وسيلة تعبيرية تمكّنني من ممارسة إبداعي على نحوٍ أفضل، في عالمٍ حيث للكلمات قوّتها الجبارة.

إلهام حلّس (٢٠١٣)

ولدت إلهام حلّس في عام ١٩٨٨، وتقيم في مدينة غزة. أنهت دراستها الثانوية في عام ٢٠٠٦ والتحقت بعدها بالجامعة الإسلامية في غزة لدراسة الأدب الإنجليزي. إلهام متزوجة وربة بيت، وينصب اهتمامها الأساسي على الترجمة، وفي الأدبين الإنجليزي والروسي، والأدب المقارن، والسياسة. قبل شروع إلهام في الكتابة باللغة الإنجليزية، سبق لها أن كتبت عديدًا من المقالات الساخرة والقصص القصيرة باللغة العربية في منتديات الإنترنت ما بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٩.

تعد إلهام الكتابة سبيلها للهرب، ووسيلةً تتأمل فيها العالم حولها وتخلق بالكلمات شيئًا من لا شيء.

تقول إلهام حلّس:

الكتابة وسيلة مقاومة أحاول من خلالها تسليط الضوء على الكرب والفقد والصراع الذي يعيشه اللاجئ الفلسطيني في المخيمات البائسة حول مدينتي.

آية رباح (٢٠١٣)

آية رباح طالبة في العشرين من عمرها في كلية الطب، في جامعة الأزهر في غزة. وتواظب آية على التطوع باستمرار ضمن أنشطة اتحاد طلبة كلية الطب، ومع ذلك لا ترى هذا التطوع كافيًا لها، إذ تسعى إلى قضاء حياتها في العمل من أجل الآخرين. ترى آية أنَّ الكتابة أذكى نشاطٍ تؤديه، يمنحها الإحساس بالإنجاز ويمدها بمزيدٍ من الأسباب للمواصلة. تفاعلت آية مع مشاهد الموت في الانتفاضة الثانية من خلال الكتابة، وتفاعلت مع حرب **الرصاص المصبوب** بمزيدٍ من الكتابة.

أول ما استفزَّ فعل الكتابة لدى آية الذكريات الحلوة والمريرة عن فلسطين وأبطالها. آية، مثلها مثل كثير من الفلسطينيين، تطاردها وتلهمها أحوال السجناء والشهداء وتعاقب أجيال من اللاجئين في المخيمات، وصور الأراضي المنهوبة والحروب والموت والدمار الذي ألحقته إسرائيل بفلسطين.

تقول آية رباح:

بدراستي الطب في غزة رأيت نصف أحلامي تتحقق، بينما النصف الآخر لا يزال إلى الآن بعيدًا عن متناول يدي، إذ يكمن ذاك النصف في أجساد المرضى الذين سأعالجهم يومًا، وفي الكلمات التي

سأكتبها يومًا. فقد أدركت أنَّ الكتابة هي الحرية في أبهى معانيها... ووجدت طريقي إلى الحرية من خلالها. حينما أكتب أشعر أنَّ حياتي مكرسة لأهدافٍ أسمى، وحين أكتب أشعر أني الشخص الذي أود أن أكون عليه. الكتابة تبقيني قويةً في صراعي من أجل الوجود، وهي المبرر ذو المعنى الأعمق في مواصلة محاولاتي للنجاة.

آية رباح (٢٠٢٤)

كانت ليلة عيد ميلادي الخامس عشر. لا أزال أتذكر بوضوح كيف جلست ساعات أحاول جاهدةً، قبل حلول منتصف الليل، كتابة قصتي الأولى باللغة الإنجليزية لكي أحظى ببداية مذهلة لعامي الجديد. ففي اليوم التالي كنت سأحضر درسي الأسبوعي في اللغة الإنجليزية الذي يعطيه معلمي المفضّل، الأستاذ رفعت، وكل ما أردته أن أعطيه قصتي الأولى.

مرَّت الأيام، ونفد صبري في انتظار درس الأسبوع التالي لأعرف ردة فعله على محاولتي الأولى. دخل الفصل بحضوره النبيل الجليل الذي لا يُنسَى، وقبل أن يبدأ الدرس أدار وجهه إليَّ وقال إنه أُعجب بالقصة وينبغي عليَّ مواصلة الكتابة. لا أزال أستحضر اضطراب خفق قلبي لحظتها ودفق الأحلام الحلوة، لكن أكثر ما أتذكره هي السعادة، السعادة الصافية والفخر الحقيقي الذي شعرت بهما إثر إطرائه أول عملٍ أدبي لطفلة كانت لا تزال تبحث عن هويتها في غزة، غزة التي كانت عالمها بأسره.

في أثناء الحرب الأولى في غزة عام ٢٠٠٨، أجبرنا على إيقاف الدروس والبقاء في البيت. وبفضل معلمي هذا، نجوتُ من تلك الحرب من خلال قلمي ودفتري، حيث بقيت أكتب وأكتب

متجاهلةً جنون الحرب خارج غرفتي. كتبت قصصًا عمّا يجري، ما منحني القوة والصمود والامتنان.

المرة الأولى التي التقينا فيها بعد الحرب كان لقاءً لا يُنسَى، جلس أمامنا في الفصل يتلو بصوتٍ عالٍ أبياتًا من قصيدة لتميم البرغوثي: «نفسي الفداء لكل منتصرٍ حزين، قُتِل الذين يحبهم، إذ كان يحمي الآخرين،» وتوقَّف محاولًا جهده إخفاء الدموع في عينيه. لحظتها كل ما في الغرفة استحال دمعًا: الجدران، أشعة الشمس التي تلامس برقّة وجهه الجميل، وحتى الصمت الرهيب الذي بدا حينذاك عصيًّا على الكسر.

مضت الأعوام ولم أرَ أستاذ رفعت بعد انتهاء برنامج منحة تعلُّم اللغة الإنجليزية ذاك، لكني دومًا احتفظت بذكرياتي معه عزيزةً على قلبي. لاحقًا، في عام ٢٠١٣، وصلتني دعوته للمشاركة في كتاب يسرد قصصًا عن الحرب في غزة. ومرةً أخرى وجدتني مشحونة بالعواطف لإثبات رسوخ كل ما علمنا إياه، وبعد إرسال قصتي انتظرت رده متوترةً. كنت حينها أدرس الطب، وأكتب من وقت إلى آخر.

آه أستاذ رفعت، لو بيدي رؤيته مرة أخرى لكي أخبره بأني أتذكَّر كل كلمة قالها لي وهو يمسك مسودة قصتي، كلَّ تعليقٍ شاركني إياه، لدى التقائنا في مبنى استحال ركامًا الآن بعد قصفه في هذه الحرب الطويلة منذ ٢٠٢٣. ليت بيدي أن أخبره عن سعادتي المطلقة حينها بأني لم أخيِّب ظنه.

أنا الآن طبيبة، ولا أزال أحاول سرد قصصنا كفلسطينيين مثلما أراد منا دومًا. وفي عام ٢٠٢٠، نشرت روايتي الأولى باللغة العربية «لأنَّ الحب لا يفنى أبدًا».

لم أصدّق حينها، ويعصى عليّ التصديق حتى الآن، موت معلمي المفضّل، معلمي من علمني النهوض من تحت رماد الألم وتحويله إلى كلمات يقرؤها الآخر ويكررها ولعلّه يتأثر بها. إليه أدين بأعظم مشاعر الامتنان في حياتي، وسأودع في كلمة أكتبها، إلى آخر كلمة أكتبها، منتهى احترامي ومحبتي وشكري.

لروحك القوية السلام أستاذي الحبيب، ولكلماتك الحياة مدى الدهر!

محمد سليمان (٢٠١٣)

محمد سليمان كاتبٌ من غزة وناشط في حقوق الإنسان. نال درجة الماجستير في حقوق الإنسان من كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ونشرت كتاباته في منصات إعلامية إلكترونية عدّة من ضمنها (Aljazeera English) و(OpenDemocracy) و(The Electronic Intifada) و(Mondoweiss).

لأن محمد قضى معظم حياته في منطقة اتسمت بالاضطراب السياسي وعدم الاستقرار والعنف نتيجة الاحتلال الإسرائيلي للشعب الفلسطيني وأرضه، وجد نفسه ملزمًا بتسجيل آرائه وتوثيق يومياته عمّا يشهده رأي العين. أطلق محمد مدونته الخاصة لكي يتسنى للناس القراءة ويكتسبوا معرفةً أعمق بحياة الفلسطيني بعيدًا عن تعقيدات الخطب السياسية والتحليلات الإعلامية المبهمة. فالشخص الذي لم يسبق له زيارة غزة يشكّل على الأغلب صورةً عن الحياة في فلسطين، تحديدًا في غزة، مفعمة بالأسى والمعاناة حيث لا حيز للحظة صفاء يعيشها الفلسطيني. لهذا، تتحدث مدونة محمد عن السلم كما تتحدث عن الحرب، عن الأمل مثلما تتحدث عن اليأس، عن النزوح وأيضًا عن حتمية العودة. محمد يكتب عن غزة ومن أجلها ومن أجل أهلها.

يقول محمد سليمان:

كلمة «غزة» ذاتها تثير كثيرًا من المعاني المتضاربة: الحياة والموت، البهجة والتعاسة، الإثارة والبؤس، الأمل واليأس، حماس وفتح. غزة، الكلمة، بطبيعتها وبمجرد نطقها، تستحضر آليًّا صورتين مغروستين في ذاكرة كل غزاوي: إحداهما لفارس عودة وهو يواجه بعينين جسورتين دبابةً إسرائيلية ويلقي حجرًا عليها، والثانية لمحمد الدرة بينما أبوه يعانقه، يصرخ يائسًا من أجل نجاة ابنه. غزّة الكلمة، رغم خفتها اللغوية، إلا أنها ثقيلة ثقل الجبال على قلوب أعدائها.

محمد سليمان (٢٠٢٤)

حتى في حضرة الوجود الكليّ للموت، حتى حين يألف المرء فينا مشاهد الموت الجماعي، حين يفوق احتمال الموت الحياة، حين يضحى نذير الموت صديقًا، حتى في غمرة الحرب، في غمرة الإبادة، في غزة، حيث الموت فكرةٌ راسخة في الذهن، ورائحته النفاذة طاغية على كل ما غيرها، وواقع وجوده طاغٍ على كل واقعٍ آخر، حتى حينذاك، حين يغدو الموت الزائر المعتاد، الطوّاف بيننا دونما كللٍ، والخليل الموثوق به، وحتى حين يموت الجميع، حين ينتظر الكلُّ موته في أي لحظة، حين يصبح الهلاك واقع الوجود الاعتيادي، والكل يتوقع موته اللحظة، حتى حينذاك ثمة أشخاص لا يموتون. حتى حينذاك، ثمة أشخاص لا بد وحتمًا سينجون، يعصى على عقولنا استيعاب احتمالية موتهم، موت شخصٍ كهذا، رمزٍ كهذا، فموت ذاك الشخص يهدد الوجود الجمعيّ لشعبٍ بأسره. احتمال موته منفيٌّ من ملكوت الممكن ويكمن خارج الوعي الحيّ. شخصٌ كهذا لا بد أن نحميه بأي ثمن، شخصٌ كهذا لا يمكن أن يموت.

أو ربما فعلًا يموت؟

إذن ربما يجدر بي أن أقول: «رحل رفعت عن هذه الحياة» عوض قولي: «رفعت مات» لأنَّ رفعت غير مسموحٍ له بأن يموت.

لكن لا عبارة تخفف واقع موت رفعت. رفعت مات. لكن رفعت لم يمت وحسب، وكان سيشمئز جدًّا من الحيادية في صياغة «رفعت مات»، رفعت قُتِل. قُتِل على يد «الدولة الإسرائيلية» التي قتلت كثيرين من أفراد عائلته -أخته وأخاه وأبناء أخواله وأعمامه وبنات أخواله وأعمامه وأصهاره- الدولة نفسها التي دمرت بيته ودكَّت حيَّه إلى ركام، الدولة نفسها التي أهلكت مدينته واقتلعت أهلها منها ويتَّمت أطفاله وارتكبت غيرها كثيرًا من الجرائم الفادحة الشنيعة ضد إنسانية رفعت وشعبه.

رفعت لم يحمِه أحد، جريمة قتله سُمِح لها أن تقع.

إذن شخصٌ كما الموصوف أعلاه لم يكن حقًّا موجودًا، كان مجرد شذرة من صنيعة خيالنا. شخصٌ كهذا، بطلٌ خارقٌ كهذا، عاش فقط في أذهاننا اليائسة التي تواجه آلة الموت الإسرائيلية الحاضرة أبدًا. كل شخصٍ على الجانب المتلقي لجرائم هذه الآلة الإسرائيلية معرَّضٌ لفتكها دونما أي استثناء، وأشدهم عرضةً المدنيون غير المسلحين، حتى أولئك من لا يملكون سوى الكلمات سلاحًا ضد الاضطهاد، حتى المفكرون، الكتّاب، الشعراء، قادة حركات المقاومة المدنية الملهمون، ممن يقفون في وجه الدولة الإسرائيلية، حتى هؤلاء أهدافٌ مباحة للجيش الإسرائيلي، فرائس يصطادها الجيش من السماء، وسيُقتَلون. في غزة، الكل يموت، الكل يُقتَل، ولا أحد -*لا أحد*- محميٌّ من آلة القتل.

إذن حتمًا، موت شخصٍ كهذا لا بد أن يكون عنيفًا، أعنف من مجرد جريمة قتل. أعنف من القصف والقنابل، أعنف من العنف الجسدي. قتلُ إنسانٍ كهذا ندبةٌ لا تلتئم. حين يُقتَل إنسانٌ مثل رفعت، على الإنسانية كلها أن تقرّ وتعترف باحتمال وقوع جريمة قتل -أن تقع ضحية جريمة قتل- ولن ينال القاتل أي عقاب ولن يواجه أي عواقب. هي مواجهةٌ مرعبة ضد أبلغ وجوه الواقع شرًّا ووحشيَّة: واقع الإبادة الجماعية، مقتل من كنا نظنه محصَّنًا من القتل، ومحصَّنًا من الهمجية، خصوصًا في واقع الإبادة. موت - مقتل - هذا الإنسان ينتهك حتمًا كل القوانين، وكل النواميس، وكل الأفكار والتوقعات. فالكلُّ يموت، ولا أحد محصَّنٌ في الحرب، ولا في الإبادة، ولا في غزة. الكل هدفٌ مباحٌ للقتل، ورفعت ليس استثناء.

لكن رفعت استثناء. التقيت رفعت حين كنت طالب سنة أولى في اللغة الإنجليزية في الجامعة الإسلامية في غزة. كان أستاذًا مرِحًا، حماسيًّا، وملهمًا، ومسليًا. معرفته باللغة الإنجليزية والأدب العالمي كانت موسوعيّة، وحرص في أفعاله على أن يكون قدوةً يُحتَذى بها. تعاطفه مع الناس لا حدَّ له، وصادقٌ في تواضعه. لم يتعامل قط باستعلاء مع أي طالب، بل كان ينظر إلى كل طلبته على أنهم مساوون له: حرص أن يرفعهم إليه، وتعامل معهم جميعًا مثلما يتعامل الأخ الأكبر مع إخوته. كان مفكرًا دؤوبًا، يقطع القاعة جيئة وذهابًا، يطرح أسئلة دقيقة حول تفاصيل تبدو هامشية جدًّا

في مسرحية لشكسبير أو رواية لتشارلز ديكنز، وبعد سماحه بمرور لحظة من الصمت المرتبك، يجيب عن السؤال بنفسه وكأنما يتمتم، مستغرقًا في مناجاته، يختبر أفكاره، يمتحن منطقه، أمام طلبته المذهولين.

غرس رفعت في طلبته حبَّ الكتابة وسرد القصص. وفي ظل الاحتلال والحصار وقصف القنابل والاعتداءات العسكرية والكفاح اليومي، أصبح بلوغ الأداء العاديّ المتوسط سقف آمال وطموح جيلٍ بأسره من خريجي الجامعات وطلبتها. لكن ما إن تخطو داخل فصلٍ من فصول رفعت إذ بإحساس حقيقي من التفاؤل يسيطر على المشهد، طاقته المعدية تسري في الجميع وتظل عالقةً في الفصل حتى بعد مغادرته. رفعت بثَّ الحياة في طلبته، واستشعر في دواخل كثيرٍ منّا رغبةً مشتعلة لإضفاء معنى على حياتنا في غمرة اليأس والعجز. صقل فينا شغفنا تجاه الكلمات والتأليف، فتح آفاقًا جديدة لنا، احتمالات جديدة للمقاومة والتمكّن من أدوات النقاش وتحويل الكلمات إلى سلاح، علَّمنا أهميَّة الاتصال بالواقع وخوض المعارك بأهداف واضحة وتسخير قوة السرد لصالحنا. تفانينا لشعبنا وحبنا لوطننا وإيماننا بعدالة قضيتنا وبأنفسنا وإيماننا بالخير وبإنسانية البشر تجاه بعضهم بعضًا، كلها جمعتنا في رباطٍ وثيق لا ينفصم.

تمتعت بامتياز وجودي طالبًا لدى رفعت ونيلي فرصة التعامل معه عن قرب. تعلَّمت كثيرًا من رفعت، ما يفوق الوصف، داخل

فصله وخارجه. بعدها مضيت لأواصل دراساتي العليا وبحث الدكتوراه في إنجلترا وأستراليا، واخترت المضي في طريق البحث الأكاديمي في نظريات علم الاجتماع والسياسة حيث شكلت الأفكار التي تعرَّضتُ لها في فصول رفعت، خلال سنوات دراستي الجامعية في غزة، الأساس المتين لعملي. ولا مرة، في هذا الطريق، زاغ بصري عن الهدف الذي أملت في تحقيقه من خلال عملي هذا، وهو أن أكون مقاومًا فعالًا: أن أحوّل الكلمات إلى سلاح، وأسخّر قوة السرد لصالحنا. هذا هو إرث رفعت الحيّ فينا، في طلبته، في عائلته، في أصدقائه، في شعبه. ومع ذلك، يستحيل وصف إرث رفعت بالكلمات. هذا رجلٌ تشكَّلت حياته من الحكايات، من القصص، من القصائد، من السرديات، من النصوص، من الكتابة. حقًّا، لا يمكن للكلمات أن تفي حقَّ الرجل الذي تسلَّح بها ضد الاضطهاد. رفعت قُتِل، سُمِح لجريمة قتل رفعت أن تقع، لكن رفعت لم يمت.

لأنَّ رفعت لا يمكن أن يموت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

روان ياغي (٢٠١٣)

روان ياغي شابة فلسطينية من غزة في الحادية والعشرين من عمرها. بدأت روان دراستها في تخصص الأدب الإنجليزي في الجامعة الإسلامية في غزة، ثم انتقلت إلى جامعة أوكسفورد في المملكة المتحدة وواصلت دراستها هناك. إلى جانب الكتابة، تهوى روان الرسم.

بدأت روان الكتابة بالإنجليزية بعد الاعتداء الإسرائيلي عام ٢٠٠٨ على غزة، وتختار غالبًا أن تسرد من منظور الأطفال، إذ ترى أنَّ أصوات الأطفال هي الأقوى في تجسيد المحنة التي يعيشها الغزيون وتجسيد آمالهم في مستقبل أفضل. قصص روان مستلهمة من قصص حقيقية تقع كل مرة ترمي فيها طائرة إسرائيلية قنابل ثقيلة: ففي كل قصف ثمة طفل يعلق تحت الأنقاض، وفي كل مرة ينفِّذ فيها طيار الأوامر، يضغط على زر ويوجّه صاروخًا عالي التقنية، يتعرض طفلٌ لصدمة، وآخر يُقتَل، وآخر يُترَك وحيدًا، وآخر يستحيل كومة لحمٍ مشوّهة. تكتب روان لكي تروي قصص هؤلاء الأطفال، لأنها لا تريد أن تراهم يعانون مزيدًا من الألم. فإذا استشعر الناس ألم هؤلاء الأطفال، فلا بد ستنهض الجهود لإيقافه.

تتوق روان إلى الحرية، حتى إن بدت رغبتها هذه كليشيه مبتذلًا. فهي ولدت لاجئة وتعيش مشاعر التهجير والنزوح منذ ذكرياتها الأولى، فقد سُلبَت منها أرضها، وسُلبَ منها الإحساس الذي لم يُسمَح لها بأن تعيشه أو تشعر به.

تقول روان ياغي:

أؤمن بقوة الأدب على تجاوز الحدود والجدران، فقد اختبرت شخصيًّا قدرة الأدب على محو الحدود القومية والأحكام المسبقة، وقدرته على الوصول إلى الجوهر الإنساني لدى الناس. لهذا آمل أنْ تترك نصوصي هذا الأثر لدى الآخرين. وأحيانًا أشعر بأني أمتلك شيئًا من خلال الكتابة، أختبر صورةً من صور الحرية التي أسمح بها لنفسي وأحظى بالقوة لمنع أي شخص آخر من انتهاكها. ورغم أنَّ كتاباتي محاطة بالجدران وكلماتي مدوّنة في سياق الحروب، فإنها هي التي تمدني بإحساس الحرية، لأني أنا أختار كتابتها وأرفض رفضًا قاطعًا البقاء صامتة.

روان ياغي (٢٠٢٤)

كان نحيفًا ويمشي بخطًى واسعة. وإذا لم يكن رأسه مستغرقًا بين دفتي كتاب، كان مرفوعًا، غالبًا يمازح شخصًا يحادثه أو يصغي بإمعان إليه. دومًا الكتاب تحت ذراعه، قريبٌ من ضلوعه.

عرفت رفعت نصف حياتي. المرة الأولى التي سمعت فيها عنه كان من أختي التي درَّسها في الجامعة الإسلامية في غزة. كانت عضوًا في منتدى في الإنترنت أسَّسه رفعت لطلبته لكي يتحادثوا عن المواد الدراسية ويسلموا واجباتهم ويتناقشوا أفكارًا إبداعية ويكتبوا. انضممت إلى المنتدى وأنا في الرابعة عشرة. هناك تعلَّمت أول إحالة إلى أورويل، وهناك عرفت رفعت.

لاحقًا، درَّسني رفعت لمدة عامين ضمن برنامج مموَّل من الولايات المتحدة للطلبة المتفوقين بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة. أتذكّر جيدًا امتعاض رفاقي وولاءهم إلى معلمنا السابق، لكن ما إن مضت خمس دقائق على دخول رفعت الصف حتى استحوذ على كامل انتباهنا. كنا جائعين لمعلمٍ مثله. إذ ما انفكَّ رفعت يتحدانا، يُتخِمنا بالمعلومات، يصغي إلى ثرثرتنا. كتبت قصتي الأولى ونشرتها في منتداه، قصة عن ولدٍ يفقد صديقه المقرَّب ومنذ ذاك يصعب عليه البكاء طوال حياته، وما إن يعود إلى بيته يحدِّق إلى

السقف طوال الليل. رفعت احتضن موهبتي فورًا، وشجعني من أول يوم على كتابة المزيد. رفعت رآني ورفعني.

بعد تخرّجي في المدرسة احترت بين تخصصيِّ الهندسة والأدب الإنجليزي، وهو من شجعني على الخيار الثاني. ساعدني وجود رفعت كأستاذ في الجامعة الإسلامية في غزة، فهناك تعرَّفت تحت إرشاده إلى الأدب الإيطالي، أقرأ بيرانديلو ودانتي وبترارك. المعرفة التي نهلتها منه حملتها معي إلى دراستي في جامعة أكسفورد، وهو أيضًا من شجعني على التقديم إليها. علَّمنا رفعت الأدب الإنجليزي ضمن سياق الأدب العالمي. أسس منهج مادة القصة القصيرة لكي يعكس فلسفته، ويستلهم من أعمال غسان كنفاني وفيرجينيا وولف وتشيخوف وهمنغواي وبيرانديلو.

ما انفكَّ رفعت يؤكد كونيَّة الأدب وقدرته على الإطاحة بالأحكام المسبقة وتحدي السلطة. هو حقًّا آمن بالأدب، وقُتِل بسبب عمله في الأدب وعلى يد الأحكام المسبقة التي واجهها والسلطة التي تحدَّاها. لا أستطيع اختزال ذاكرتي عن رفعت في ذكريات منفصلة، رفعت كان جزءًا منّي، وحين فقدته بكيت وصرخت. رفعت أحبَّ عمله وأحبَّ طلبته، معظمهم غدا صديقًا له.

نحن أحببناه، وهم سلبونا إياه..

كلمة المترجمة

هي من طبيعة الترجمة أن يقع اصطدامٌ أوليّ بين لغتين، بين عالمين، مثل اصطدام موجتين عارمتين من اتجاهين متضادين فيندمجا إلى ماء. ومن طبيعة الترجمة أن يتولَّد شيءٌ من العنف إثر هذا الاصطدام، ومن شرارة هذا العنف تنبثق شعلة العمل لدى المترجم. لكن العنف الذي اختبرته في ترجمة هذا العمل لا يشبه أي تجربةٍ اختبرتها.

لا أتحدث فحسب عن مواكبة ترجمة هذه المجموعة مع جرائم الإبادة الجماعية المروّعة التي لا يزال جيش الاحتلال الإسرائيلي يرتكبها حتى لحظة كتابة هذه الكلمة، بل عن عنفٍ مبطَّن، كأنما أحاول إجبار نصٍّ على الترجمة إلى لغة لا يريدها، أو لنقل لغة يئس منها ومن قرّائها.

في الأسابيع القليلة الأولى ساورني الشك في قدرتي على ترجمته، أنَّ هذا النص يرفضني ويقصيني عنه، وظلَّ السؤال الملح يطاردني:

هل كان رفعت العرعير -الذي لم أعرفه سوى من حسابه على تويتر- سيوافق على ترجمة العمل إلى اللغة العربية، هل كان سيقبل بي مترجمةً للكتاب الذي أحبَّه؟

بعدها، خلال بحثي عن اللقاء الأخير لرفعت العرعير قبل اغتياله، اكتشفت قناته على يوتيوب. في هذه القناة صوَّر رفعت محاضراته التي كان يلقيها في الجامعة الإسلامية في غزة باللغة الإنجليزية، وشاهدت محاضرته الأولى في مادة «مقدمة للشعر الإنجليزي». ومع تكبير الشاشة على حاسوبي، استذكرت شعوري قبل ما يزيد عن عشرين عامًا، حين كنت طالبة متحمسة في تخصص الأدب الإنجليزي، وأمامي أستاذ يمكن لأي طالب أن يدرك من اللحظة الأولى أنه أستاذٌ لن ينساه. وبالكاد مضت ربع ساعة من المحاضرة وإذ أسمعه يقول لطلبته «أحيانًا يصير الوطن حكاية. والحكاية نحبها لأنها عن وطننا، ونحب وطننا أكثر بفعل الحكاية»، الجملة التي استهلَّ بها مقدمته لهذه المجموعة.

لحظتها، ولسبب أعجز عن تفسيره، بكيت لدى سماعي العبارة بصوته وأسلوبه، وتملكني إحساسٌ داخليّ أنَّ رفعت، حتى إن لم يكن سيقبل بي مترجمةً للمجموعة، سيقبل بي طالبةً في فصله. في تلك اللحظة اندمجت الموجتان.

ثمة خيارات اتخذتها في ترجمة المجموعة ارتأيت أنها الأفضل في الحفاظ على خصوصية العمل وطبيعته. أهمها أني اعتمدت اللهجة الفلسطينية في ترجمة الحوار في كل القصص عدا ثلاثٍ

منها: «البيت» و«الشيخ والحجر» لرفعت العرعير، و«لا شيء يبرر ندوبنا» للدكتورة آية رباح.

في قصتي رفعت، دمجت ما بين ترجمة الحوار إلى العربية الفصحى واللهجة الفلسطينية، أحيانًا يحدث الانتقال بينهما في العبارة ذاتها. حين ترجمتُ الحوارات في القصتين إلى العربية الفصحى فقط لم أقتنع بها، وحين ترجمتها في نسخة أخرى إلى اللهجة الفلسطينية وحدها أيضًا لم أقتنع بها، كان ثمة خلل لم أفهمه بدايةً. ثم أدركت أنَّ رفعت بحكم خبرته ودراسته كان الأقدر بين طلبته حينها على الكتابة باللغة الإنجليزية بصفتها لغة أولى دون الحاجة إلى ترجمة معاكسة في ذهنه. وبرأيي، الحوار كُتِب بلغة إنجليزية أولى، ما يعني أنَّ ترجمتها إلى العربية الفصحى يفيها حقَّها من تبيان المعنى والعاطفة، لكنك كمترجم تستشعر وجود عبارات لا يفيها حقّها -في المعنى والعاطفة- إلا اللهجة الفلسطينية. كيف ميّزت بينها؟ اعتمادًا على الأداة التي يستعين بها أغلب المترجمين: الحدس.

فيما يخص قصة «لا شيء يبرر ندوبنا» فالتقسيم كان أوضح. فقط الحوارات التي تجمع بين بطلة القصة وطفليها وزوجها، وبائع الورد في الختام، هي باللهجة الفلسطينية، بينما حوارات البطلة مع أمها وبقية الشخصيات باللغة العربية الفصحى. لماذا استثنيت الأم من خصوصية اللهجة في عائلة البطلة؟ لأنَّ شخصية الأم هنا أقرب إلى تجلٍّ عن الأولياء.

الخيار الثاني يخص الكنية. في النص الإنجليزي، حافظ رفعت

العرعير على دوام كتابة الكنى مثل أبو إبراهيم وأبو أحمد وأبو ليلى وغيرهم على وضع الرفع (Abu)، حتى إن كانت في مواضع تستلزم النصب (أبا إبراهيم) أو الجر (أبي إبراهيم)، وهو قرار تحريري صحيح وأساسي للتسهيل على القارئ باللغة الإنجليزية. هذه السمة التحريرية ارتأيت الحفاظ عليها في الترجمة العربية، لتظلّ الكنى مرفوعة على الدوام بصرف النظر عن موقعها النحويّ؛ تذكيرٌ بأنَّ هذا النص هويته اللغوية الأساسية هي اللغة الإنجليزية.

الخيار الثالث، والأطول زمنيًّا في اتخاذ قرارٍ حاسم بشأنه، هو ترجمة عنوان الكتاب (Gaza Writes Back): هل أضمّن الترجمة سمة التلاعب اللفظي ما بين (Fights Back) و(Writes Back)، لا سيما مع توصيف رفعت الكتابة بأنها فعل مقاومة؟ أو أركن إلى عنوان «غزة ترد بالكتابة» الذي شاع في الأشهر الماضية سواء في منصات التواصل الاجتماعي أو في المنصات الإخبارية والدوريات البحثية، من ضمنها مؤسسة الدراسات الفلسطينية؟

قلقي المبدئي من تضمين مفردة «المقاومة» في العنوان بأي صيغةٍ كانت أنَّها قد تطغى على فعل «الكتابة» وتكرّس اندفاعنا نحو تمجيد صورة الفلسطيني المقاوم الجبَّار في أذهاننا دون بذل أي جهدٍ من طرفنا في إدراك تفاصيل حياته الصغيرة ومدى تضحيته ومدى الفقد الحقيقي الذي يعيشه ويحيط به. فنحن أيضًا، ودون وعيٍ منّا، يحلو لنا التعامل مع القتلى الفلسطينيين على مرِّ كل المجازر البشعة التي تحتل الأخبار منذ النكبة، وحتى تلك التي وقعت دونما

أي ظهور إعلامي يُذكَر يشدُّ انتباهنا، على أنهم أرقام شهداء وليسوا أناسًا طبيعيين مثلنا لديهم أحلامهم وطموحهم وعوائلهم وأطفالهم وآباؤهم وأصدقاؤهم وأجسادهم وبيوتهم وأشجارهم وأزهارهم وكتبهم وأشياؤهم التي يحبونها، ويجرحهم فقدُها.

فلماذا إذن ترجمتُ العنوان إلى غزة تقاوم بالكتابة؟ لأني عدت عشرات المرات إلى لقاء رفعت العرعير قبيل قتله، حين قال: «أنا أكاديميّ، وأحدُّ أداةٍ لدي في بيتي أدافع بها عن نفسي هو قلم السبورة، فإذا اقتحم الإسرائيليون بيوتنا، من الباب للباب، وانقضوا علينا ليذبحونا، سألقي بقلم السبورة في وجه أولاء الجنود، ولو كان آخر شيء أفعله». وبينما تخنقه العبرات واصل قائلًا، «نحن عاجزون، وليس لدينا شيءٌ نخسره».

رمي القلم ليس مجرَّد «رد» عاجز، بل مقاومة في أحلك الساعات وأشدها ظلمةً أمام آلة قتلٍ لن يمنعها القلم عن قتلك اللحظة ومن تحب بأبشع صورة، لكن سيعطِّلها ويفنيها، ولو بعد حين. هذا ما رأيناه يتجسَّد في قصيدة رفعت (If I must die)، وفي أثر كلِّ درسٍ كتب رفعت عنوانه وأفكاره على سبورة الفصل البيضاء، وفي كل قصة حرَّرها في هذه المجموعة، وفي كل قصة شجّع طالبًا لديه على كتابتها.

تستذكر سميحة علوان ما قاله له أستاذها رفعت في محاضرة عن الشعر الميتافيزيقي: «المهم يا سميحة كيف نقول ما نقول لا ما نقول». الكيفية التي أسَّس بها رفعت العرعير هذه المجموعة،

الكيفية التي كتب بها طلّابه قصص هذه المجموعة مهمة، ومهمة للغاية. فبعد عشر سنوات من كتابتها، ومع التفات أعين العالم إلى وحشية جرائم الكيان الإسرائيلي في غزة وفي فلسطين، وجد القرّاء في كل مكان هذا الكتاب يردُّ عليهم باللغة الإنجليزية.

وها الآن أصبح بين يديك، يردُّ عليك بلغتك.

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

كلمة شكر

أقدِّر للغاية المجهود الكبير الذي بذله أناسٌ عديدون في إنجاز هذا الكتاب. وأود أن أتوجه بالشـكر إلى هيلينا كوبان وكمبرلي ماكفـو وبقيـة أعضـاء فريـق دار (Just World Books) علـى تحويل مشروع هذا الكتاب إلى واقع. وأشكر شخصيًّا آني روبنز على دعمها العديد من الكتّاب الواعدين. وأشـكر أيضًا يوسـف الجمل، أحد كتّاب المجموعة، على مساعدته في ترتيب الأمور اللوجسـتية في مركز الدراسات السياسية والتنموية في مدينة غزة، وأشكر سميحة علوان على عملها الرائع في قراءة النصوص.

اثنـان منحـا هـذا الكتـاب الفضل الأكبر: سـارة علـي، إحدى كاتبـات المجموعـة، التي رافقت المشـروع منـذ يومه الأول، فاقترحت النصوص وقرأتها، وعملت معي ومع الكتّاب على منح القصص شـكلها وأسـلوبها كما ظهرت عليه في صورتها الأخيرة؛ وديانا غزاوي من (Wordreams Editing and Design)، التي صقلت هذه القصص بمهاراتها التحريرية وعينها الثاقبة.

رفعت العرعير

نبذة عن الشهيد رفعت العرعير

الشهيد د. رفعت العرعير (١٩٧٩ - ٢٠٢٣) شاعر وكاتب فلسطيني وأستاذ الأدب المقارن في الجامعة الإسلامية في غزة، قتلته غارة جوية إسرائيلية في السابع من ديسمبر ٢٠٢٣ لدى مكوثه في منزل شقيقته، قتلت الغارة ليلتها شقيقه وشقيقته وأطفالها الأربعة. ألهم رفعت طلبته والعديد من شباب غزّة على الكتابة باللغة الإنجليزية وسرد القصة الفلسطينية من خلال سرد قصصهم. وبعد استشهاده ذاع صيت قصيدته «إن كان لزامًا أن أموت» (If I must die) في العالم بأسره لتثبت أنَّ الأدب سلاح مقاومة لا يُقهَر.

كان يبلغ من العمر الرابعة والأربعين لدى استشهاده، ووالدًا لستة أبناء، ومعلمًا ملهمًا وصديقًا وفيًّا لا يُعوَّض لدى كل من عرفه وأحبَّه.

أحيانًا يصير الوطن حكاية. والحكاية نحبها لأنها عن وطننا، ونحب وطننا أكثر بفعل الحكاية.

هذا كتابٌ هو الأول من نوعه (غزة تقاوم بالكتابة) يعيد توثيق الأحداث، ويخلِّد من خلال كتابة القصة الذكرى الخامسة للهجوم العسكري الكاسح "الرصاص المصبوب" الذي شنته إسرائيل على غزة بين ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨ و١٨ يناير ٢٠٠٩. هذه القصص التي كتبها كتَّابٌ يافعون من غزة، باللغة الإنجليزية، سرديةٌ فلسطينية يافعة، العالَمُ في أمسِّ الحاجة إلى وجودها من دون وساطة الترجمة وتأثيرها، ومن دون وساطة الأصوات غير الفلسطينية. (غزة تقاوم بالكتابة) يقاوم محاولات إسرائيل سفك هذه الأصوات الناشئة، وتبديد معاناة الشهداء، وتبييض يديها من الدم، وكبح الدموع وخنق الصرخات. هذا كتابٌ يُرِي العالم أنَّ رغم محاولات إسرائيل الحثيثة قتل الصمود فينا، سنظل نحن الفلسطينيين نواصل الحياة، لن نستسلم أبدًا للآلام والموت، ودومًا سنظل نرى الحرية والأمل نصب أعيننا ونسعى إليهما حتى في أحلك الأوقات. (غزة تقاوم بالكتابة) دليلٌ حاسم على أنَّ سرد القصص فعلُ حياة، أنَّ سرد القصص فعلُ مقاومة، أنَّ سرد القصص يشكِّل ذكرياتنا.

مكتبة

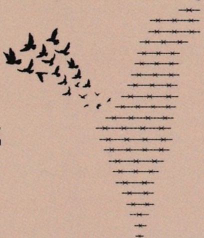

غزة تقاوم بالكتابة

قصصٌ قصيرة بقلم كتَّاب
شباب في غزة - فلسطين

9 789921 808476

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com